# رحـــلة
# ابن جبير

# مقدمة المؤلف

## بسم الله الرحمن الرحيم
## اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

## بداية الرحلة

ابتدئ بتقييدها يوم الجمعة ، الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، على متن البحر بمقابلة جبل شُلَيرْ ، عرفنا الله السلامة بمنه .

وكان انفصال أحمد[1] بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة - حرسها الله - للنية الحجازية المباركة - قرنها الله بالتيسير والتسهيل ، وتعريف الصنع الجميل - أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي .

وكان الاجتياز على « جَيَّان » لقضاء بعض الأسباب ، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور ، وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضًا .

وكانت مرحلتنا الأولى منها إلى (حصن القَبْداق) ، ثم منه إلى (حصن قَبْرة) ، ثم منه إلى مدينة (اسِتجَة) ، ثم منها إلى (حصن أشُونة) ، ثم منه إلى (شَلَيْر) ، ثم منه إلى (حصن أركش) ، ثم منه إلى قرية تعرف بقرية (القشمة) من قرى مدينة ابن السليم ، ثم منها إلى (جزيرة طريف) ، وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ .

فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني من [ نزولنا ]، يسر الله علينا في عبور البحر إلى (قصر مصمودة) تيسيرًا عجيبًا والحمد لله ، ونهضنا منه إلى (سبتة) غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه ، وألفينا بها مركبا للروم الجنويين مقلعًا إلى الإسكندرية - بحول الله عز وجل - فسهل الله علينا في الركوب فيه ، وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه ، وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره .

---

(١) سقطت من الناسخ .

وكان طريقنا فى البحر محاذيًا لبر الأندلس، وفارقناه يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده عندما حاذينا دانية . وفى صبيحة يوم الجمعة، السابع من الشهر المذكور آنفًا، قابلنا بر جزيرة يابسة، ثم يوم السبت بعده قابلنا بر بجزيرة ميوُرقَة، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منُورقة ، ومِن سَبتة إليها نحو ثمانية مجار ، والمجرى مائة ميل .

وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة سردانية ، أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل، وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة ،نحو الأربعمائة ميل ، فكان قطعا مستغربا فى السرعة.

## مصاعب الرحلة

وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر ، فأخرجنا عنه ، والحمد لله على ذلك .

وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور ، فبقينا مترددين بسببه حول برِّ سردانية إلى يوم الأربعاء بعده، فأطلع الله علينا – فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء، فلا نميز شرقًا من غرب – مركبًا للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسئل عن مقصده، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية ، وأنه من قرطاجنة عمل مُرسية .

وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم ، فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره – والله الميسر لا رب سواه – فخرج علينا طرفٌ من بر سردانية المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عودًا على بدء ، إلى أن وصلنا طرفًا من البر المذكور يعرف بقوسمركة – وهو مرسى معروف عندهم – فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور والمركب المذكور معنا، وبهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ، ذكر لنا أنه كان منزلا لليهود فيما سلف ، ثم انا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور. وفى مدة مُقامنا بالمرسى المذكور ، جددنا فيه الماء والحطب والزاد ، وهبط واحد من المسلمين ، ممن يحفظ اللسان الرومى ، مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منا، فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين ، بين رجال ونساء ، يباعون فى السوق ، وكان ذلك عند وصول العدو – دمره الله – بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين ، والله يتداركهم برحمته .

ووصل إلى المرسى المذكور ، يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينا فيه ، سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل ، فنزل إليه أشياخ المركب من الروم ، واجتمعوا به ، وطال

مقامهم عنده ، ثم انصرفوا وانصرف إلى موضع سكناه . وتركنا المركب المذكور فى موضع ارسائه ، بسبب مغيب بعض أصحابه فى البلد ، عند هبوب الريح الموافقة لنا.

وفى ليلة الثلاثاء الثامن عشر بذى القعدة المذكور ، والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضًا ، وفى الربع الباقى منها ، فارقنا بر سردانية المذكورة ، وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتى ميل ، ومنتهى دور الجزيرة – على ما ذكر لنا – إلى أزيد من خمسمائة ميل ، ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب ما فى الطريق ، والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان ، والحمد لله على ذلك .

وفى ليلة الأربعاء بعدها ، من أولها ، عصفت علينا ريح هال لها البحر ، وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب[1] سهام . فعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ منا مبلغه ، وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا .

فجاء النهار – وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة – بما هو أشد هولاً ، وأعظم كربًا ، وزاد البحر اهتياجًا ، واربدت الآفاق سوادًا ، واستشرت الريح والمطر عصوفًا حتى لم يثبت معها شراع . فلجىء إلى استعمال الشرُّعُ الصغار ، فأخذت الريح أحدها ومزقته ، وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها – وهى المعروفة عندهم بالقَرِيَّة – فحينئذ تمكن اليأس من النفوس ، وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل ، وأقمنا على تلك الحال النهار كله . فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور ، وسرنا فى هذه الحالة كلها بريح الصوارى سيرًا سريعًا .

وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية ، وبتنا تلك الليلة – التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور – مترددين بين الرجاء واليأس . فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته ، وأقشعت السحاب ، وطاب الهواء ، وأضاءت الشمس ، وأخذ فى السكون البحر ، فاستبشر الناس ، وعاد الأنس ، وذهب اليأس . والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته ، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته ، حمدًا يكون كفاءً لمنته ونعمته .

وفى هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر صقلية ، وقد أجزنا أكثره ، ولم يبق منه إلا الأقل . وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم ، وممن شاهد الأسفار والأهوال فى البحر من المسلمين ، أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم ، والخبر عن هذه الحالة يصغر فى خبرها . وبين البرين المذكورين – بر سردانية وبر صقلية – نحو

---

(١) مفردها شؤبوب. الدفعة من المطر.

الأربعمائة ميل ، واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتى ميل ، ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الريح .

فلما كان عصر يوم الجمعة ، الحادى والعشرين من الشهر المذكور ، أقلعنا من الموضع الذى كنا أرسينا فيه ، وفارقنا البر المذكور أول تلك الليلة ، وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة ، وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذى كان فيه البركان[1] ، وهو جبل عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه الثلج ، وأعلمنا أنه يظهر فى البحر مع الصحو على أزيد من مسيرة مائة ميل .

فأخذنا ملججين ،وأقرب ما نؤمله من البر إلينا جزيرة اقريطش[2] ، وهى من جزائر الروم ، ونظرها إلى صاحب القسطنطينية ، وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل ، والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمَنّه . وفى طول هذه الجزيرة ، جزيرة اقريطش المذكورة ، نحو من ثلثمائة ميل .

وفى ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور ، وهو الثانى والعشرون من شهر مارس ، حاذينا البر المذكور تقديرًا لا عيانا ، وفى صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين لقصدنا ، وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ستمائة ميل أو نحوها .

وفى صبيحة يوم الأربعاء ، السادس والعشرين منه ، ظهر لنا البر الكبير المتصل بالإسكندرية – المعروف ببر الغرب – وحاذينا منه موضعًا يعرف بجزائر الحمام[3] ، على ما ذكر لنا ، وبينه وبين الإسكندرية نحو الأربعمائة ميل على ما ذكر لنا ، فأخذنا فى السير والبر المذكور منا يمينا .

## البشرى بالسلامة

وفى صبيحة يوم السبت ، التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً ، والحمد على ذلك حمدًا يقتضى المزيد من فضله وكريم صنعه . وفى آخر الساعة الخامسة منه ، كان ارساؤنا بمرسى البلد ، ونزولنا أثر ذلك ، والله المستعان فيما بقى بمنه .

فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يومًا ، ونزلنا فى الحادى والثلاثين لأن ركوبنا أياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوّال ، ونزولنا عنه فى يوم السبت

---

(١) المقصود به بركان أتنا فى صقلية.

(٢) يطلق عليه الآن جزيرة كريت.

(٣) هى تقع بين طبرق والسلوم.

التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة ، وبموافقة السادس والعشرين من مارس . والحمد لله على ما من به التيسير والتسهيل ، وهو سبحانه المسئول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود ، وتعجيل الاياب إلى الوطن على خير وعافية ، أنه المنعم بذلك لا رب سواه. وكان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفّار ، بمقربة من الصبَّانة .

## شهر ذى الحجة من السنة المذكورة

أول يوم الأحد ثانى يوم نزولنا بالإسكندرية . فمن أول ما شاهدنا فيها ، يوم نزولنا ، أن طلع أمناء إلى المركب ، من قبل السلطان ، بها لتقييد جميع ما جلب فيه .

فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين ، واحدًا واحدًا ، وكتب أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض[1] ، ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزّموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل احال عليه حول أم لا .

واستنزل أحمد بن حسان منا ، ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مَرقبًا على السلطان أولاً ، ثم على القاضى ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفى كلٍ يستفهم ثم يقيد قوله ، فخلى سبيله .

وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان . فاستدعوا واحدًا واحدًا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام .

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثًا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ، وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس ، لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك .

وهذه لا محالة من الأمور الملبَّس فيها على السلطان الكبير ، المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك – على ما يؤثر عنه من العدل ، وايثار الرفق – لأزال ذلك ، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة ، واستؤدوا[2] الزكاة على أجمل الوجوه ، وما لقينا ببلاد هذا

---

(١) المقصود هنا الأموال «المال».

(٢) رجعت إليهم أموال الزكاة.

الرجل ، ما يلم به قبيح لبعض الذكر ، سوى هذه الأحدوثة التى هى من نتائج عمال الدواوين .

## ذكر بعض أخبار الإسكندرية وآثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد ، واتساع مبانيه ، حتى إنَّا ما شاهدنا بلدًا أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضًا .

ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائها فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضًا .

وعاينا فيها أيضًا من سوارى الرخام ، وألواحه كثرة وعلوًا واتساعًا وحسنًا ، ما لا يتخيل بالوهم ، حتى انك تلقى فى بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعودًا لا يدرى ما معناه ، ولا لِمَ كان أصل وضعها . وذكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة خاصة ، ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرصد .

## منار الإسكندرية

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (المنار) الذى قد وضعه الله عز وجل ، على يدى من سخرّ لذلك ، آية للمتوسمين ، وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلاً . ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضًا ، يزاحم الجو سموًا وارتفاعًا ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرعنا أحد جوانبه الأربعة ، فألفينا فيه نيفًا وخمسين باعًا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة .

وأما داخله فمرأى هائل ، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن ، حتى ان المتصرف فيها ، والوالج فى مسالكها ، ربما ضلّ ، وبالجملة لا يحصّلها القول ، والله لا يخليه من دعوة الإسلام ويبقيه . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجبًا لا يستوفيه وصف واصف .

## مناقب الإسكندرية

ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس[1] الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه ، ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، وإجراء يقوم به فى جميع أحواله .

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء .

وقد رتب أيضًا فيه أقوام ، برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ، ليتكلفوا بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد أيضًا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم ، بالغًا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك ، كل يوم ، إنسانًا أمينًا من قلبه ، فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة ، هكذا دائمًا .

ولهذا كله أوقاف من قبله ، حاشًا ما عيّنه من زكاة العين لذلك ، وأكد على المتولين لذلك ، متى نقصهم من الوظائف المرسومة شىء ، أن يرجعوا إلى صلب ماله . وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف البتة .

ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة ، المعينة من قبله لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، وليس له منها سوى ثلاثة أثمانها ، والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة .

وهذا السلطان الذى سن هذه السنن المحمودة ، ورسم هذه الرسوم الكريمة – على عدمها فى المدة البعيدة – هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وصل الله صلاحه وتوفيقه .

ومن أعجب ما اتفق للغرباء ، أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ، ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ، ولا حاجة لهم بها ، رغبة فى المعيشة ، لأنهم لا يصلون إلا بزاد يقلهم ، فكاد يؤثر سعى هذا المتنصح .

---

(١) مكان يخصص للمسافرين والدارسين والزهاد والمتصوفة.

فلما كان فى أحد الأيام ، خرج السلطان المذكور ، على سبيل التطلع خارج بلده ، فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس ، وهم قد ذهبت رسومهم عطشًا وجوعًا ، فسألهم عن وجهتهم ، واستطلع ما لديهم ، فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام ، وأنهم ركبوا البر ، وكابدوا مشقة صحرائية .

فقال : لو وصل هؤلاء – وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها، وكابدوا من الشقاء ما كابدوه – وبيد كل واحد منهم زنته ذهبًا وفضة، لوجب أن يشاركوا، ولا يقطعوا عن العادة التى أجريناها لهم، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء، ويروم التقرب إلينا بالسعى فى قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصًا لوجهه. ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل، ومقاماته فى الذب عن حوزة الدين، لا تحصى كثرة.

ومن الغريب أيضًا، فى أحوال هذا البلد، تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد، حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم والمقلل فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشرة ألف مسجد، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط: فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك.

وبالجملة فهى كثيرة جدًا، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع، وربما كانت مركبة[1] وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان: فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر، وهى عشرة مؤمنية ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه. وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر.

ثم كان الانفصال عنها – على بركة الله تعالى وحسن عونه – صبيحة يوم الأحد، الثامن لذى الحجة المذكور، وهو الثالث لأبريل. فكانت مرحلتنا منه إلى موضع يعرف بدمنهور، وهو بلدُ مُسور، فى بسيطٍ من الأرض أفيح، متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر، والبسيط كله محرَث، يعمه النيل بفيضه، والقرى فيه يمينًا وشمالاً لا تحصى كثرة.

ثم فى اليوم الثانى، وهو يوم الأثنين، أجزنا النيل بموضع يعرف بصَا، فى مركب تعدية، واتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمة، فكان مبيتنا بها، وهى قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق.

ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندتة[2]، وهى من القرى الفسيحة الآهلة،

---

(١) تطلق على المدرسة والمسجد إلخ.

(٢) وهى طنطا اليوم.

فأبصرنا بها مجمعًا حفيلاً، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة، واتصل سيرنا إلى موضع يعرف بسبك، وكان مبيتنا بها، واجتزنا فى ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج، والعمارة متصلة، والقرى منتظمة فى طريقنا كلها.

ثم بكرنا منها يوم الأربعاء بعده، فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب، على ستة أميال من القاهرة، فيه الأسواق الجميلة، ومسجد جامع كبير حفيل البنيان، ثم بعده المنبية، وهو موضع أيضًا حفيل، ثم منها إلى القاهرة، وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسعة، ثم منها إلى مصر المحروسة.

وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء، وهو الحادى عشر من ذى الحجة المذكور، والسادس من أبريل، عرَّفنا الله فيها الخير والخبرة، وتمّ علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزّته وقدرته، أنه على ما يشاء قدير.

وفى يوم الأربعاء المذكور، أجزنا القسم الثانى من النيل، فى مركب تعدية أيضًا بموضع يعرف بدُجْوة، وذلك وقت الغداة الصغرى، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الثناء، فى زقاق القناديل، بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضى الله عنه، فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور.

## ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها، الآثار والمشاهد المباركة، التى ببركتها يمسكها الله عزّ وجلّ. فمن ذلك المشهد العظيم الشان، الذى بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه، ولا يحيط الإدراك به، مُجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض، ومنه ما هو دون ذلك، قد وضع أكثرها فى أنوار[1] فضة خالصة، ومنها مذهبة، وعلقت عليه قناديل فضة، وحفّ أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبًا، فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنًا وجمالاً، فيه من أنواع الرخام المجزع، الغريب الصنعة البديع الترصيع، ما لا يتخيله المتخيلون، ولا يحلق أدنى وصفه الواصفون.

---

(١) المقصود هنا الشمعدان..

والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها، وهما أيضًا على تلك الصفة بعينها، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع.

ومن أعجب ما شاهدناه، فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل. وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، واحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسحهم بالكسوة التى عليه، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين، متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يذيب الأكباد، ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم.

وانما وقع الالماع بنبذة من صفته، مستدلاً على ما وراء ذلك، اذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه، لأنه يقف موقف التقصير والعجز. وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعًا أحفل منه، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع، قدّس الله العضو الكريم الذى فيه بمنّه وكرمه.

وفى ليلة المذكور، بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة، وهى أيضًا إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء، صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء، ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة.

وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته: فمنها قبر ابن النبى صالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله عليهم أجمعين، وقبر آسية امرأة فرعون رضى الله عنها، ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين: مشاهد أربعة عشر من الرجال، وخمس من النساء، وعلى كل واحد منها بناء حفيل. فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان، عجيبة البنيان، قد وكل بها قَوَمَة يسكنون فيها ويحفظونها، ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متّصلة لقُوامها فى كل شهر.

## ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه، ومشهدان لإبنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم، ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم، ومشهدان لابنيه الحسن والحسين رضى الله

عنهما، ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنه، ومشهد ابنه يحيى بن القاسم، ومشهد على بن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم، ومشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنهما، ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنهم، ومشهد محمد بن عبد الله بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم، ومشهد جعفر بن محمد من ذرية على بن الحسين رضى الله عنهم، وذكر لنا أنه كان ربيب الإمام مالك رضى الله عنه.

## مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهن

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم، ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم، ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد رضى الله عنهم.

وهذا ذكر ما حصّله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة، وهى أكثر من ذلك، وأخبرنا أن فى جملتها مشهدًا مباركًا لمريم ابنة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو مشهور، لكن لم نعاينه.

وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة انما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها، مع تواتر الأخبار بصحة ذلك، والله أعلم بها. وعلى كل واحد منها بناء حفيل، فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان، عجيبة البنيان، قد وكل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها، ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متصلة لقُوامها فى كل شهر.

## ذكر مشاهد بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والأئمة والعلماء والزهاد والأولياء المشتهرين بالكرامات، رضى الله عنهم أجمعين

والمُقيِّد يبرأ من القطع بصحة ذلك وإنما رَسم من أسمائهم ما وَجدهَ مرسومًا فى تواريخها، وبالجملة فالصحة غالبة لا يُشك فيها إن شاء الله عزّ وجلّ:

مشهد مُعاذ بن جَبل رضى الله عنه، مشهد عُقبة بن عامر الجُهنى حامل راية رسول الله ﷺ، مشهد صاحب بردة ﷺ، مشهد أبى الحسن صائغ رسول الله ﷺ، مشهد سارية الجبل رضى الله عنه، مشهد محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، مشهد

أولاده رضى الله عنهم، مشهد أحمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، مشهد أسماء ابنة أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، مشهد ابن الزبير بن العوام رضى الله عنهما، مشهد عبد الله بن حذافة السهمى صاحب رسول الله ﷺ، مشهد ابن حليمة رضيع رسول الله ﷺ.

## مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين

مشهد الإمام الشافعى رضى الله عنه، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعًا، وبنى بازائه مدرسة لم يُعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمّام إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم، المعروف بنجم الدين الخبوشانى، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله، ويقول زد احتفالاً وتأنقًا، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله. فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه.

ولقينا هذا الرجل الخبوشانى المذكور تبركًا بدعائه، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس، فألفيناه فى مسجده بالقاهرة، وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور، وهو بيت ضيق الفناء، فدعا لنا وانصرفنا، ولم نلق من رجال مصر سواه.

مشهد المزنى صاحب الإمام الشافعى رضى اللّه عنه، مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنه، مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما، مشهد أصبغ صاحب مالك رضى الله عنهما، مشهد القاضى عبد الوهاب رضى الله عنه، مشهد عبد الله بن عبد الحكم، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضى الله عنهما، مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبى الحسن الدينورى رضى الله عنه، مشهد بُنان العابد رضى الله عنه، مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الإبريق، وقصته عجيبة فى الكرامة، مشهد أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها، مشهد الروذبارى رضى الله عنه، مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد -المعروف بالسبتى - رضى الله عنه، مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشى رضى الله عنه، مشهد ذى النون بن إبراهيم المصرى رضى الله عنه، مشهد القاضى الأنبارى، قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول: «اللهم أنزلنى منزلاً مباركًا وأنت خير المنزلين» رضى الله عنه مشهد العروس - ولها أثر من الكرامة، فى حال جلوتها على زوجها، لم يسمع أعجب منه - ومشهد الصامت الذى يحكى عنه أنه لم

يتكلم أربعين سنة، مشهد العصافيرى، مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارزمى، مشهد الفقيه الواعظ الأفضل الجوهرى، ومشاهد أصحابه بارائه رضى الله عنهم أجمعين، مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى، مشهد المقرئ ورش، مشهد الطبرى، مشهد شيبان الراعى.

والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد، أو تتحصل بالإحصاء، وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته. وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع، يعرف بموقع قبور الشهداء، وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله جميعهم. والبسيط المذكور مسنم كله للعيان، على مثال أسنمة القبور دون بناء.

ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة، يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر، والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية فى الشهر، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية، وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائد، نحو الثلاثين دينارًا مصرية فى كل يوم، تتفرق فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته[1] وأئمته والقراء فيه.

ومما شاهدناه بالقاهرة أربعة، حفيلة البنيان، أنيقة الصنعة، إلى مساجد عدة، وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم، ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى، يجمع فيها الدعاء للصحابة رضى الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ، ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضى الله عنهما، ويلطف القاسية، وتتفجر العيون الجامدة. ويأتى للخطبة لابسًا السواد على رسم العباسية، وصفة لباسه بردة سوداء، عليها طيلسان شرب[2] أسود - وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام - وعمامة سوداء، متقلدًا سيفا. وعند صعوده المنبر يضرب بنعمل سيفه المنبر، فى أول ارتقائه، ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها ايذان بالانصات، وفى توسطه أخرى، وفى انتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينًا وشمالاً، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا فى أعلى المنبر.

ودعاؤه فى هذا التاريخ للامام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الامام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله، ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين.

---

(١) بمعنى خادم المسجد أو الكنيسة أو المعبد.

(٢) أحد أنواع الحرير.

## قلعة القاهرة

وشاهدنا أيضًا بنيان القلعة، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخّرون فى هذا البنيان، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة - كنشر الرخام، ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرًا فى الصخر، عجبًا من العجائب الباقية الآثار- العلوج الأسارى من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم.

وللسلطان أيضًا بمواضع أخر بنيان، والأعلاج يخدمونه فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة مرفه عن ذلك كله، ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد.

## المارستان والمجانين

ومما شاهدناه أيضًا، من مفاخر هذا السلطان، المارستان الذى بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا، وعيّن قيمًا من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير، ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسى. وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم.

وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضًا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضًا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

## مسجد ابن طولون

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير، المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه، ويُحلقّون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر.

ومن اعجب ما حدثنا به أحد المتخصّصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدًا لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره، ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله.

## مفاخر السلطان

وما منها جامع من الجوامع، ولا مسجد من المساجد، ولا روضة من الروضات المبنية على القبور، ولا محرس من المحارس، ولا مدرسة من المدارس، إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال.

ومن مآثره الكريمة، المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة، أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله، عزَّ وجلّ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم.

ومن مفاخر هذا السلطان، وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر، كأنه جبل ممدود على الأرض، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهى نحو الأربعين قوسًا من أكبر ما يكون من قسى القناطر، والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها إلى الإسكندرية. له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزَمة اعدادًا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل، وانغمار الأرض به، وامتناع سلوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكًا فى كل وقت أن احتيج إلى ذلك، والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع محذور بمنه.

ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة انذار من الانذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها ايذان باستيلاء الموحدين عليها، وعلى الجهات الشرقية. والله أعلم بغيبه، لا إله سواه.

## معجزة البناء

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة «الأهرام» القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء، ولاسيما الاثنان منها، فانهما يغص الجو بهما سموًا، فى سعة الواحد منها، من أحد أركانه إلى الركن الثانى، ثلثمائة خطوة وست وستون خطوة.

قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيبًا هائلاً بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على الصاقها، محددة الطراف فى رأى العين، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة، فتلقى أطرافها المحددة كأوبع ما يكون من الرحاب، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك. للناس فى أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبورًا لعاد وبنيه، ومهم من يزعم غير ذلك، وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل.

ولأحد الكبيرين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد، ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبرًا، وطوله نحو ذلك. وفى جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة، شبه التى تسميها العامة البيلة، يقال أنها قبر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ودون الكبير هرم سعته، من الركن الواحد إلى الركن الثانى، مائة وأربعون خطوة. ودون هذا الصغير خمسة صغار ثلاثة متصلة، والاثنان على مقربة منها متصلان.

وعلى مقربة من هذه الأهرام، بمقدار غلوة، صورة غريبة من حجر، قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر، وجهه إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النيل، تعرف بأبى الأهوال.

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضى الله عنه، وله أيضًا بالإسكندرية جامع آخر، وهو مصلى الجمعة للمالكيين.

وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة، عند انتساخ دولة العبيديين[1]، وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة، وأكثرها الآن مستجدّ، والبنيان بها متصل. وهى مدينة كبيرة، والآثار القديمة حولها، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف.

## روضة النيل

وعلى شط نيلها - مما يلى غربيها، والنيل معترض بينهما - قرية كبيرة الشأن، حفيلة البنيان، تعرف بالجيزة، لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها، ويعترض بينها وبين مصر جزيرة، فيها مساكن حسان، وعلالى مشرفة، وهى مجتمع اللهو والنزهة، وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل، ولها مخرج له.

---

(١) هم الفاطميين.

وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة، واستشعار ابتدائه فى شهر يونية، ومعظم انتهائه أغشت[1]، وآخره أول شهر أكتوبر.

وهذا المقياس عمود رخام أبيض، مثمن فى موضع، ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعًا، مقسمة على أربعة وعشرين قسمًا تعرف بالأصابع، فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعًا منغمرة فيه، فهى الغاية عندهم فى طيب العام، وربما كان الغامر فيه كثيرًا بعموم الفيض، والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعًا، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة.

والذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ست عشرة ذراعًا فصاعدًا، وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم، والزيادة فى أقسام الذراع المذكور، ويعلم بها مياومة حتى تستوفى الغاية التى يقضى به. وأن قصر عن ست عشرة ذراعًا، فلا مجبى للسلطان فى ذلك العام، ولا خراج.

وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار رضى الله عنه، وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام، قد صورت فيها التماسيح، فيقال أن بسببها لا تظهر التماسيح، فيمايلى البلد من النيل، مقدار ثلاثة أميال علوًا وسفلاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

## عدالة السلطان صلاح الدين الأيوبى

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى، وآثاره التى أبقاها ذكرًا جميلاً للدين والدنيا، إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها عنتًا مجحفاً، ويسامون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته، أو لا نفقة عنده، فيلزم أداء الضريبة المعلومة – وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية، التى هى خمسة عشر دينارًا مؤمنية – على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب، فكانت كاسمها مفتوحة العين، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين، أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قدره. وكان بجدّة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء.

فمحى هذا السلطان هذا الرسم اللعين، ودفع عوضًا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مجبى موضع معّين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز

---

(١) هو شهر آب (أغسطس).

لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة، عمّرهما الله، فعوض من ذلك أجمل عوض، وسهل السبيل للحجاج، وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع، وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثًا عظيمًا وخطبًا أليمًا، فترتب الشكر على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام احدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق، ويوجب الدعاء له فى كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع، والله من وراء مجازاة المحسنين، وهو - جلت قدرته - لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

إلى مكوس كانت فى البلاد المصرية وسواها، ضرائب على كل ما يباع ويشترى، مما دق أو جل، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس، فضلاً عما سواه، فمحى هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها، وبسط العدل، ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان، وتأمينه للسبل، أن الناس فى بلاده لا يخلعون لباس الليل، تصرفًا فيها يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية، حسبما تقدم ذكره.

## شهر المحرم سنة تسع وسبعين
## عرفنا الله يمنها وبركتها

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل، ونحن بمصر، يسر الله علينا مرامنا.

وفى صبيحة يوم الأحد، السادس من محرم المذكور، كان انفصالنا من مصر، وصعودنا فى النيل على الصعيد قاصدين إلى «قوص». عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمنه.

ووافق يوم اقلاعنا المذكور أول يوم من مايه[1]، بحول الله عز وجل، والقرى فى طريقنا متصلة فى شطى النيل، والبلاد الكبار حسبما يأتى ذكره إن شاء الله.

فمنها قرية تعرف «بأسكر» فى الضفة الشرقية من النيل، مباشرة للصاعد فيه، ويذكر أن فيها كان مولد النبى موسى الكليم، صلى الله على نبينا وعليه، ومنها ألقته أمه فى اليم، وهو النيل حسبما ذكر.

وعاينا أيضًا بغربى النيل ميامنا لنا - وذلك كله يوم اقلاعنا المذكور وفى الثانى منه - المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق، صلى الله عليه وسلم، وبها موضع السجن الذى

---

(١) هو شهر آيار ( مايو )..

كان فيه، وهو الآن ينقض، وينقل أحجاره إلى القلعة المبتناة الآن على القاهرة، وهو حصن حصين المنعة. وبهذه المدينة المذكورة مخازن الطعام التى اختزنها يوسف صلى الله عليه وسلم، وهى مجوفة على ما يذكر.

ومنها الموضع المذكور بمنية ابن الخصيب، وهو بلد على شط النيل، ميامنا للصاعد فيه، كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن. اجتزنا عليه «ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور» – وهو الثامن من يوم اقلاعنا من مصر – لأن الريح سكنت عنا، فتربصنا فى الطريق، ولو ذهبنا إلى رسم كل موضع يعترضنا فى شطى النيل يمينًا وشمالاً، لضاق الكتاب عنه، لكن نقصد من ذلك إلى الأكبر الأشهر.

وقابلنا على مقربة من هذا الموضع، مياسرًا لنا، المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله عليه وعلى نبينا، وهو مسجد مذكور مشهور، معلوم بالبركة مقصود، ويقال أن بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم.

ومنها موضع يعرف «بأنصنا» مياسرًا لنا، وهى قرية فسيحة جميلة، بها آثار قديمة، وكانت فى السالف مدينة عتيقة، وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخرة إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها.

وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور، وهو التاسع من اقلاعنا من مصر، اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقلة، وهو بالشط الشرقى من النيل، مياسرًا للصاعد فيه، وهو نصف الطريق إلى «قوص»، من مصر إليه ثلاثة عشر بريدًا، ومنه إلى قوص مثلها.

ومما يجب ذكره على جهة التعجب أن من حيز مصر – فى شط النيل الشرقى، مياسرًا للصاعد فيه – حائطًا متصلاً قديم البنيان، منه ما هو قد تهدم، ومنه ما بقى أثره يتمادى على الشط المذكور إلى أسوان آخر صعيد مصر، وبين أسوان وبين قوص ثمانية برد، والأقوال فى أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف، وبالجملة فشأنه عجيب، ولا يعلم سره إلا الله عز وجل، وهو يعرف بحائط العجوز، ولها خبر مذكور، أظن هذه العجوز هى الساحرة المذكور خبرها فى المسالك والممالك، التى كانت لها الملكة بها مدة.

## ذكر ما استدرك خبره عما كان أغفل

وذلك أما أنّا حللنا الإسكندرية، فى الشهر المؤرخ أولاً، عاينا مجتمعًا من الناس عظيمًا برزوًا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال، ووجوههم إلى

أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد اشفاقًا وجزعًا .

وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم[1] ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر ، سمروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ، ودفعوها في البحر ، وركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النعم ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبًا .

وانتهوا إلى عيذاب ، فأخذوا فيها مركبًا كان يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضًا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدًا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة – أعزهما الله – وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى رومي إلى ذلك الموضع قطّ .

ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فآخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه .

ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية ، دخل فيها الحاجب – المعروف بلؤلؤ – مع أنجاد من المغاربة البحريين ، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية .

وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان ، نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم إلى مكة والمدينة ، وكفى الله – بجميل صنعه – الإسلام والمسلمين أمرًا عظيمًا ، والحمد لله رب العالمين .

## رجع الذكر

ومن المواضع التي اجتزنا عليها في الصعيد – بعد جبل المقلة الذي ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر إلى قوص حسبما تقدم ذكره – موضع يعرف بمنفلوط بمقربة من الشط

---

(١) يطلق عليه الآن البحر الأحمر.

الغربى ، ميامنا للصاعد فى النيل ، فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق .. وهى بلدة فى نهاية من الطيب ، ليس فى الصعيد مثلها ، وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته ، قد اشتهر عندهم بذلك ، فالتجار يصعدون فى المراكب لاستجلابه .

ومنها مدينة « أسيوط » ، وهى من مدن الصعيد الشهيرة ، بينها وبين الشط العربى من النيل مقدار ثلاثة أميال ، وهى جميلة المنظر حولها بساتين النخل ، وسورها سور عتيق .

ومنها موضع يعرف « بأبى تيج » ، وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن ، وهو فى الشط الغربى من النيل .

ومنها مدينة « إخميم » ، وهى أيضًا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقى النيل وعلى شطه ، قديمة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، فيها مسجد ذى النون المصرى ، ومسجد داود أحد الصالحين المشتهرين بالخير والزهادة ، وهما مسجدان موسومان بالبركة ، دخلنا إليهما متبركين بالصلاة فيهما ، وذلك يوم السبت التاسع عشر المحرم المذكور ، وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بينان القبط ، وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط .

ومن أعجب الهياكل ، المتحدث بغرائبها فى الدنيا ، هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة ، وتحت سورها ، طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعًا ، وسعته مائة وستون ذراعًا ، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبَربا[1]، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم .

قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية ، حاشى حيطانه ، دور كل سارية منها خمسون شبرًا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرًا ، ورؤوسها فى نهاية من العظم والاتقان ، قد نحتت نحتًا غريبًا ، فجاءت مركبة بديعة الشكل كأن الخراطين تناولوها ، وهى كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها .

والسوارى كلها منقوشة فى أسفلها إلى أعلاها ، وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التى تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ، ما كِلْنَا فيه ستة وخمسين شبرًا طولاً ، وعشرة أشبار عرضًا ، وثمانية أشبار ارتفاعًا .

وسقف هذا الهيكل كله من ألواح الحجارة ، المنتظمة ببديع الإلصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد ، وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش .

---

(١) أيضًا تعرف «بالقبرة».

والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته : فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها ، توهم الناظر إليها أنها تهمّ بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية ، رائقة المنظر رائعة الشكل ، قد أعدت لكل صورة منها هيئة ، هى عليها كإمساك تمثال بيدها ، أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو إشارة شخص إلى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ، ولا تتأتى العبارة لاستيفائه .

وداخل هذا الهيكل العظيم ، وخارجه وأعلاه وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة : منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر إليها رعبًا ، ويتملأ منها عبرة وتعجبًا ، وما فيه مغرز اشفى ولا ابرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم ، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ، ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب ، فيحسب الناظر استعظامًا له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه ، فسبحان الموجد للعجائب ، لا إله سواه .

وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الضفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها . وداخل هذا الهيكل ، من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ، ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى ، وعرض حائطه ثمانية عشر شبرًا ، وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها .

وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهى إليها الحد . وإنما وقع الالماع بنبذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وضع له ، فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الإخبار عنه بعض غلوّ ، فإن كل مخبر عنه لو كان قسًا بيانًا أو سحبانًا ، يقف موقف العجز والتقصير ، والله المحيط بكل شىء علمًا لا إله سواه .

## مواقف جارحه ومهانة

وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق، للحجاج والمسافرين – كإخميم، وقوص، ومنية ابن الخصيب – من التعرض لمراكب المسافرين ، وتكشفها والبحث عنها، وادخال الأيدى إلى أوساط التجار، فحصًا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح

سماعه، وتستشنع الأحدوثة عنه. كل ذلك برسم الزكاة، دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها ، حسبما ذكرناه فى ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب .

وربما الزموهم الإيمان على ما بأيديهم ، وهل عندهم غير ذلك ، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس .

وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ، ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له ، فإن جهادهم من الواجبات ، لما يصدر عنهم من التعسف ، وعسير الارهاق ، وسوء المعاملة ، مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين .

ولو شاء الله لكانت هذه الخطة مندوحة فى اقتضاء الزكاة ، على أجمل الوجوه ، من ذوى البضائع فى التجارات ، مع مراعاة رأس كل حول الذى هو محل الزكاة ، وبتجنب اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه ، وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل ، الذى قد شمل البلاد عدله ، وسار فى الآفاق ذكره ، ولا يسعى فيما يسىء الذكر بمن قد حسن الله ذكره ، ويقبح المقالة فى جانب من أجمل الله المقالة عنه .

## أشنع ما شاهدناه

ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك ، خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة ، فى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها ، فلا يتركون عِكمًا ولا غِرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة ، مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم ، اللذين لا يحتويان سوى الزاد ، شىء غيّب عليه من بضاعة أو مال . وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث الملعنة ، وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى بستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها ، أما استحقارًا أو استنفاسا ، دون بخل بواجب يلزمها . والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظلمة ، بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه ، إن شاء الله .

## ما اجتزنا من المواضع

ومن المواضع التى اجتزنا عليها ، بعد إخميم المذكورة ، موضع يعرف بمنشأة السودان على الشط الغربى من النيل ، وهى قرية معمورة ، ويقال أنها كانت فى القدم مدينة كبيرة،

وقد قام أمام هذه القرية ، بينها وبين النيل ، رصيف عال من الحجارة كأنه السور ، يضرب فيه النيل ، ولا يعلوه عند فيضه ومده ، فالقرية بسببه فى أمن من آتيه .

ومنها موضع يعرف بالبلينة ، وهى قرية حسنة كثيرة النخل ، بالشط الغربى من النيل ، بينها وبين قوص أربعة بُرد .

ومنها موضع يعرف (بدشنة) بالشط الشرقى من النيل ، وهى مدينة مسورة فيها جميع مرافق المدن ، وبينها وبين قوص بريدان .

ومنها موضع بغربى النيل ، وعلى مقربة من شطه ، يعرف بدندرة ، وهى مدينة من مدن الصعيد ، كثيرة النخل ، مستحسنة المنظر ، مشتهرة بطيب الرُّطَب ، بينها وبين قوص بريد . وذكر لنا أن فيها هيكلاً عظيمًا ، وهو المعروف عند أهل هذه الجهات بالبربا ، حسبما ذكرنا عند ذكر إخميم ، وهيكلها يقال ان هيكل دندرة أحفل منه وأعظم .

ومنها مدينة (قنا) ، وهى من مدن الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان حفيلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها ، والتزامهن البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة ، صحت بذلك الأخبار عنهن ، وكذلك نساء (دشنة) المذكورة قبيل هذا . وهذه المدينة المذكورة فى الشط الشرقى من النيل ، وبينها وبين قوص نحو البريد .

ومنها (قِفْط) ، وهى مدينة بشرقى النيل ، وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنًا ونظافة بينان وإتقان وضع .

ثم كان الوصول إلى (قوص) يوم الخمس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايه ، فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يومًا، ودخلنا قوص فى التاسع عشر .

وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الحلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، لأنها مخطر للجميع ، ومحط للرِّحال ، ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يُفوِّزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم فى صدرهم من الحج . وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور .

## شهر صفر عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، وهو الخامس والعشرون من شهر مايه ، ونحن بقوص نروم السفر إلى عيذاب ، يسر الله علينا مرامنا بمنه وكرمه .

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ، وهو السادس من يونيو ، أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه إلى المبرز ، وهو موضع بقبلى البلد وعلى مقربة منه ، فسيح الساحة ، محدق بالنخيل ، يجتمع فيه رحال الحاج والتجار وتشد فيه ، ومنه يستقلون ويرحلون، وفيه يوزن ما يحتاج إلى وزنه على الجمالين .

فلما كان أثر صلاة العشاء الآخرة ، رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجر ، فبتنا به ، وأصبحنا يوم الثلاثاء بعده مقيمين به ، بسبب تعقد بعض الجمالين من العرب لبيوتهم ، وكانت على مقربة منهم . وفى ليلة الأربعاء الخامس عشر منه–ونحن بالحاجز المذكور – خسف القمر خسوفًا كليًا أول الليل ، وتمادى إلى هَدْء منه .

ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين ، وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع ، ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة . كل ذلك فى صحراء لا عمارة فيها .

ثم غدونا يوم الخميس ، فنزلنا على ماء ينسب للعبدين، ويذكر أنهما ماتا عطشا قبل أن يرداه ، فسمى ذلك الموضع بهما ، وقبراهما به رحمهما الله . ثم تزودنا منه الماء لثلاثة أيام ، وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه ، وسرنا فى الصحراء نبيت منها حيث جن علينا الليل ، والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة ، والمفازة معمورة أمنا .

فلما كان يوم الاثنين ، الموفى عشرين منه ، نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش ، وهى بئر معينة ، يرد فيها من الأنعام والأنام ما لا يعصمهم إلا الله عز وجل .

ولا يسافر فى هذه الصحراء إلا على الإبل لصبرها على الظمإ، وأحسن ما يستعمل عليها ذوو الترفيه : الشقاديف ، وهى أشباه المحامل ، وأحسن أنواعها اليمانية ، لأنها كالأشاكيز السفرية مجلدة متسعة ـ يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ، وتوضع على البعير ، ولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة ، فيكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة ، ويقعد مستريحا فى وطائه ومتكئا ، ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ، ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله ، تفكها واجماما للنفس ، لاعبه . وبالجملة فإنها مريحة من نصب السفر ، وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها ، فيكابدون من مشقة سموم الحر غما ومشقة .

وفى هذا الماء وقعت بين بعض جمالى العرب اليمنيين ، أصحاب طريق عيذاب وضمانها – وهم من بلى من أفخاذ قضاعة[1] – وبين بعض الأغزاز[2]، بسبب التزاحم على الماء ، مهاوشة كادت تفضى إلى الفتنة ، ثم عصم الله منها .

والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين : إحداهما تعرف بطريق العبدين ، وهى هذه التى سلكناها ، وهى أقصد مسافة ، والأخرى طريق دون قنا ، وهى قرية على شاطئ النيل ، ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش المذكور ، ولهما مجتمع آخر على ماء حرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم .

فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ، ورفعنا إلى ماء بموضع يعرف بشاغب ، فوردناه ضحوة يوم الأربعاء الثانى والعشرين لصفر المذكور ، وهذا الماء ثماد يحفر عليه فى الأرض ، فتسمح به قريبا غير بعيد إلا أنه زعاق . ثم رحلنا منه سحر يوم الخميس بعده ، وتزودنا الماء لثلاثة أيام ، إلى ماء بموضع يعرف با[*].. يسارا، وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم ، والطريق عليه وعر للإبل .

فلما كان ضحوة يوم الأحد السادس والعشرين لصفر المذكور ، نزلنا بأمتان المذكور ، وفى هذا اليوم المذكور كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل ، له الحمد وله الشكر على ما يسر لنا من ذلك . وهذا الماء بأمتان المذكور هو فى بئر معينة قد خصها الله بالبركة ، وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها فيلقى فيها من دلاء الوارد ما لا يحصى كثرة ، فتروى القوافل النازلة عليها على كثرتها ، وتروى من الإبل البعيدة الأظماء ما لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبته وأنزفته .

ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل الوارادة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل ، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة .

ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس .

---

( ١ ) إحدى القبائل العربية.

( ٢ ) إحدى القبائل التركية.

(*) بياض فى الأصل .

ثم كان رفعنا من أمتان المذكور صبيحة يوم الاثنين، بعد الأحد المذكورة، ونزلنا على ماء بموضع يعرف بمجاج، بمقربة من الطريق، ظهر يوم الاثنين المذكور، ومنه تزودنا الماء لأربعة أيام، إلى ماء بموضع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب، ومن هذه المرحلة المجاجية يسلك الوضح،وهى رملة ميثاء تتصل بساحل بحر جدة يمشى فيها إلى عيذاب إن شاء الله، وهى فى أفيح من الأرض مد البصر يمينا وشمالا، وفى ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور، كان رقعتا من مجاج المذكور، سالكين على الوضح.

## شهر ربيع الأول عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر يونية ، ونحن بآخر الوضح ، على نحو ثلاث مراحل من عيذاب . وفى وقت الغداة من يوم الجمعة المذكور ، كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء ، على مرحلتين من عيذاب ، وبهذا الموضع كثير من شجر العشر ، وهو شبيه بشجر الأترج لكن لا شوك له .

وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة ، وهو فى بئر غير مطوية ، وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطى ماءها ، فرام الجمالون حفرها ، واستخراج مائها ، فلم يقدروا على ذلك ، وبقيت القافلة لا ماء عندها . فأسرينا تلك الليلة – وهى ليلة السبت الثانى من الشهر المذكور – فنزلنا ضحوة عل ماء الخبيب ، وهو بموضع بمرأى العين من عيذاب ، يستقى منها القوافل وأهل البلد ، ويعم الجميع ، وهى بئر كبيرة كأنها الجب الكبير .

## أحفل المراسى الدنيا

فلما كان عشى يوم السبت دخلنا عيذاب ، وهى مدينة على ساحل بحر جدة غير مصورة ، أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص ، وهى من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحك فيها وتقلع منها ، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة .

وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ، ولا سيما مع الحاج ، لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤنة ، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التى كانت قبل النوم ، التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها .

ولهم أيضا من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم ، وهى المراكب ، فيجتمع لهم من ذلك مال كثير فى حملهم إلى جدة ، وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة .

وما من أهلها ذوى اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان فهى تعود عليهم برزق واسع ، فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها لا إله سواه .

وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح ، أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والجلاب .

وفى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ ، فى جزائر على مقربة منها ، وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف ، وهو شهر يونية العجمى والشهر الذى يتلوه ، ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية . يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق .

والمغاص منها قريب القمر ليس ببعيد ، ويستخرجونه فى أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شىء بالسلحفاة ، فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف ، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق ، فسبحان مقدرها لا إله سواه ، لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس ، قد ألفوا بها عيش البهائم ، فسبحان محبب الأوطان إلى أهلها ، وعلى أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الأنس .

## آفة الحجاج

والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم ، ممن يسلمه الله عز وجل، وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر فى مراس بصحارى تبعد منها مما يلى الجنوب، فينزل إليهم البجاة – وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال – فيكرون منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماء ، فربما ذهب أكثرهم عطشا ، وحصلوا على ما يتخلفه من نفقة أو سواها .

وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه ، فيضل ويهلك عطشا ، والذى يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن . شاهدنا منهم ، مدة مقامنا ، أقواما قد وصلوا على هذه الصفة ، فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة آية للمتوسمين . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ، ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحط بمرسى عيذاب ، وهو الأقل .

والجلاب التى يصرّفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الإنشاء ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار – وهو قشر جوز النارجيل – يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراسًا يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، أو بدهن الخروع ، أو بدهم القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه . ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى .

وعود هذا الجلاب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب ، أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل ، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال والمسلم فيها ، لا إله سواه .

ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت[1]، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة . يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء، حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: (علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح)، هذا مثل متعارف بينهم .

فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة ، والأولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها ، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ، ويصل مع أمير الحج البغدادى ، وإن لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخرا عند انفضاض الحجاج . يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد ، ومنها إلى عكة ، فإن شاء رحل منها إلى الإسكندرية ، وإن شاء إلى صقلية أو سواهما، ويمكن أن يجد مركبا من الروم يقلع إلى سبتة أو سواها من بلاد المسلمين ، وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذاب ونحوها .

## أهل عيذاب

وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان الذين يعرفون بالبجاة ، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها ، وربما وصل فى بعض الأحيان ، واجتمع بالوالى الذى فيها من الغز اظهارا للطاعة ، ومستنابه مع الوالى فى البلد ، والفوائد كلها له إلا البعض منها .

---

(١) بمعنى معتد .

وهذه الفرقة من السودان المذكورين ، فرقة أضل من الأنعام سبيلا ، وأقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها اظهارا للإسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ، ما لا يرضى ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يستترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يستترون وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم .

## مهالك بحر فرعون

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يولية ، ركبنا الجلبة للعبور إلى جدة ، فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية . فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء بعده ، أقلعنا على بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول ، فكانت مدة المقام بعيذاب-حاشا يوم الاثنين المذكور - ثلاثة وعشرين يوما ، محتسبة عند الله عز وجل ، لشظف العيش ، وسوء الحال ، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة .

وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه ، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام ، وماء يشعل المعدة هى عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله :

(ماء زعاق وجو كله لهب)

فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى البيت العتيق ، زاده الله تشريفا وتكريما ، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ، ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة .

ومما لهج الناس بذكره قبائحها ، حتى يزعمون أن سليمان بن داود ، على نبينا وعليه السلام ، كان اتخذها سجنا للعفارتة أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام ، وهى السبيل التى من مصر على عقبة أيلة إلى المدينة المقدسة ، وهى مسافة قريبة ، يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يسارا ، لكن للإفرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه ، والله ينصر دينه ، ويعز كلمته بمنه .

فتمادى سيرنا فى البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ، ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة المهب ، فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس - ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز - لمع برق من جهة البر المذكور ، وهى

جهة الشرق ، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق إلى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراءه ، وتمادى عصوف الرياح ، واشتدت حلكة الظلمة، وعمت الآفاق ، فلم ندر الجهة المقصودة منها ، إلى أن ظهر بعض النجوم ، فاستدل بعض الاستدلال وحط القلع إلى أسفل الدقل ، وهو الصارى .

وأقمنا ليلتنا تلك فى هول يؤذن باليأس ، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة ، إلى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح .. قياد الريح ، وأقشع الغيم ، وأصحت السماء ، ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله ، وهى شرقا من جدة ، زعم ربان المركب – وهو الرائس – أن بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبر جدة يومين ، والله يسهل لنا كل صعب ، وييسر لنا كل عسير بعزته وكرمه .

فجرينا يومنا ذلك – وهو يوم الخميس المذكور – بريح رخاء طيبة ، ثم أرسينا عشية فى جزيرة صغيرة فى البحر ، على مقربة من البر المذكور ، بعد أن لقينا شعابا كثيرة يكسر فيها الماء ويضحك علينا ، فتخللنا أثناءها على حذر وتحفظ. وكان الربان بصيرا بصنعته ، حاذقا فيها ، فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ، ونزلنا إليها، وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع الأول المذكور ، وأصبح الهواء ركادا ، والريح غير متنفسة إلا من الجهة التى لا توافقنا فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور .

فلما كان يوم السبت الموفى ثلاثين، تنفست الريح بعض تنفس، فأقلعنا بذلك النفس نسير سيرا رويدا، وسكن البحر حتى خيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق، فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن، فعصمنا الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن، فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم، وله الحمد والشكر على ذلك.

## شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت ونحن بالجزيرة المذكورة، ولم يظهر تلك الليلة للأبصار بسبب النوء، لكن ظهر فى الليلة الثانية كبيرا مرتفعا، فتحققنا اهلاله ليلة السبت المذكور، وهو الثالث والعشرون من شهر يولية. وفى عشى يوم الأحد ثانيه، أرسينا بمرسى يعرف بأبحر، وهو على بعض يوم من جدة، وهو من أعجب المراسى وضعا، وذلك أن خليجا من البحر يدخل إلى البر، والبر مطيف به من كلتا حافتيه، فترسى الجلاب منه فى قرارة مكنة هادية.

فلما كان سحر يوم الاثنين بعده، أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة، والله الميسر لا رب سواه. فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة، وهى بمرأى العين منا، وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها.

ودخول هذه المراسى صعب المرام، بسبب كثرة الشعاب والتفافها، وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية، فى التصرف بالجلبة أثناءها، أمرا ضخما: يدخلونها على مضايق، ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القاد، ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه.

وفى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور، وهو السادس والعشرون من شهر يوليه، كان نزولنا بجدة، حامدين لله عز وجل، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه فى تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر.

وكانت أهوالا شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه: فمنها ما كان يطرأ من البحر، واختلاف رياحه، وكثرة شعابه المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها، واقتصامها المرة بعد المرة، عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه، وربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تحللها، فنسمع لها هدا مؤذن باليأس، فكنا فيها نموت مرارا ونحيى مرارا، والحمد لله على ما من به من العصمة، وتكفل به من الوقاية والكفاية، حمدا يبلغ رضاه، ويستهدى المزيد من نعماه بعزته وقدرته، لا اله سواه.

وكان نزولنا فيه بدار القائد على - وهو صاحب جدة من قبل أمير مكة المذكور- فى صرح من تلك الصروح الخصوصية التى يبنونها فى أعالى ديارهم، ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها.

وعند احتلالنا جدة المذكورة، عاهدنا الله عز وجل - سرورا بما أنعم الله به من السلامة- ألا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون، إلا أن طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق، والله ولى الخيرة فى جيمع ما يقضيه ويسنيه بعزته.

## جدة

وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفى أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر.

وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة، وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم، وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر، صلى الله عليها، عند توجهها إلى مكة، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله، والله أعلم بذلك.

وفيها مسجد منسوب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينسب أيضا إليه رضى الله عنه، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد رحمة الله عليه.

وأكثر سكان هذه البلدة - مع ما يليها من الصحراء والجبال - أشراف علويون: حسنيون وحسينيون وجعفريون، رضى الله عن سلفهم الكريم، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقا، ويستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن: من اكراء جمال أن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه، أو حطب يحتطبونه، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المقدر لما يشاء. ولاشك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة، ولم يرتض لهم الدنيا، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا.

وبخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها، ويذكر أنها كانت من مدن الفرس، وبها جباب منقورة فى الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض، تفوت الإحصاء كثرة، هى داخل البلد وخارجه، حتى أنهم يزعمون أن التى خارج البلد ثلثمائة وستون جبا، ومثل ذلك داخل البلد، وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء. وعجائب الموضوعات كثيرة، فسبحان المحيط علما بها.

## استغلال الحجاج

وأكثر أهل هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم، قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون فى الحاج ما لا يعتقد فى أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التى يستغلونها، ينتهبونهم انتهابا، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا. فالحاج معهم لا يزال فى غرامة ومؤنة إلى ان ييسر الله رجوعه إلى وطنه.

ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات بصلاح الدين، لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليده ولا يلين شديده، فانه رفع ضرائب المكوس عن الحاج، وجعل عوض

ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلهما إلى مكثر، أمير مكة، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج واظهار تثقيفهم بسبب المكوس.

واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة، فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر، الأمير المذكور، فورد أمره بأن يضمن الحاج بعضهم بعضا، ويدخلوا إلى حرم الله، فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين، وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج، هذا لفظه، كأن حرم الله ميراث بيده، محلل له اكتراؤه من الحاج، فسبحان مغير السنن ومبدلها.

والذى جعل له صلاح الدين، بدلا من مكس الحاج، ألفا دينار اثنان، وألفا اردب من القمح - وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الإشبيلى عندنا - حاشى اقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور. ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام، فى حروب له هناك مع الإفرنج، لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر فى جهة الحاج.

فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله، هذه البلاد الحجازية، لما هم عليه من حل عرى الإسلام، واستحلال أموال الحاج ودمائهم، فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم، فاعتقاده صحيح لهذا السبب، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل.

فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف غرر، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام، وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل، ومصادرة الحجاج عليها، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم. تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين، وحزب الله أولى الحق والصدق، والذابين عن حرم الله عز وجل، والغائرين على محارمه، والجادين فى اعلاء كلمته واظهار دعوته ونصر ملته. أنه على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

## لا إسلام إلا فى بلاد المغرب

وليتحقق المتحقق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد، أنه لا اسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك - مما بهذه الجهات المشرقية - فأهواء

وبدع، وفرق ضالة وشيع، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها. كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهها إلا عند الموحدين - أعزهم الله - فهم آخر أئمة العدل فى الزمان.

وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان فعلى غير الطريقة: يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها. اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه، لو كان له أعوان على الحق.. مما أريد، والله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه.

## الدعوة المؤمنة الموحدية

ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنة الموحدية، وانتشار كلمتها بهذه البلاد، واستشعار أهلها لملكتها، أن أكثر أهلها منهم، بل الكل منهم، يرمزون بذلك رمزا خفيا، حتى يؤدى ذلك بهم إلى التصريح، وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدى بعضهم، أنذرت بأشياء من الكوائن، فعاينوها صحيحة.

فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء، على أحدهما تمثال ناظر إلى جهة المغرب، وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق، فكانوا يرون أن أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا إليها على ديار مصر وسواها.

وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق، فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد. وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم إن شاء الله، ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صبحا جليا، ويقطعون بصحتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى انجاز وعدها.

شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما، مشافهة وسماعا، أمرا غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق دعوته الصدق. ونمى إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها، قد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين - أعلى الله أمره - وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة، والله عز وجل يبسطها من كلمة، ويعليها من دعوة، أنه على ما يشاء قدير.

## من جدة إلى الحرم الشريف

وفى عشى يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور، وهو الثانى من شهر أغشت، كان انفصالنا من جدة، بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا، وثبتت أسماؤهم فى زمام عند قائد جدة على بن موفق، حسبما نفذ إليه أمر ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور. وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على رضوان الله عليهما، لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم رضى الله عنهم.

وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس، وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالهم، ومنه يحرمون، وبه يريحون اليوم الذى يصبحونه، فإذا كان فى عشيه رقعوا وأسروا ليلتهم، وصبحوا الحرم الشريف - زاده الله تشريفا وتعظيما - والصادرون من الحج ينزلون به أيضا ويسرون منه إلى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة، والحاج بسببها لا يحتاجون إلى تزود الماء غير ليلة اسرائهم إليه.

فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين، فلما حان العشى رحنا منه محرمين بعمرة، فأسرينا ليلتنا تلك، فكان وصولنا مع الفجر إلى قريب الصبح فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء، ودخلنا مكه، حرسها الله، فى الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، وهو الرابع من شهر أغشت، على باب العمرة.

وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قدر قد ألقى على البسيطة شعاعه الليل قد كشف عنا قناعه، الأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، الألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالرجاء، فتارة تشتد بالتلبية وآونة تتضرع بالأدعية، فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العقد فهى عروس ليالى العمر، وبكر بنيات الدهر.

إلى أن وصلنا فى الساعة المذكورة، من اليوم المذكور، حرم الله العظيم، ومبوا الخليل إبراهيم، فألفيا الكعبة البيت الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن. فطفنا طواف القدوم، ثم صلينا بالمقام الكريم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم - وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة - ودخلنا قبة زمزم، وشربنا من مائها، وهو «لما شرب له» كما قال صلى الله عليه وسلم، ثم سعينا بين «الصفا والمروة» ثم حلقنا وأحللنا، فالحمد لله الذى كرمنا بالوفادة عليه، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة إلى الحلال، قريبا من الحرم ومن باب السدة، أحد أبوابه، فى حجرة كثيرة المرافق المسكنية، مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة.

## شهر جمادى الأولى، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى والعشرين لأغشت، وقد كمل لنا بمكة - شرفها الله تعالى - ثمانية عشر يوما. فهلال هذا الشهر أسعد هلال اجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا، طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم، وحرم الله العظيم، والقبة التى فيها مقام إبراهيم مبعث الرسول، ومهبط الروح الأمين جبريل بالوحى والتنزيل. فأوزعنا الله شكر هذه المنة، وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة، وختم لنا بالقبول، وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل، ولطيف التيسير والتسهيل، بعزته وقدرته لا إله سواه.

## ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه

البيت المكرم له أربعة أركان، وهو قريب من التربيع، وأخبرنى زعيم الشيبيين الذين إليهم سدانة البيت - وهو محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبدالدار، صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب حجابة البيت — أن ارتفاعه فى الهواء من الصفح الذى يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى، تسع وعشرون ذراعا، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب.

فأول أركانه الركن الذى فيه الحجر الأسود، ومنه إبتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به والبيت المكرم عن يساره.

وأول ما يلقى بعده الركن العراقى وهو ناظر إلى الجهة الشمال، ثم الركن الشامى وهو ناظر إلى جهة الغرب، ثم الركن اليمانى وهو ناظر إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق، وعند ذلك يتم شوطا واحدا.

وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر الأسود، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار مخففة، وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم، وهو موضع استجابة الدعاء.

والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف، وهو من فضة مذهبة، بديع الصنعة رائق الصفة، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا للمهابة التى كساها الله بيته،

وعضادتاه كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضا، وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز، فى سعته مقدار شبرين، وللباب نقارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب، وهو ناظر للشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا، وغلظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار.

وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كلها رخام مجزع، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول، وبين كل عمود وعمود أربع خطا، وهى على طول البيت متوسطة فيه، فأحد الأعمدة — وهو أولها — يقابل نصف الصفح الذى يحف به الركنان اليمانيان، وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا، والعمود الثالث — وهو آخرها— يقابل الصفح الذى يحف به الركنان العراقى والشامى.

ودائر البيت كله، من نصفه الأعلى، مطلى بالفضة المذهبة الثخينة، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها، وهى تحف بالجوانب الأربعة، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى، وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون.

وظاهر الكعبة كلها، من الأربعة جوانب، مكسو بستور من الحرير الأخضر، وسداها قطن، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر، فيه مكتوب ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾[1] الآية، واسم الإمام الناصر لدين الله فى سعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها. قد شكل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تبصره أشكال محاريب رائقة، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى، وبالدعاء للناصر العباسى المذكور الآمر باقامتها، وكل ذلك لا يخالف لونها. وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا، وفى الصحفين الكبيرين منها ثمانية عشر، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر، وله خمسة مضاوى، وعليها زجاج عراقى بديع النقش، أحدها فى وسط السقف، ومع كل ركن مضوأ، والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبور المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة، وإحداها من ذهب.

وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علاهما فى الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة. وفى الركن الذى يليه — وهو اليمانى— كذلك، لكنهما انقلعا، وبقى العمود الذى كانا ملصقين عليه، وفى الركن الشامى كذلك وهما باقيان، وفى جهة الركن العراقى كذلك.

---

(١) سورة آل عمران الاية ٩٦

وعن يمينه الركن العراقى، وفيه باب يسمى بباب الرحمة، يصعد منه إلى سطح البيت المكرم، وقد قام له قبو، فهو متصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج، وفى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم، فتجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان، وفى سعة صفحيه قامتان، وهو محتو على الركن العراقى بنصفين من كل صفح، وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بستر الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع.

وهذا المقام الكريم، الذى داخل هذا القبو، هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله، فكأنه — وله التنزيه والمثل الأعلى — كانون فخار كبير، أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه. عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله، وصب لنا فى أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه، نفعنا الله به، وأثرهما بين وأثر الأصابع المكرمة المباركة، فسبحان من ألانه لواطئه حتى أثرت فيه ولا تأثير القدم على الرمل الوثير، سبحان جاعله من الآيات البينات.

ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من الذهول، ويطيش الأفئدة والعقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة، وعبرات هامعة، ومدامع باكية، وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية.

وبين الباب الكريم والركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبرا، وعرضه خمسة أشبار ونصف، وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضادة الباب التى تلى الركن المذكور، آخذا إلى جهته، وهو علامة موضع المقام مدة إبراهيم عليه السلام، إلى أن صرفه النبى ﷺ إلى الموضع الذى هو الآن مصلى، وبقى الحوض المذكور مصبا لماء البيت إذا غسل، وهو موضع مبارك، يقال أنه «روضة من رياض الجنة»، والناس يزدحمون للصلاة فيه، وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة.

وموضع المقام الكريم هو الذى يصلى خلفه، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى، وهو إلى الباب أميل بكثير، وعليه قبة خشب فى مقدار القامة أو أزيد، مركنة محددة بديعة النقش، سعتها من ركنها الواحد إلى الثانى أربعة أشبار.

وقد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله تكفيف من حجارة، نصت على حرف كالحوض المستطيل فى ارتفاعه نحو شبر، وطوله خمس خطا، وعرضه ثلاث خطا، وأدخل المقام إلى الموضع الذى وصفناه فى البيت الكريم احتياطا عليه، بينه وبين

صفح البيت الذى يقابله سبع عشرة خطوة، والخطوة كلـها فيـها ثلاثـة أشـبار، ولموضـع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد، وموضوعة إلى جانب قبة زمـزم. فـإذا كـان فـى أشـهر الحج، وكثر الناس، ووصل العراقيون والخراسانيون، رفعت قبة الخشـب، ووضعـت قبـة الحديد لتكون أحمل للازدحام.

ومن الركن الذى فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقى أربعـة وخمسـون شـبرا مخففـة، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار، فالطول يتطأمن إليـه، والقصـير يتطـاول إليـه. ومن الركن العراقى إلى الركن الشامى ثمانية وأربعون شبرا مخففة، وذلك داخـل الحجـر، واما من خارج فمنه إليه أربعون خطوة، وهى مائة وعشرون شـبرا مخففـة، ومـن خارجـه يكون الطواف. ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ما من الركن الأسود إلى العراقى، لأنه الصفح الذى يقابله. ومن اليمانى إلى الأسود ما من العراقى إلى الشامى داخـل الحجـر، لأنه الصفح الذى يقابله.

وموضع الطواف مفـروش بحجـارة مبسـوطة كأنـها الرخـام حسـنا، منـها سـود وسمـر وبيض، قد الصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا، إلا فى الجهة التى تقابل المقام، فإنها امتدت إليها حتى أحاطت به. وسائر الحرم مـن البلاطـات كلـها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة.

وبين الركن العراقى وبين أول جدار الحجر مدخل إلى الحجر سعته أربع خطـا، وهـى ست أذرع محققة كلناها باليد، وهذا الموضع الذى لم يحجر عليه، هو الذى تركت قريش من البيت، وهو ست أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح، ويقابله عنـد الركـن الشـامى مدخل آخر على مثال تلك السعة.

وبين جدار البيت الذى تحت الميزاب، والذى يقابله من جدار الحجر على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبرا، وسعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة، وهى ثمانية وأربعون شبرا. وهو - يعنى دور الجدار - رخام كله مجزع بديـع الالصـاق .. قضبان صفر مذهبة، وضع منها فى صفحة أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض، وصفات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها، لاح لها بصيص ولألاء يخيـل للنـاظر إليـها أنها ذهب يرتمى بالأبصار شعاعه، وفى ارتفاع جدار هذا الحجر الرخـامى خمسـة أشـبار ونصف، وسعته أربعة أشبار ونصف.

وداخل الحجر بلاط واسـع، ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرخام المجزع، المقطع فى دور الكف إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك، ثم ألصـق بانتظـام بديـع،

وتأليف معجز الصنعة، غريب الاتقان، رائق الترصيع والتجزيع، رائع التركيب والرصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية، وسواها على أختلاف أنواعها وصفاتها، ما يقيد بصره حسنا، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسى، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة.

وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب، أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق، والتشجير والتقضيب ما لا يحدثه الصنع اليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين، فمرآهما عجيب، أمر بصنعتهما على هذه الصفة أمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضىء بالله أبى محمد الحسن، ابن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى، رضى الله عنه.

ويقابل الميزاب فى وسط الحجر، وفى نصف جداره الرخامى، رخامة قد نقشت لأبدع نقش، وحفت بها طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا، فيه مكتوب، مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد، الناصر لدين الله أمير المؤمنين، وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة.

والميزاب فى أعلى الصفح الذى يلى الحجر المذكور، وهو من صفر مذهب قد خرج إلى الحجر بمقدار أربع أذرع، وسعته مقدار شبر، وهذا الموضع تحت الميزاب هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، وكذلك الركن اليمانى، ويسمى المستجار ما يليه، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامى.

وتحت الميزاب، فى صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم، قبر إسماعيل صلى الله عليه وسلم، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما غريبة المنظر، فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع، وهى أشبه الأشياء بالنكت التى تبقى فى البيدق من حل الذهب فيه. وإلى جانبه، مما يلى الركن العراقى، قبر أمه هاجر رضى الله عنهما، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف. يتبرك الناس بالصلاة فى هذين الموضعين من الحجر، وحق لهم ذلك، لأنهما من البيت العتيق، وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين، نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما، وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار.

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة، والمقام المذكور الذى يصلى خلفه عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خطا، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض، وتنور البئر المباركة فى وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه. وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر.

وباب القبة ناظر إلى الشرق، وبابا قبة العباس وقبة اليهودية ناظران إلى الشمال، والركن من الصفح - الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية - يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية، فبينهما هذا القد من الانحراف.

وتلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب، وهى المنسوبة للعباس رضى الله عنه، وتلى هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية، وهاتان القبتان مخزنات لأوقاف البيت الكريم، من مصاحف وكتب وأتوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية لأنها كانت سقاية الحاج، وهى حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل لسقفى الحاج فى قلال يسمونها الرواق، كل دورق منها ذو مقبض واحد.

وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الأيام، وأفرغ فى أثنائه الرصاص وكذلك داخل التنور وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة إليه - ابلاغا فى قوة لزد ورصه - اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله، ودوره أربعون شبرا، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغلظة شبر ونصف.

وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس إليها، ويتوضأون عليها.

والحجر الأسود المبارك ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق، ولا يدرى قدر ما دخل فى الركن، وقيل أنه داخل فى الجدار بمقدار ذراعين، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال أن القرمطى - لعنه الله - كان الذى كسره، وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه

الصقيل، فيبصر الرائى من ذلك منظرا عجيبا هو قيد الأبصار، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم، حتى يود اللاثم ألا يقلع فمه عنه، وذلك خاصة من خواص العناية الإلهية، وكفى أن النبى ﷺ قال: «وإنه يمين الله فى أرضه»[1]، نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق إليه بمنه.

وفى القطعة الصحيحة من الحجر - مما يلى جانبه الذى يلى يمين المستلم له إذا وقف مستقبله - نقطة بيضاء صغيرة مشرقة، تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة، وفى هذه الشامة البيضاء أثر «أن النظر إليها يجلو البصر»، فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع.

والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات، على ثلاث سوار من الرخام، منتظمة كأنها بلاط واحد، ذرعها فى الطول أربعمائة ذراع، وفى العرض ثلثمائة ذراع، فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا، وما بين البلاطات فضاء كبير، وكان على عهد رسول الله - ﷺ - صغيرا ، وقبة زمزم خارجة عنه.

وفى مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة فى الأرض، منها كان حد الحرم أولا، وبين رأس السارية وبين الركن الشامى المذكور اثنتان وعشرون خطوة، والكعبة فى وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب، وعدد سواريه الرخامية - التى عددتها بنفسى - أربعمائة سارية واحدى وسبعون سارية، حاشى الجصية التى منها فى دار الندوة، وهى التى زيدت فى الحرم، وهى داخلة فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، ويقابلها المقام مع الركن العراقى، وفضاؤها متسع يدخل من البلاط إليه.

ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب، تحت قسى حنايا، يجلس فيها النساخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة، والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم، وفى جدار البلاط الذى يقابله أيضا مصاطب تحت حنايا على تلك الصفة، وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق.

وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون، وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب، فيه أيضا سوار جصية، ووجدت بخط أبى جعفر بن على الفنكى القرطبى الفقيه المحدث أن عدد سواريه أربعمائة وثمانون، لأنى لم أحسب التى خارج باب الصفا.

---

(١) متفق عليه .

وللمهدى محمد بن أبى جعفر المنصور العباسى، فى توسعة المسجد الحرام والتأنق فى بنائه، آثار كريمة، وجدت فى الجهة التى من الغرب إلى الشمال، مكتوبا فى أعلى جدار البلاط «أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين - أصلحه الله - بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره فى سنة سبع وستين ومائة».

وللحرم سبع صوامع: أربع فى الأربعة جوانب، وواحدة فى دار الندوة، وأخرى على باب الصفا - وهى أصغرها، وهى علم لباب الصفا، وليس يصعد إليها لضيقها - وعلى باب إبراهيم صومعة قد ذكرت عند باب إبراهيم فيما بعد.

وباب الصفا يقابل الركن الأسود، فى البلاط الذى من الجنوب إلى الشرق، وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان الركن المذكور، فيهما منقوش «أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين - أصلحة الله - بإقامة هاتين الأسطوانتين، علما لطريق رسول ﷺ إلى الصفا، ليتأسى به حاج بيت الله وعماره، على يدى يقطين بن موسى وإبراهيم بن صالح، فى سنة سبع وستين ومائة».

وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب، رائق الخط، طويل الحروف غليظها، يرتمى الأبصار برونقه وحسنه، مكتوب فيه «مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين - صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين - فى سنة خمسين وخمسمائة، فى صفحتى البابين، على هذا النص المذكور».

ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة، البديعة النقش، تصعد إلى العتبة المباركة وتشف عليها، وتستدير بجانبى البابين، ويعترض أيضا بين البابين - عند اغلاقهما - شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة، هى بطول البابين، متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل إلى البيت.

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه، وهى أربع وثلاثون شقة: فى الصفح الذى بين الركن اليمانى والشامى منها تسع، وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقى تسع أيضا، وفى الصفح بين العراقى والشامى ثمان، وفى الصفح بين اليمانى والأسود ثمان أيضا. قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب.

وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص، فى ارتفاعه أزيد من شبر، وفى سعته شبران أو أزيد قليلا، فى داخله خشب غير ظاهر، وقد سمرت فيه أوتاد حديد فى

رؤوسها حلقات حديد ظاهرة. قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول، واستدار بالجوانب الأربعة، بعد أن وضع فى أذيال الستور شبه حجز السراويلات، وأدخل فيها ذلك المرس، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة، ومجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل، بعضها فى بعض.

واستدار أيضا بأعلاها، على جوانب السطح، تكفيف ثان، وقعت فيه أعالى الستور فى حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة، فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل، وثيقة الأزرار، لا تخلع الا من عام إلى عام عند تجديدها. فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه.

وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة، الا فى رجب فإنه يفتح فى كل يوم، وفتحه أول بزوغ الشمس.

يقبل سدنة البيت الشيبيون، فيبادر منهم من ينقل كرسيا كبيرا شبه المنبر الواسع، له تسعة أدراج مستطيلة، قد وضعت له قوائم من الخشب متطأمنة مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يجرى الكرسى عليها حتى يصل إلى البيت الكريم، فيقع درجة الأعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب.

فيصعد زعيم الشيبيين إليه - وهو كهل جميل الهيئة والشارة - وبيده مفتاح القفل المبارك، ومعه من السدنة من يمسك فى يده سترا أسود، يفتح يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه[1] الزعيم الشيبى المذكور، فإذا فتح القفل قبل العتبة، ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضا ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول.

وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم. يقف الناس مستقبلين اياه بأبصار خاشعة، وأيد مبسوطة إلى الله ضارعة. وإذا انفتح الباب كبر الناس، وعلا ضجيجهم، ونادوا بألسنة مستهلة: « اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ». ثم دخلوا بسلام آمنين.

وفى الصفح المقابل للداخل فيه، الذى هو من الركن اليمانى إلى الركن الشامى، خمس رخامات منتصبات طولا كأنها أبواب، تنتهى إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض، وكل واحدة منها نحو القامة، الثلاث منها حمر، والاثنتان خضراوان، فى كل واحدة منها

---

(١) بمعنى يثنى.

تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه، كأنه فيها تنقيط، فتتصل بالركن اليمانى منها الحمراء، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء. والموضع الذى يقابلها متقهقرا عنها بثلاثة أذرع، هو مصلى النبى ﷺ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به.

ووضعهن على هذا الترتيب، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور، ويتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون ناصع البياض، قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة إلى الزرقة مشجرة مغصنة، وفى التى تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال، كأنها مقسومة، فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله، فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال، فوضعت كل واحدة بازاء أختها، والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان، سعتهما خمسة أشبار لأعداد الأشبار المذكورة، والأشكال فيها تختلف هيئاتها، وكل أخت منها بإزاء أختها. وقد شدت جوانب هذه الرخامات بتكافيف، غلظها قدر أصبعين، من الرخام المجزع من الأخضر والأحمر المنقطعين، والأبيض ذى الخيلان، كأنها أنابيب مخروطة يحار الوهم فيها.

فاعترضت فى هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الأبيض ست فرج، وفى الصفح الذى عن يسار الداخل - وهو من الركن الأسود إلى اليمانى - أربع رخامات: اثنتان خضراوان، واثنتان حمراوان، وبينهما خمس فرج من الرخام الأبيض، وكل ذلك على الصفة المذكورة.

وفى الصفح الذى عن يمين الداخل - وهو من الركن الأسود إلى العراقى - ثلاث: اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض. وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذى فيه باب الرحمة، وسعته ثلاثة أشبار، وطوله سبعة وعضادته التى عن يمينك إذا استقبلته رخامة خضراء فى سعة ثلثى شبر. وفى الصفح الذى من الشامى إلى العراقى ثلاث: اثنتان حمراوان، وواحدة خضراء، ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض على الصفة المذكورة.

ويكلل هذا الرخام المذكور طرتان، واحدة على الأخرى، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب مرسوم فى اللازورد، قد خط فيه خط بديع، وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى، والجهة التى عن يمين الداخل لها طرة واحدة، وفى هاتين الطرتين بعض مواضع دراسة.

وفى كل ركن من الأركان الأربعة - مما يلى الأرض - رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركن، وتكتنف أيضا كل بابين من الفضة اللذين فى كل ركن، كأنهما طاقان، عضادتان من الرخام الأخضر صغيرتان على قدر نقبيهما.

وفى أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء، وفى آخره مثلها، والخضراء بينهما على الترتيب المذكور. الا الصفح الذى عن يسار الداخل، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء، ثم حمراء إلى كمال الترتيب الموصوف.

وبازاء المقام الكريم منبر الخطيب، وهو أيضا على بكرات أربع شبه التى ذكرناها. فإذا كان يوم الجمعة، وقرب وقت الصلاة، ضم إلى صفح الكعبة الذى يقابل المقام، وهو بين الركن الأسود والعراقى، فيسند المنبر إليه.

ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبى ﷺ - وهو يقابل المقام فى البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال - لابسا ثوب سواد مرسوما بذهب، ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا، وعليه طيلسان شرب رقيق - كل ذلك من كساء الخليفة التى يرسلها إلى خطباء بلاده - يرفل فيها، وعليه السكينة والوقار، يتهادى رويدا بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعيا أحد القومة، وفى يده عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول، رقيق طويل، فى طرفه عذبة صغيرة، ينفضها بيده فى الهواء نفضا، فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه، كأنه ايذان بوصول الخطيب، لا يزال فى نفضها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة.

فإذا قرب من المنبر عرج إلى الحجر الأسود فقبله ودعا عنده، ثم سعى إلى المنبر، والمؤذن الزمزمى - رئيس المؤذنين بالحرم الشريف - ساعيا أمامه، لابسا ثياب السواد أيضا، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له. فعند صعوده فى أول درجة، قلده المؤذن المذكور السيف، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين، ثم فى الثانية، ثم فى الثالثة، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة، ووقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفى، ثم انفتل عن يمينه وشماله، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيرد الناس عليه السلام.

ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه فى المنبر بالأذان على لسان واحد، فإذا فرغوا قام للخطبة، فذكر ووعظ وخشع فأبلغ، ثم جلس الجلسة الخطيبية، وضرب بالسيف ضربة خامسة، ثم قام للخطبة الثانية، فأكثر بالصلاة على محمدﷺ وعلى آله، ورضى عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عن جميعهم، ودعا لعمى النبى ﷺ، حمزة والعباس وللحسن والحسين، ووالى الترضى عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ، ورضى عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ، ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى

ابن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى، ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان.

وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبة للنـــاس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم.

وفى هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكثر وأهم فصوله التوصية بالحاج، والتأكيد فى مبرتهم وتأنيسهم، ورفع أيدى الاعتداء عنهم، والايعاز فى ذلك إلى الخدام والأتباع والأوزاع. وقال: إنه إنما نحن وأنت متقلبون فى بركة الحاج. فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم، واحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده، واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل همته الاعتناء بهم، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين، أنه ولى ذلك لا رب سواه. وفى أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان فى أول درجة من المنبر، ويمسكهما رجلان من المؤذنين، وفى جانبى باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما مركوزتين، فإذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة أمامه على الصفة التى دخل عليها، كأن ذلك أيضا إيذان بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة، ثم أعيد المنبر إلى موضعه بازاء المقام.

وليلة أهل هلال الشهر المذكور - وهو جمادى الأولى - بكر أمير مكة مكثر المذكور، فى صبيحتها، إلى الحرم الكريم مع طلوع الشمس، وقواده يحفون به، والقراء يقرأون أمامه، فدخل على باب النبى ﷺ، ورجاله السودان - الذين يعرفونهم بالحرابة - يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب، وهو فى هيئة اختصار، عليه السكينة والوقار وسمت سلفه الكريم رضى الله عنهم، لابسا ثوب بياض، متقلدا سيفا مختصرا، متعمما بكرزية صوف بيضاء رقيقة.

فلما انتهى بازاء المقام الكريم وقف، وبسط له وطاء كتان فصلى ركعتين، ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله، وشرع فى الطواف، وقد علا فى قبة زمزم صبى، هو أخو المؤذن الزمزمى، هو أول المؤذنين أذانا، به يقتدون وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم.

فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا، ويقرب من الحجر، يندفع الصبى فى أعلى القبة، رافعا صوته بالدعاء، ويستفتحه بصبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة،

ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء، ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر فى مدحه ومدح سلفه الكريم، وذكر سابقة النبوة رضى الله عنها ثم يسكت.

فإذا أظل من الركن اليمانى يريد الحجر، اندفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر فى ذلك المعنى بعينه، كأنها منتزعة من قصائد مدح بها، هكذا فى السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها، والقراء فى أثناء طوافه أمامه. فينتظم من هذه الحال والأبهة، وحسن صوت ذلك الداعى على صغره - لأنه ابن احدى عشرة سنة أو نحوها - وحسن الكلام الذى يورده نثرا ونظما، وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل، مجموع يحرك النفوس ويشجيها، ويستوكف العيون ويبكيها، تذكرا لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا.

فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين، ثم جاء وركع خلف المقام أيضا، ثم ولى منصرفا وحلقته تحف به، ولا يظهر فى الحرم الا لستهل هلال آخر، هكذا دائما.

والبيت العتيق مبنى بالحجارة الكبار الصم السمر ، قد رص بعضها على بعض ، وألصقت بالعقد الوثيق إلصاقا لا تحيله الأيام ، ولا تقصمه الأزمان . ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليمانى ، فسمرت بمسامير فضة ، وأعيدت كأحسن ما كانت عليه ، والمسامير فيها ظاهرة . ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد ، وله التنزيه الأعلى .

وحمام الحرم لا تحصى كثرة ، وهى من الأمن بحيث يضرب بها المثل ، ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة ، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال ، فترى الحمام تتجلل على الحرم كله ، فإذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا ، والطيور سواها كذلك . وقرأت فى أخبار مكة أنه لا ينول عليه طائر إلا عند مرض يصيبه ، فإما أن يموت لحينه أو يبرأ . فسبحان من أورثه التشريف والتكريم .

ومن آياته أن بابه الكريم يفتح فى الأيام المعلومة المذكورة ، والحرم قد غص بالخلق ، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل ، ولا يبقى فيه موضع إلا ويصلى فيه كل أحد ، ويتلاقى الناس عند الخروج منه ، فيسأل بعضهم بعضا : هل دخل البيت ذلك اليوم ؟ فكل يقول : دخلت وصليت فى موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع . ولله الآيات البينات ، والبراهين المعجزات ، سبحانه وتعالى .

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ، ولا وقتا من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به . فسبحان من كرمه وعظمه ، وخلد له التشريف إلى يوم القيامة .

وفى أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة ، وهو مشرف كله بشرفات مبسوطة مركنة، فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضا شرفات آخر صغار ، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذى يليه من الشرفة الأخرى ، وتحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر ، منفوذ يخترقه الهواء ، يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر ، فيلوح كأنها أقمار مستديرة يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها ، كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أخذت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل .

وفى النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة ، شقة من الجص معترضة بين الشرفات مخرمة فرجية ، طولها نحو الثلاثين شبرا تقديرا، يقابل كل شقة منها صفحا من صفحات الكعبة المقدسة ، قد علت على الشرفات كالتاج .

وللصوامع أيضا أشكال بديعة ، وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع ، قد أحاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة ، وارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه مخروط مختم كله بالآجر تختيما يتداخل بعضه على بعض ، بصنعة تستميل الأبصار حسنا ، وفى أعلى ذلك العمود الفحل ، وقد استدار به أيضا، شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها ، وهى متميزة الأشكال كلها ، لا يشبه بعضها بعضا ، لكنها على هذا المثال المذكور من كون نصفها الأول مركنا ، ونصفها الأعلى عمودا لا ركن له .

وفى النصف الأعلى من قبة زمزم ، والقبة العباسية التى تسمى السقاية ، القبة التى تليها منحرفة عنها يسيرا المنسوبة لليهودية ، صنعة من قرنصة الخشب عجيبة ، قد تألق الصانع فيها ، وأحدق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب رائق الحلل والتفاريج ، وداخل شباك قبة زمزم سطح ، وقد قام فى وسطه شبه فحل الصومعة ، وفى ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمى ، وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص ، واستقر فى رأسه صحفة حديد تتخذ مشعلا فى شهر رمضان المعظم .

وفى الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة ، توقد كل ليلة ، وفى الصفح الذى عن يمينه كذلك - وهو الناظر إلى الشمال - وفى كل

جانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب ، قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة ، منها ما هو مفتول فتل السوار ، ولاسيما الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم . فإن سواريه فى نهاية من اتقان الصنعة ، قد أدير بكل سارية منها رءوس ثلاثة أو أربعة ، وتحت ما بين كل رأس ورأس .. وأحدثت ، فيها صنائع من النقش عجيبة المنظر ، وربما فتل بعضها على الصفة السوارية .

وهذا الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة ، يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع ، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لأن الحجر الأسود أمامك ، والباب الكريم مع البيت قبالتك ، والمقام عن يمينك ، وباب الصفا عن يسارك ، وبئر زمزم وراء ظهرك ، وناهيك بهذا .

وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كأنها شراجيب آخر ، وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية يتصل بأحد أركانه شباك قبة اليهودية حتى يتماسا ، فمن يكون فى أعلى سطح هذه ينفتل إلى سطح الأخرى من الركنين المذكورين ، وداخل هذه القباب صنعة من القرنصة الجصية رائقة الحسن .

وللحرم أربعة أئمة سنية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيدون فى الأذان (حى على خير العمل) أثر قول المؤذن (حى على الفلاح) وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظهرا أربعا ، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها .

فأول الأئمة السنية الشافعى رحمه الله ، وإنما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الإمام العباسى ، وهو أول من يصلى ، وصلاته خلف مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم .

إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها فى وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبدأ مؤذن الشافعى بالإقامة ، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة ، وربما دخل فى هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة . فربما ركع المالكى بركوع الشافعى أو الحنفى ، أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه ، فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ، ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس .

ثم المالكى رحمه الله ، وهو يصلى قبالة الركن اليمانى ، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها .

ثم الحنفى رحمه الله ، وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له ، وهو أعظم الأئمة أبهة ، وأفخرهم آلة من الشمع وسواها ، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه ، فالاحتفال له كثير ، وصلاته آخرا .

ثم الحنبلى رحمه الله ، وصلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد ، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، ويصلى الظهر والعصر قريبا من الحنفى فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ، والحنفى يصليهما فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه ، ولا حطيم له .

وللشافعى بإزاء المقام حطيم حفيل . وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلهما خشبتان على تلك الصفة ، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع ، واعترض فى أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها ، قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج ، وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب .

وللحنفى بين الرجلين الجصيتين ، المنعقدتين على الخشب ، محراب يصلى فيه . وللحنبلى حطيم معطل ، هو قريب من حطيم الحنفى ، وهو منسوب لرامشت أحد الأعاجم ذوى الثراء ، وكانت له فى الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ، ويقابل الحجر حطيم معطل أيضا ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول .

ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق ، وعلى بعد منه يسيرا ، مشاعيل توقد فى صحاف حديد فوق خشب مركوزة ، فيتقد الحرم الشريف كله نورا ، ويوضع الشمع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم ، والمالكى أقلهم شمعا وأضعفهم حالا ، لأن مذهبه فى هذه البلاد غريب ، والجمهور على مذهب الشافعى ، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها إلا الإسكندرية وأكثر أهلها مالكيون ، وبها الفقيه ابن عوف ، وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الأئمة المالكية .

وفى إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمى فى سطح قبة زمزم - ولها مطلع على أدراج من عود فى الجهة التى تقابل باب الصفا - رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسى أحمد الناصر لدين الله ، ثم للأمير مكثر ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذى المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة ، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه فى أرضه . ثم يصل ذلك بدعاء

لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين ، ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل ، هكذا دأبه دائما أبدا .

وفى القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفتى عود مجلد بمغاليق من صفر ، كبير الورقات واسعها ، عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه ، نفع الله بالنية فى ذلك .

وأعلمنا صاحب القبة ، المتولى لعرضه علينا ، أن أهل مكة متى أصابهم قحط ، أو نالتهم شدة فى أسعارهم ، أخرجوا المصحف المذكور ، وفتحوا باب البيت الكريم ، ووضعوه فى العتبة المباركة مع المقام الكريم – مقال الخليل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم – واجتمع الناس كاشفين رءوسهم داعين متضرعين ، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم إلى الله متوسلين ، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم ، والله لطيف بعباده لا إله سواه .

وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة ، لها أبواب يخرج منها إليه. وناهيك بهذا الجوار الكريم – كدار زبيدة ، ودار القاضى ، ودار تعرف بالعجلة ، وسواها من الديار وحول الحرم أيضا ديار كثيرة تطيف به ، لها مناظر وسطوح ، يخرج منها إلى سطح الحرم ، فيبيت أهلها فيه ، ويبردون ماءهم فى أعالى شرفاته ، فهم من النظر إلى البيت العتيق فى عبادة متصلة ، الله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه .

وألفيت بخط الفقيه الزاهد الورع ، أبى جعفر الفنكى القرطبى ، أن ذرع المسجد الحرام فى الطول والعرض ما أثبته أولا ـ وطول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مائتان ، وعدد سواريه ثلاثمائة ، ومناراته ثلاث ، فيكون تكسيره أربعة وعشرين مرجعا من المراجع المغربية ، وهى خمسون ذراعا فى مثلها .

وطول مسجد بيت المقدس – أعاده الله للإسلام – سبعمائة وثمانون ذراعا ، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا ، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية ، وقناديله خمسمائة ، وأبوابه خمسون بابا ، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعا وخمسى مرجع .

## ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر بابا أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتى ذكره إن شاء الله .

باب الصفا : يفتح على خمسة أبواب ، وكان يسمى قديما بباب بنى مخزوم .

باب الخلقيين : وسمى بباب جياد الأصغر ، مفتح على بابين ، وهو محدث .

باب العباس رضى الله عنه : وهو يفتح على ثلاثة أبواب .

باب على رضى الله عنه : مفتح على ثلاثة أبواب .

باب النبى صلى الله عليه وسلم : يفتح على بابين .

باب صغير أيضا بإزاء باب بنى شيبة المذكور ، لا اسم له .

باب بنى شيبة : وهو يفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بنى عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء .

باب دار الندوة : ثلاثة ، البابان من دار الندوة منتظمان ، والثالث فى الركن الغربى من الدار ، فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين بابا .

باب صغير بإزاء باب بنى شيبة ، شبه خوخة الأبواب ، لا اسم له ، وقيل أنه يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط الصوفية .

باب صغير لدار العجلة محدث .

باب السدة واحد .

باب العمرة واحد .

باب حزورة على بابين .

باب إبراهيم صلى الله عليه وسلم واحد .

باب ينسب لحزورة أيضا على بابين .

باب جياد الأكبر على بابين .

باب جياد الأكبر أيضا على بابين .

باب ينسب لجياد أيضا على بابين .

ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدقاقين ، والروايات فيها تختلف ، لكنا اجتهدنا فى اثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة ، والله المستعان لا رب سواه .

وباب إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، هو فى زاوية كبيرة متسعة ، فيها دار المكناسى الفقيه الذى كان إمام المالكية فى الحرم رحمه الله ، وفيها أيضا غرفة هى خزانة للكتب

المحبسة على المالكية فى الحرم ، والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب وخارجة عنه .

وبإزاء الباب المذكور، عن يمين الداخل عليه، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة، فيها تخاريم فى الجص، مستطيلة الشكل كأنها محاريب، قد حفت قرنصة غريبة الصنعة، وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو، يقترب من الصومعة الجصية والتخاريم القرنصية، يعجز عنها الوصف، وظاهرها أيضا تقاطيع فى الجث كأنها أرجل مدورة، قد تركبت دائرة على دائرة، وفحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص، مفتح ما بين (كل) رجل ورجل، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب إليه عليه السلام .

وإنما بدىء بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب ، وهو الذى يخرج عليه إلى السعى ، وكل وافد إلى مكة – شرفها الله – يدخلها بعمرة ، فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ، ثم يطوف سبعا ويخرج على باب الصفا ، ويجعل طريقه بين الأسطوانتين اللتين أمر المهدى – رحمه الله – بإقامتهما علما لطريق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الصفا ، حسبما تقدم ذكره ، وبين الركن اليمانى وبينهما ست وأربعون خطوة ، ومنهما إلى باب الصفا ثلاثون خطوة ، ومن باب الصفا إلى الصفا ست وسبعون خطوة .

وللصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرقة ، والدرجة العليا متسمة كأنها مصطبة ، وقد أحدقت به الديار ، وفى سعته سبع عشرة خطوة ، وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتى ذكره .

والميل سارية خضراء، وهى خضرة صباغية، وهى التى إلى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم على قارعة المسيل إلى المروة وعن يسار الساعى إليها، ومنها يرمل فى السعى إلى الميلين الأخضرين، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة: الواحدة منهما بإزاء باب على فى جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب، والميل الآخر يقابله فى جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر، وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج، ألفيت فيه منقوشا برسم مذهب ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[1] الآية ، وبعدها (أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته ، أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين – أعز الله نصره – فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة) .

(١) سورة البقرة الآية ١٥٨

وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة – وهى مسافة الرمل جائيا وذاهبا من الميل إلى الميلين ، ثم من الميلين إلى الميل – ومن الميلين إلى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة ، فجميع خطا الساعى من الصفا إلى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة . وأدراج المروة خمسة ، وهى بقوس واحد كبير ، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) .

وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية ، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام ، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا ، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين ، فهم عند باب بنى شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها .

وعلى الحرم الشريف جبل أبى قبيس ، وهو فى الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الأسود ، وفى أعلاه رباط مبارك فيه مسجد ، وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة ، ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه .

وقرأت فى (أخبار مكة) لأبى الوليد الأزرقى أنه أول جبل خلقه الله عز وجل ، وفيه استودع الحجر زمن الطوفان ، وكانت قريش تسميه الأمين لأنه أوى الحجر إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه قبر آدم صلوات الله عليه ، وهو أحد أخشبى مكة . والأخشب الثانى الجبل المتصل بقعيقعان فى الجهة الغربية .

صعدنا إلى جبل أبى قبيس المذكور ، وصلينا فى المسجد المبارك ، وفيه موضع موقف النبى صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل . وناهيك بهذه الفضيلة والبركة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، حتى الجمادات من مخلوقاته ، لا إله سواه .

وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد كان اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور ، فهدمه عليه أمير الحج العراقى لمخالفة صدرت عنه ، فعادوه خرابا .

وألفيت منقوشا عى سارية خارج باب الصفا – تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الصفا داخل الحرم المتقدمتى الذكر – (أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله تعالى ، بتوسعه المسجد الحرام ، مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد ، فى سنة سبع وستين ومائة) .فدل ذلك على المكتوب على أن الكعبة المقدسة فى وسط المسجد ، وكان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا ، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل ، فوجدنا الأمر صحيحا حسبما نفسه رسم السارية .

وتحت ذلك النقش ، فى أسفل السارية، منقوش أيضا : (أمر عبد الله (محمد) المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعه الباب الأوسط الذى بين هاتين الأسطوانتين ، وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الصفا) ، وفى أعلى السارية التى تليها منقوش أيضا (أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بصرف الوادى إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وتوسعته بالرحاب التى حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره) ، وتحتها أيضا منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط.

والوادى المذكور هو الوادى المنسوب لإبراهيم، ﷺ، ومجراه على باب الصفا المذكور، وكان السيل قد خالف مجراه، فكان يأت على المسيل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم، فكان مدة مده بالأمطار يطاف حول الكعبة سبحا. فأمر المهدى، رحمه الله، برفع موضع فى أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السبيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه، واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذى يسمى المسفلة، ويخرج عن البلد، ولا يجرى الماء فيه إلا عند نزول ديم المطر الكثير. وهو الوادى الذى عنى ﷺ بقوله - حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه - ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾[1] . فسبحان من أبقى له الآيات البينات .

## ذكر مكة ، شرفها الله تعالى ، وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها ، وهى بطن واد مقدس كبير مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، ولها ثلاثة أبواب :

أولها (باب المعلى) : ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة ، وهى بالموضع الذى يعرف بالحجون ، وعن يسار المار إليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها إلى طريق العمرة ، وتلك الثنية تعرف بكداء ، وهى التى عنى حسان بقوله فى شعره :

(تثير النقع موعدها كداء)

فقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : (اجخلوا من حيث قال حسان) ، فدخلوا من تلك الثنية . وهذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحارث بن مضاض الجرهمى بقوله :

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٧.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العوائر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة ، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم ، وفيه الموضع (الذى) صلب فيه الحجاج بن يوسف - جازاه الله - جثة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

وعلى الموضع بقية علم ظاهر إلى اليوم وكان عليه مبنى مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور .

وعن يمينك إذا استقبلت الجبانة المذكورة ، مسجد فى مسيل بين جبلين ، يقال إنه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم .

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود إلى عرفات - جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها - وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهو إلى الشرق أميل .

ثم (باب المسفل) ، وهو إلى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه كان دخول خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، يوم الفتح .

ثم (باب الزاهر) ويعرف أيضا بباب العمرة ، وهو غربى ، وعليه طريق مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وطريق الشام وطريق جدة ، ومنه يتوجه إلى التنعيم ، وهو أقرب إليه على باب العمرة ، ولذلك أيضا يسمى هو بهذا الاسم .

والتنعيم من البلدة على فرسخ، وهو طريق حسن فسيح، فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة. وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل، تلقى مسجدا بإزائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة، يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم، يقال إنه الموضع الذى قعد فيه النبى ﷺ، مستريحا عند مجيئه من العمرة، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه — وحق ذلك لهم — ويستندون إليه لتنال أجسامهم بركة لمسه.

ثم بعد هذا الموضع، بمقدار غلوة، تلقى على قارعة الطريق، من جهة اليسار للمتوجه إلى العمرة، قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام، يقال انهما قبر أبى لهب وامرأته لعنهما الله، فمازال الناس فى القديم إلى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة، حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان، ثم تسير منها بمقدار ميل، وتلقى الزاهر، وهو مبتنى على جانبى الطريق يحتوى على دار وبساتين، والجميع ملك أحد المكيين.

وقد أحدث فى المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء، ومراكن مملوءة للوضوء وهى القصارى الصغار، وفى الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة، فيجد المعتمرون فيها مرفقا كبيرا للطهور والوضوء والشرب، فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب، وكثير من الناس المتاجرين من يعينه على ما هو بسبيله، وقيل أن له من ذلك فائدا كبيرا.

وعن جانبى الطريق فى هذا الموضع جبال أربعة: جبلان من هنا، وجبلان من هنا، عليها أعلام من الحجارة، وذكر لنا أنها الجبال المباركة التى جعل إبراهيم، عليه السلام، عليها أجزاء الطير ثم دعاهن — حسبما حكى الله عز وجل سؤاله إياه، جل وعلا، أن يريه كيف يحيى الموتى — وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها، وقيل إن التى جعل إبراهيم عليها الطير سبعة منها، والله أعلم.

وعند إجازتك الزاهر المذكور، تمر بالوادى، المعروف بذى طوى، الذى ذكر أن النبى، ﷺ، نزل فيه عند دخول مكة. وكان ابن عمر، رضى الله عنهما، يغتسل فيه وحينئذ يدخلها، وحوله آبار تعرف بالشبيكة، وفيه مسجد يقال إنه مسجد إبراهيم عليه السلام. فتأمل بركة هذا الطريق، ومجموع الآيات التى فيه، والآبار المقدسة التى اكتنفته.

وتجيز الوادى إلى مضيق تخرج منه إلى الأعلام التى وضعت حجزا بين الحل والحرم، فما داخلها إلى مكة حرم، وما خارجها حل، وهى كالأبراج مصفوفة كبار وصغار واحد بإزاء آخر على مقربة منه، تأخذ من أعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق فى التوجه إلى العمرة، وتشق الطريق إلى أعلى الجبل عن يساره، ومنه ميقات المعتمرين، وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها. ومسجد عائشة، رضى الله عنها، خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين، وإليه يصل المالكيون، ومنه يحرمون. وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التى حول الأعلام المذكور وأمام مسجد عائشة، رضى الله عنها، مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه.

ومن عجيب ما عرض علينا بباب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة العظام، طوال كأنها مصاطب، صفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة، ذكر لنا أنها الأصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها — وكبيرها هبل بينها — قد كتب على وجوهها تطأها الأقدام، وتمتهنها بأنعلتها العوام، ولم تغن عن أنفسها — فضلا عن عابديها — شيئا، فسبحان المنفرد بالوحدانية، لا إله سواه. والصحيح فى أمر تلك الحجارة أن النبى، ﷺ، أمر يوم فتح مكة بكسر الأصنام وأحراقها، وهذا الذى نقل إلينا غير

صحيح، وإنما تلك التى على الباب حجارة منقولة، وعنيت القوم بتشبيهها إلى الأصنام لعظمها.

ومن جبال مكة المشهورة — بعد جبل أبى قبيس – «جبل حراء»، وهو فى الشرق، على مقدار فرسخ أو نحوه، مشرف على منى، وهو مرتفع فى الهواء عالى القنة. وهو جبل مبارك، كان النبى ﷺ، كثيرا ما ينتابه ويتعبد فيه، واهتز تحته فقال له النبى ﷺ: «ولكن حراء، فما عليك إلا نبى وصديق شهيد»[1]، كان معه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ويروى «أنت فما عليك إلا نبى صديق وشهيدان»[2] وكان عثمان رضى الله عنه معهم. وأول آية نزل من القرآن على النبى، ﷺ، نزلت فى الجبل المذكور، وهو آخذ من الغرب إلى الشمال، ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون التى تقدم ذكرها.

وسور مكة إنما كان من جهة المعلى — وهو مدخل إلى البلد، ومن جهة المسفل وهو مدخل أيضا إليه، ومن جهة باب العمرة، وسائر الجوانب — جبال لا يحتاج معها إلى سور، وسورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقية وأبوابه القائمة.

## ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة

مكة، شرفها الله، كلها مشهد كريم. كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، وأنها حرم الله وأمنه، وكفاها أنها منشأ النبى، ﷺ، الذى آثره الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم. فهى مبدأ نزول الوحى والتنزيل، وأول مهبط (الروح) الأمين جبريل، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين، وهى أيضا مسقط رءوس جماعة من الصحابة القرشيين، المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين، ونجوما للمهتدين.

فمن مشاهدها التى عايناها قبة الوحى، وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها، وبها كان ابتناء النبى ﷺ بها، وقبة صغيرة أيضا فى الدار المذكورة، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وفيها أيضا ولدت سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضى الله عنهما. وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة، قد بنيت بناء يليق بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبى ﷺ، والتربة الطاهرة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر، بنى عليه مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به. والموضع

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى

المقدس الذى سقط فيه ﷺ ساعة الولادة السعيدة المباركة، التى جعلها الله رحمة للأمة أجمعين، محفوف بالفضة. فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام، ومولد خير الأنام صلى الله عليه وعلى آلة وأصحابه الكرام وسلم تسليما.

يفتح هذا الموضع المبارك، فيدخله الناس كافة متبركين به، فى شهر ربيع الأول ويوم الأثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبى ﷺ، وفى اليوم المذكور ولد ﷺ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهور بمكة دائما.

ومن مشاهدها الكرمية أيضا دار الخيزران، وهى الدار التى كان النبى ﷺ يعبد الله فيها سرا، مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضى الله عنهم، حتى نشر الله الإسلام منها على يدى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكفى بهذه الفضيلة.

ومن مشاهدها أيضا: دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهى اليوم دارسة الأثر، ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه، يقال أنه كان يسلم على النبى ﷺ متى اجتاز عليه. وذكر أنه جاء يوما، ﷺ، إلى دار أبى بكر رضى الله عنه، فنادى به — ولم يكن حاضرا — فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور، وقال: يا رسول الله ليس بحاضر. وكانت من احدى آياته المعجزات ﷺ.

ومن مشاهدها: قبة بين الصفا والمروة، تنسب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفى وسطها بئر يقال أنه كان يجلس فيها للحكم رضى الله عنه. والصحيح فى هذه القبة أنها قبة حفيده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، وبازاء داره المنسوبة إليه، وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة، كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين. ويقال أن البئر كانت فى القديم فيها، ولا بئر فيها الآن لأنا دخلناها فألفيناها مسطحة، وهى حفيلة الصنعة.

وكانت بمقربة من الدار التى نزلنا فيها دار جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، ذى الجناحين. وبجهة السفل — وهو آخر البلد — مسجد منسوب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه، يحف به بستان حسن، فيه النخيل والرمان وشجر العناب، وعاينا فيه شجر الحناء، وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب، يقال أنه كان مختبأ له رضى الله عنه من المشركين الطالبين له.

وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة، وفى الزقاق الذى الدار المكرمة فيه، مصطبة فيها متكأ يقصد الناس إليها، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبى ﷺ.

ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف «بأبى ثور»، وهو فى الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد وفيه الغار الذى أوى إليه النبى ﷺ مع صاحبه الصديق رضى الله عنه، حسبما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز. وقرأت فى كتاب «أخبار مكة» لأبى الوليد الأزرقى أن الجبل نادى النبى ﷺ، فقال: «إلى يا محمد، إلى يا محمد، فقد آويت قبلك نبيا».

وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات بينات: فمنها أنه، ﷺ دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع، فلما اطمأنا فيه، أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتا، والحمام فصنعت عليه عشا وفرخت، فانتهى المشرفون إليه بدليل قصاص للأثر، مستاف أخلاق الطريق، فوقف لهم على الغار وقال: ههنا انقطع الأثر، فأما صعد بصاحبكم من ههنا إلى السماء أ وغيض به فى الأرض. ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار، والحمام مفرخة فيه، فقالوا: ما دخل هنا أحد. فأخذوا فى الانصراف.

فقال الصديق رضى الله عنه: يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «ولو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك». وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر من الغار — ولم يكن فيه شق — فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل، وهو سبحانه قدير على ما يشاء.

وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ويتجنبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز وجل فيه، ويرمون دخوله من الشق الذى دخل النبى — ﷺ — تبركات به. فيمتد المحاول لذلك على الأرض، ويبسط خده بازاء الشق، ويولج يديه ورأسه أولا، ثم يعالج ادخال سائر جسده: فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر، فينشب ويلاقى مشقة وصعوبة، حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه.

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب، ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح، وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذى لا يسع عليه، ويتمسك فيه ولا يلجه، ليس لرشدة[1]. جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكون. فبحسب المنتشب فيه، المتعدر ولوجه عليه، ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل، زائدا إلى ما يكابده بدنه من اللز فى ذلك المضيق، واشرافه منه على المنية توجعا وانقطاع نفس وبرح ألم. فالبعض من الناس يقولون فى مثل: «ليس يصعد جبل أبى ثور إلا ثور».

---

(١) بمعنى ابن زنى.

وعلى مقربة من هذا الغار، فى الجبل بعينه، عمود منقطع من الجبل قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار نصف القامة، وانبسط له فى أعلاه شبه الكف خارجا عن الذراع، كأنه القبة المبسوطة، بقدرة الله عز وجل، يستظل تحتها نحو العشرين رجلا، وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم.

ومما يجب أن يثبت ويؤثر، لبركة معاينته وفضل مشاهدته، أن فى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى — وهو التاسع من شتنر — أنشأ الله بحرية، فتشاءمت فانهلت عينا غديقة، كما قال رسول الله ﷺ، وذلك أثر صلاة العصر، ومع العشى من اليوم المذكور، فجاءت بمطر جود.

وتبادر الناس إلى الحجر، فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤوسهم أيديهم وأفواههم، مزدحمين عليه إزدحاما عظيما أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبا، ودعاؤهم قد علا، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء.

والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع وقلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به، وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك، ويخرج إليهن ويعصره فى أيدى البعض منهن، فتلقينه شربا ومسحا على الوجوه والأبدان.

وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب، وتمادى الناس — على تلك الحال من الازدحام — على تلقى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه، وربما رفعوا الأوانى ليقع فيها، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالحرمة ثقة بفضله وكرمه، ولما اقترن بها من القرائن المباركة.

فمنها أنها كانت عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر، وقد وقف الناس تحت الميزاب، وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق الذى هو حيال البيت المعمور، وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب، واختص من رحمة الله تعالى بذنوب، ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين، أنه غفور رحيم.

وذكروا أن الإمام أبا حامد الغزالى دعا الله عز وجل بدعوات، وهو فى حرمه الكريم، فى رغبات رفعها إلى الله جل وتعالى، فأعطى بعضا ومنع بعضا، وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة، وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب، ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة، فمنع ذلك وأجيب دعائه فى سائر ما سأله، فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا. ولعل عبدا من عباده الصالحين، الوافدين على بيته الكريم، خصه الله بهذه الكرامة، فدخلنا جميع المذنبين فى شفاعته. والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده، ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه، إنه منعم كبير.

## ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكيا عن خليله ﷺ: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2].

فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كل مكان، فهى أكثر البلاد نعما و فواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها فى يوم واحد - فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط - ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية.

كل ذلك فى ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها - مع طول الأيام - من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلا وهى موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لاخفاء بها، وآية من آياتها التى خصها الله بها.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٢) سورة القصص الآية ٥٧

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغص بالنعم والفواكه: كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار، إلى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة.

وأكثر هذه البقول - كالباذنجان والقثاء والبطيخ - لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود فى سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك، فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك اياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب، أو بجنى النحل اللباب، ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أنه فى الوصف بعض غلو، كلا - لعمر الله - أنه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت.

وبها عسل أطيب من الماذى المضروب به المثل، يعرف عندهم بالمسعودى، وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبا ولذاذة. ويجلب إليها قوم من اليمن - يعرفون بالسرو - نوعا من الزبيب الأسود والأحمر فى نهاية الطيب: ويجلبون معه من اللوز كثيرا. وبها قصب السكر أيضا كثير، يجلب من حيث تجلب البقول التى ذكرناها، والسكر بها كثير مجلوب، وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله.

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر العقود على صفات شتى، أنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة، وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها، لا بمصر ولا بسواها، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت فى منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيد الأبصار، وتستنزل الدرهم والدينار.

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب. قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق، وضرب نواحى الأقطار، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا، وما ذاك - والله أعلم -

إلا لبركة مراعيها، هذا على افراط سمنه، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى السمن للفظته الأفواه ودكا، ولعافته وتجنبته، والأمر فى هذا بالضد، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا، فتجده هنيئا رخصا يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما.

وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه، والخبر عنه يضيق عن الخبر له. والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق بلدته الحرام، وتمنى هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام، بعزته وقدرته.

وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف - وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة - ومن قرى حولها. وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم.. هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا، وهو من بطن الطائف، ويحتوى على قرى كثيرة، ومن بطن مر، وهو على مسيرة يوم أو أقل، ومن نخلة وهى على مثل هذه المسافة، ومن أودية بقرب من البلد - كعين سليمان وسواها - قد جلب الله إليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات، وذلك بفضل الله عز وجل، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين.

ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله، وأجرينا الحديث باستطابته - ولاسيما لكوننا لم نعهده - الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره يجنى ويؤكل، وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به، وابانه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، ثم بعد ذلك، عند تناهى نضجه، يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع.

ومن صنع الله الجميل لنا، وفضله العميم علينا، أنا وصلنا إلى هذه البلدة الكرمة، فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين، ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها، يتحدث على جهة العجب بأمنها من الخرابة المتلصصين فيها على الحاج، المختلسين ما بأيديهم، والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين، إلا اختلس من يديه أو من وسطه، بحيل عجيبة ولطاقة غريبة، فما منهم إلا أحذ يد القميص فكفى الله فى هذا العام شرهم إلا القليل، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم، فتوقف شرهم، وبطيب هوائها فى هذا العام، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها، وانكسار حدة سمومها، وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه. وذلك أمر مستغرب بمكة.

وكانوا أيضا يتحدثون بكثرة نعمها فى هذا العام، ولين سعرها، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى - وهى أوبتان من كيل مصر وجهاتها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربى - وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه، ولا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه، سعر لاخفاء بيمنه وبركته، على كثرة المجاورين فيها فى هذا العام، وانجلاب الناس إليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين، الذين لهم بها سنون طائلة، أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط، ولا سمع بمثله فيها، والله يجعله جمعا مرحوما معصوما بمنه.

وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها فى هذه السنة، وتمييزها عما سلف من السنين، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها. وهذا الماء المبارك فى أمره عجب، وذلك أنك تشربه عن خروجه من قراراته، فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية، وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف، وهو لما شرب له، كما قال ﷺ: «أروى الله منه كل ظامئ إليه بعزته وكرمه».

ومن الأمور المجربة فى هذا الماء المبارك، أن الإنسان ربما وجد من الإعياء وفتور الأعضاء، أما من كثرة الطواف أو من عمرة يعتمرها على قدميه، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، فيصب من ذلك الماء على بدنه، فيجد الراحة والنشاط لحينه، ويذهب عنه ما كان أصابه.

## شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء - وهو الحادى والعشرون من شهر شتنبر العجمى - ونحن بالحرم المقدس، زاده الله تعظيما وتشريفا. وفى صبيحة الليلة المذكورة، وافى الأمير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول، وعلى ذلك الرسم بعينه، والزمزمى المغرد بثنائه والدعاء له فوق قبة زمزم يرفع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير، والقراء أمامه، إلى أن فرغ من طوافه، وأخذ فى طريق انصرافه.

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضا، ويتغافرون، ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم فى الأعياد، هكذا دائما. وتلك طريقة من الخير واقعة فى النفوس، تجدد الأخلاص، وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا، وبركة ما يتهادونه من الدعاء. والجماعة رحمة، ودعاؤهم من الله بمكان.

## جمال الدين وأثاره السنية

ولهذه البلدة المباركة حمامان: أحدهما ينسب للفقيه الميانشى أحد الأشياخ المحلقين بالحرم المكرم، والثانى - وهو الأكبر - ينسب لجمال الدين. وكان هذا الرجل، كصفته جمال الدين، له رحمه الله بمكة والمدينة - شرفهما الله - من الآثار الكريمة، والصنائع الحميدة، والمصانع المبنية فى ذات الله المشيدة، ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان، ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء.

وكان - رحمه الله - وزير صاحب الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنية، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين فى حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، أكثر من خمس عشرة سنة، لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى فى بناء رباع بمكة، مسبلة فى طريق الخير والبر مؤبدة محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر، إلى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين.

وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات، وقاطع عليه العرب بنى شعبة، سكان تلك النواحى المجلوب منها الماء، بوظيفة من المال كبيرة، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج. فلما توفى الرجل — رحمة الله عليه — عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه. ومن مفاخره ومناقبه أيضا، أنه جعل مدينة الرسول، ﷺ، تحت سورين عتيقين، أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة.

ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه، أنه جدد أبواب الحرم كلها، وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة — وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم وصفه- وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز — وقد تقدم ذكره أيضا — فأخذ الباب القديم، وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك، ويحج به ميتا.

فسيق إلى عرفات، ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت، فلما أفاض الناس أفيض به، وقضيت له المناسك كلها، وطيف به طواف الافاضة — وكان الرجل رحمه الله لم يحج فى حياته — ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ - وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمناه ذكره — وكاد أشرافها يحملونه رؤوسهم.

وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى ﷺ، وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأبيح له ذلك — على شدة الضنانة بمثله — لسابق أفعاله الكريمة، ودفن فى تلك

الروضة، وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة فى تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجر المحسنين. وسنذكر تاريخ وفاته إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته، إن شاء الله عز وجل، وهو ولى التيسير لا رب غيره.

ولهذا الرجل — رحمه الله — من الآثار السنية، والمفاخر العلية، التى لم يسبقه إليها أكابر الأجواد وسراة الأمجاد، فيما سلف من الزمان، ما يفوت الإحصاء، ويستغرق الثناء، ويستصحب طول الأيام من الألسنة بالدعاء. وحسبك أنه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق، من العراق إلى الشام إلى الحجاز حسبما نذكره؛ واستنبط المياه، وبنى الجباب، واختط المنازل فى المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم، وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت لهم، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن، فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق.

وكان مدة حياته بالموصل، على ما اخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك، قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الأرجاء، يدعو إليها كل يوم الجفلى من الغرباء، فيعمهم شبعا وريا، ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا هنيئا، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله. فبقيت آثاره مخلدة، وأخباره بألسنة الذكر مجددة، وقضى حميدا سعيدا. والذكر الجميل للسعداء حياة باقية، ومدى من العمر ثانية، والله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده، فهو أكرم الكرماء، وأكفل الكفلاء.

## الأمور المحظورة فى الحرام

ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف - زاده الله تعظيما وتكريما - أن النفقة فيه ممنوعة، لا يجد المتأجر من ذوى اليسار إليها سبيلا، فى تجديد بناء، أو إقامة حطيم، أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك. ولو كان الأمر مباحا فى ذلك، لجعل الراغبون فى نفقات البر، من أهل الجدة، حيطانه عسجدا وترابه عنبرا، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك.

فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره، أو اقامة رسم كريم من رسومه، أخذ إذن الخليفة فى ذلك، فإن كان مما ينقش أمره بعمله، ولم يذكر اسم المتولى لذلك.

ولابد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد، وبما يوازى قدر المنفوق فيه، فتتضاعف المؤنة على صاحبه، وحينئذ يصل إلى غرضه من ذلك.

ومن أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم،ذوى الملك والثراء، أنه وصل إلى الحرم الكريم، مدة جد هذا الأمير مكثر، فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها، فاجتمع بالأمير وقال: أريد أن أتأنق فى بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته، وأبلغ فى ذلك الغاية الممكنة، وأنفق فيه من صميم مالى، ولك على فى ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك، فإذا استوفى البناء التمام، وانتهت النفقة منتهاها، وتحصلت محصاة، بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لى ذلك.

فأهتز الأمير طمعا، وعلم أن النفقة فى ذلك تنتهى إلى آلاف من الدنانير على الصفة التى وصفها له، فأباح له ذلك، وألزمه مقيدا يحصى قليل الانفاق وكثيره. وشرع الرجل فى بنائه، واحتفل، واستفرغ الوسع، وتأنق وبذل المجهود - فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضا حسنا - والمقيد يسود طوامير بالتقييد، والأمير يتطلع إلى ما لديه، ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه، إلى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم وقبته.

فلما لم يبق إلا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب، ويستقضى منه العدد المجتمع فيها، خلا منه المكان وأصبح فى خبر كان، وركب الليل حملا، وأصبح الأمير يقلب كفيه، ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث فى بناء وضع فى حرام الله تعالى حادثا يحيله، أو نقضا يزيله. وفاز الرجل بثوابه، وتكفل الله به فى انقلابه، وتحسين مآبه ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1]. وبقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجبا، ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك.

## شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس، الموفى عشرين لشهر أكتوبر، بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والأشراف أهل مكة، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقان وجبل أبى قبيس، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضى، وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد.

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٩.

وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، وهو اكبر أعبادهم، ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا، بتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك إلى الجاهلية، لأنهم كانوا يسمونه منصل الأسنة، وهو أحد الأشهر الحرم، وكانوا يحرمون القتال فيه، وهو شهر الله الأصم كما جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ.

## العمرة الرجبية

والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله، ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهل ذكره غرابة وعجبا، شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه. والمقصود منه الليلة التى يستهل فيها الهلال مع صبيحتها، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار.

وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء — وهى العشية التى ارتقب فيها الهلال — قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل، مكسوة بأنواع كساء الحرير، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة، بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا فى الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج فى أباطح مكة وشعابها، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره. وربما فاضت الأستار التى على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض.

ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر، فان أذيال ستره كانت تسحب على الأرض انسحابا، وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده، إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء، فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق.

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها، ومن المجاورين. وكنا فى جملة من خرج—ابتغاء بركة الليلة العظيمة — فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام، وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد أشعلت بحافتى الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدى الابل التى عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة.

فلما قضينا العمرة وطفنا، وجئنا للسعى بين الصفا والمروة— وقد مضى هدء من الليل — أبصرناه كله سرجا ونيرانا، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن، فكنا

لا نتخلص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل، لكثرة الزحام، واصطكاك الهوادج بعضها على بعض.

فعاينا ليلة هى أغرب ليالى فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به ولا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة، لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين، داعين إلى الله عز وجل ضارعين، والجبال المكرمة التى بحافتى الطريق تجيبهم بصداها، حتى سكت المسامع، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع، وذابت القلوب الخواشع. وفى تلك الليلة ملىء المسجد الحرام كله سرجا، فتلألأ نورا، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير، أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات أشعارا بأنها ليلة الموسم.

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس، خرج إلى العمرة فى احتفال لم يسمع بمثله، انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة، شاكين فى الأسلحة فرسانا ورجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة، يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجبا، فكيف وهم من بلد واحد. وهذا أدل الدلائل على بركة البلد.

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب: فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواثبون ويتثاقفون بالأسلحة فى أيديهم حرابا وسيوفا وحجفا، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف، والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها، وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب. وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء، ويبادرون إليها لقفا بأيديهم، وهى قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم، وهم فى زحام لا يمكن فيه المجال، وربما رمى بعضهم بالسيوف فى الهواء، فيتلقونها قبضا على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم.

إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناؤه أمامه وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامه، والطبول والدبادب بين يديه، والسكينة تفيض عليه، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين.

فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه، أخذ فىَ الرجوع، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول، وقد ركب جملة من أعراب البوادى نجبا صهبا لم ير أجمل منظرا منها، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدى الأمير، رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه، إلى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمى يغرد فى سطح قبة زمزم رافعا عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة.

فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه — وقد أخرج له من الكعبة، ووضع فى قبته الخشبية التى يصلى خلفها — فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام، فاستلمه وتمسح به، ثم أعيدت القبة عليه، وأخذ فى الخروج على باب الصفا إلى المسعى، وانجفل بين يديه، فسعى راكبا والقواد مطيفون به، والرجالة الحرابة أمامه. فلما فرغ من السعى استلت السيوف أمامه، وأحدقت الأشياع به، وتوجه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحوفا به، وبقى المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات.

فلما كان اليوم الثانى — وهو يوم الجمعة — كان طريق العمرة فى العمارة قريبا من امسه، راكبين وماشين رجالا ونساء، والنساء الماشيات المتأجرات كثير يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة، تقبيل الله من جميعهم بمنه. وفى أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضا فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم، والنساء كذلك، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد.

وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يعبأون وله يحتفلون، وفى المباهاة فيه يتنافسون، وله يعظمون، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم، يقدمون النظر فى ذلك والاستعداد له بأشهر.

## السر والمائرون

ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه، اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الأمين، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو — وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة، كأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرنى به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبى الصيف، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم، وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها — يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام، فيجمعون بين النية فى العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة، كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز. فتجمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة، ويصلون فى آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه: يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار وتعم المرافق، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى، ولولا هذه الميرة كان أهل مكة فى شظف من العيش.

ومن العجب فى أمر هؤلاء المائرين، أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم، أنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك، مع الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب، ويبايعونهم به ويشارونهم.

ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب، ويقع الموتان فى مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم بها تخصب بلادهم، وتقع البركة فى أموالهم، فمتى قرب الوقت، ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهب للخروج، اجتمع نساؤهم فأخرجنهم، وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين.

وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة، كثيرة التين والعنب، واسعة المحرث، وافرة الغلات. وقد اعتقدوا اعتقادا صحيحا أن البركة كلها فى هذه الميرة التى يجلبونها، فهم من ذلك فى تجارة رابحة مع الله عز وجل.

والقوم عرب صرحاء فصحاء، جفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السر المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية. فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، فهم اذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأمم المشفقة، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها، وانكبابهم عليها. وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب، وتتفحر لها الأعين الجوامد فتصوب، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، متلقنين لها من ألسنتهم.

على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر، وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون، كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضا، وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه. فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى إلى الضحك.

وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع، وينقرون بالسجود نقرا، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا، وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع، ثم يسلمون،

أو يقومون دون تسليم لا جلوس للتشهد. وربما تكلموا فى أثناء ذلك، ربما للتشهد. وربما تكلموا فى أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه، وصاح به ووصاه بما شاء، ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة، ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها.

وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم، فمتى رحلوا إلى الزيادة هاب أعراب الطريق، المسكون للحاج، مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، وخلوا لهم عن الطريق، ويصحبهم الحجاج الزائرون، فيحمدون صحبتهم. وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للايمان صحيح.

وذكر أن النبى ﷺ ذكرهم، واثنى عليهم خيرا، وقال: «علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء»[1]، وكفى بأن دخلوا فى عموم قوله ﷺ «الإيمان يمان»[2] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن وأهله. وذكر أن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، كان يحترم وقت طوافهم، ويتحرى الدخول فى جملتهم تبركا بأدعيتهم، فشأنهم عجيب كله.

وشاهدنا منهم صبيا فى الحجر، قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص، فكان يقول له: ﴿قل هو الله أحد﴾، فيقول الصبى: الله أحد، فيعيد عليه المعلم، فيقول له: ألم تأمرنى بأن أقول هو الله أحد؟ قد قلت، فكابد فى تلقينه مشقة، وبعد لأى ما علقت بلسانه.

وكان يقول له: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، فيقول الصبى: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله، فيعيد عليه المعلم، ويقول: لا تقل والحمد لله انما قل الحمد لله، فيقول الصبى: اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال، وإذا لم اقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله. فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعا بصلة الكلام وفصله دون تعلم، وأما فصاحتهم فبديعة جدا، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس، والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه.

## عود إلى العمرة

والعمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهارا، رجالا ونساء، لكن المجتمع كله إنما كان فى الليلة الأولى، وهى ليلة الموسم عندهم. والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذى والنسائى.

المبارك، فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفراد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له.

وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريبا من المشهد الأول المذكور فى أوله، فكان لا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها. وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها، ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز، وكذلك السابع والعشرون منه.

وفى عشى يوم الخميس المذكور كنا جلوسا بالحجر المكرم، فما راعنا إلا الأمير مكثر طالعا محرما، قد وصل من ميقات العمرة تبركا بذلك اليوم، وجريا فيه على الرسم، وأبناؤه وراءه محرمين، وقد حف به بعض خاصته، وبادر المؤذن الزمزمى للحين إلى سطح قبة زمزم داعيا على عادته، متناوبا فى ذلك مع أخيه صغيره، وحانت صلاة العشاء مع فراغ الأمير من طوافه، فصلى خلف الإمام الشافعى، وخرج إلى المسعى المبارك.

وفى يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج، فى نحو أربعمائه جمل مع الشريف الداودى، إلى زيارة الرسول ﷺ. وفى جمادى الثانية قبله كانت أيضا زيارة أخرى لبعض الحجاج فى قافلة أصغر من هذه المذكورة، وبقيت الزيارة الشوالية، والتى مع الحاج العراقى، أثر الوقفة أن شاء الله عز وجل. وفى التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف السلامة، والحمد لله.

## عمرة الأكمة

وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه — أعنى من رجب — ظهر لأهل مكة أيضا احتفال عظيم فى الخروج إلى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول، فانجفل الجميع إليها تلك الليلة رجالا ونساء على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر، تبركا بفضل هذه الليلة، لأنها من الليالى الشهيرة الفضل، فكانت مع صبيحتها عجبا فى الاحتفال وحسن المنظر، جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم. وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها، بمقدار غلوة، وهى على مقربة من المسجد المنسوب لعلى عليه السلام.

والأصل فى هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة، خرج ماشيا حافيا معتمرا وأهل مكة معه فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها — وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب — وجعل طريقه على ثنية

الحجون المفضية إلى المعلى، التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة فى ذلك اليوم بعينه، وعلى تلك الأكمة بعينها.

وكان يوم عبد الله، رضى الله عنه، مذكورا مشهورا، لأنه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عددا لم تتحصل صحته فكنت أثبته، لكنه بالجملة كثير. ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها إلا من أهدى، وأقام أهلها أياما يطعمون ويطعمون ويتنعمون وينعمون، شكرا لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير فى بناء بيته الحرام، على الصفة التى كان عليها مدة الخليل إبراهيم صلى الله عليه وسلم. فنقضها الحجاج — نعنه الله — وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش، لأنهم كانوا اقتصروا فى بنائه عن قواعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأبقى نبينا محمد ﷺ ذلك على حاله، لحدثان عهدهم بالكفر، حسب ما ثبت فى رواية رضى اله عنها فى «موطأ» مالك بن أنس رضى الله عنه.

## يوم طواف النساء

وفى اليوم التاسع والعشرين منه — وهو يوم الخميس — أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة، ولم تبق امراة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم. فلما وصل الشيبيون لفتح (البيت) الكريم على العادة، أسرعوا فى الخروج منه، وأفرجوا للنساء عنه، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال.

وتبادر النساء إلى الصعود حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم، وتسلسل النساء بعضهن ببعض، وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمنيين مدة مقامهم بمكة، وصعودهم يوم فتح البيت المقدس، وأشبهت الحال الحال، وتمادين على ذلك صدرا من النهار، وانفسحن فى الطواف والحجر، وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان، وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر ويومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به، وجعله خالصا لكريم وجهه.

وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات، يرين البيت الكريم ولا يلجنه، ويلحظن الحجر المبارك، ولا يستلمنه، فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير المستشعر، فليس لهن سوى الطواف على البعد. وهذا اليوم الذى هو من عام إلى عام فهن

يرتقبنه ارتقاب أشرف الأعياد، ويكثرن له من التأهب والاستعداد، والله ينفعهن فى ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه.

## غسل البيت بماء زمزم

وفى اليوم الثانى منه بكر الشيبيون إلى غسله بماء زمزم المبارك، بسبب أن كثيرا من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن، فيتحرى غسله تكريما وتنزيها، وإزالة لما يحيك فى النفوس من هواجس الظنون، فيمن ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نجس فى ذلك الموطن الكريم، والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم.

فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه، تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه، وربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك، ولم يراعوا العلة التى غسل لها، وكان منهم من توقف عن ذلك، وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها، ولا يصوب العقل فى ذلك.

وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام. وماج فى جنبات أركانه الكرام ، ثم بازاء الملتزم والركن الأسود المستلم. أليس جديرا بأن تتلقاه الأفواه فضلا عن الأيدى ، وتغمس فيه الوجوه فضلا عن الأقدام؟ وحاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه ، أو شبهة من شبهات الظنون تدفع عنه ، والنيات عند الله تعالى مقبولة ، والمثابرة على تعظيم حرماته برضاه موصوله ، وهو المجازى على الضمائر وخفيات السرائر ، لا إله سواه.

## شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

استهل هلال ليلة السبت التاسع عشر لشهر نوفمبر. وفى صبيحته بكر الأمير مكنر إلى الطواف، على العادة فى ذلك رأس كل شهر، مع أخيه وبنيه، ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والأشياع والأتباع، وعلى الأسلوب المتقدم الذكر، والزمزمى يصرخ فى مرقبته على عادته، متناوبا مع أخيه صغيره.

وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر منه - وهو أول يوم من دجنبر - بعد طلوع الفجر كسف القمر، وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف، رعاب مكسوفا، وانتهى الكسوف إلى ثلثيه، والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته.

# زيادة ماء زمزم

وفى يوم الجمعة، الثانى من ذلك اليوم، أصبح بالحرم أمر عجيب، وذلك أنه لم يبق بمكة صبى إلا وصبحه، واجتمعوا كلهم فى قبة زمزم، وينادون بلسان واحد. هللوا وكبروا يا عباد الله، فيهلل الناس ويكبرون، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم، والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة، لأنهم يزعمون - بل يقطعون (قطعا) جهليا لا قطعا عقليا - أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان، وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل أنه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن.

فبكر الناس إلى القبة، وكان فيها من الازدحام ما لم يعهد مثله، ومقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذى قد ظهر فيضه ، والسقاة فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء قذفا : فمنهم من يصبه فى وجهه ، ومنهم من يصيبه فى رأسه إلى غير ذلك ، وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم .

والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء ، والصبيان يضجون بالتهليل والتكبير . فكان مرأى هائلا مسموعا رائعا ، لم يتخلص للطائفين بسنه طواف ، ولا للمصلين صلاة ، لعلو تلك الأصوات ، واشتغال الأسماع والأذهان بها .

ودخل إلى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم ، فكان من لزم الزحام عنتا ومشقة ، فسمع الناس يقولون : زاد الماء سبع أذرع ، فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوى السبال البيض ، فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل : نعم زاد الماء سبع أذرع لاشك فى ذلك ، فيقول : أعن خبرة وحقيقة؟ فيقول نعم . ومن العجيب أن كان منهم من قال : انه بكر سحر يوم الجمعة المذكور، فألقى الماء قد قارب التنور بنحو القامة ، فيا عجبا لهذا الاختراع الكاذب نعوذ بالله من الفتنة .

وكان من الاتفاق أن اعتنيتنا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التى جمعناها فى ذلك ، واستمرارها من سوالف الأزمة عند عوام أهل مكة ، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه فى البئر المباركة إلي أن ضرب فى صفح الماء ، وانتهى الحبل إلي حافة التنور ، عقد فيه عقدا يصح عندنا القياس به فى ذلك .

فلما كان فى صبيحتها ، وتناى الناس بالزيادة ، الزيادة الظاهرة ، خلص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبة ، ومعه من استصعب الدلو وأدلاه ، فوجد القياس على حافه لم

ينقص ولم يزد ، بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت ، فألفاه قد نقص يسيرا لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم ، فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه ، فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من البركة ، ووضع فيه من المنفعة

وفى صبيحة يوم السبت ،الخامس عشر منه ، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال ، فوجدناه على ما كان عليه . ولو أن لافظا يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد لصب فى البئر صبا ، أو لداسته الأقدام حتى تذيبه . نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها ، وركوبها جوامح أهوائها .

## ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة المباركة – أعنى ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة – معظمة للأثر الكريم الوارد فيها ، فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفرادا وجماعة ، فينقسمون فى ذلك أقساما مباركة .

فشاهدنا ليلة السبت – التى هى ليلة النصف حقيقة – احتفالا عظيما فى الحرم المقدس أثر صلاة العتمة، جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرءون فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله أحد، عشر مرات فى كل ركعة ، إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة .

قد قدمت كل جماعة إماما ، وبسطت الحصر ، وأوقدت الشمع ، وأشعلت المشاعل ، وأسرجت المصابيح ، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاض نوره على الأرض وبسط شعاعه ، فتلاقت الأنوار فى ذلك الحرم الشريف الذى هو نور بذاته ، فيا لك مرأى لا يتخيله المتخيل ، ولا يتوهمه المتوهم

فأقام الناس تلك الليلة على أقسام: فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة – وكانت سبع جماعات أو ثمانيا – وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد ، وطائفة خرجت للأعتمار ، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله ، أغلبها المالكية . فكانت من الليالى الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات ومحاسنها ، نفع الله بها ، ولا أخلى من بركتها وفضلها ، وأوصل إلى هذه المثابة المقدسة كل شيق إليها بمنه

وفى تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا أمرا عجبا هو من غرائب الأحاديث المأثورات فى رقة النفوس ، وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباقى من الليل ، فأوى إلى المصطبة التى تحف بها قبة زمزم ، مما يقابل الحجر الأسود وباب البيت ، فاستلقى

فيها لينام ، فاذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بازائه مما يلى رأسه ، فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ، ويتبع ذلك بزفير وشهيق ، أحسن قراءة وأوقعها فى النفوس ، وأشدها تحريكا للساكن ، فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع ، وما فيه من التشويق والتخشيع ، إلى أن قطع القراءة وجعل يقول :

**إن كان سوء الفعال أبعدنى  فحسن ظنى إليك قربنى**

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد ، وينشق عليه الفؤاد ، ومضى فى ترديد ذلك البيت - ودموعه تكف ، وصوته ترق وتضعف - إلى أن وقع فى نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه ، فما كان بين اعتراض هذا الخاطر فى نفسه ، وبين وقوع الرجل مغشيا عليه من المصطبة إلى الأرض الا كلا ولا ، وبقى ملقى كأنه لقى لا حراك به. فقام ابن حسان مذعورا لهول ما عاينه ، مترددا فى حياة الرجل أو موته ، لشدة تلك الوجة والموضع من الأرض بائن الارتفاع . وقام أحد من كان بارائه نائما ، وأقاما متحيرين ، ولم يقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه . إلى أن احتازت امرأة أعجمية وقالت : هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال وادرت إلى شىء من ماء زمزم فنضحت به وجهه ، ودنا المذكوران منه وأقاماه ، فعندنا أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما ، مخافة أن تثبت له صفة فى أعينهما ، وقام من فوره آخذا إلى جهة باب بنى شيبة . وبقيا متعجبين مما شاهداه ، وعض ابن حسان بنان الأسف على ما فاته من بركة دعائه ، اذ لم يمكنه الحال استدعاءه منه ، وعلى أنه لم تثبت له صورة فى نفسه ، فكان يتبرك به متى لقيه . ومقامات هؤلاء الأعاجم فى رقة الأنفس وتأثرها ، وسرعة انفعالها ، وشدة مجاهداتها فى العبادات ، وطول مثابرتها على أفعال البر ، وظهور بركاتها ، مقامات عجيبة شريفة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وفى سحر يوم الخميس ، الثالث عشر من الشهر المذكور ، كسف القمر ، وانتهى الكسوف منه إلى مقدار ثلثيه ، وغاب مكسوفا عند طلوع الشمس ، والله يلهمنا الاعتبار بآياته .

## شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر - عرفنا الله فضله وحقه ، ورزقنا القبول فيه - وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح ، لكن أمضى الأمير ذلك ، ووقع الإيذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور ، لموافقته

مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن اليهم ، لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضا حسبما يذكر ، والله أعلم بذلك .

ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك ، وحق ذلك من تجديد الحصر،وتكثير الشمع والمشاعيل ، وغير ذلك من الآلات ، حتى تلألأ الحرم نورا ، وسطع ضياه ، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقا:

فالشافعية ، فوق كل فرقة منها ، قد نصبت إماما لها في ناحية من نواحي المسجد ، والحنبلية كذلك ، والحنفية كذلك والزيدية .

وأما المالكية ، فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة ، وهي في هذا العام أحفل جمعا ، أكثر شمعا ، لأن قوما من التجار المالكين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعا كثيرا ، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار ، وقد حفت بهما شمع دونهما ضغار وكبار ، فجاءت جهة المالكية تروق حسنا ، وترتمي الأبصار نورا .

وكاد لا يبقى في المسجد زاوية ، ولا ناحية ، إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القرأة من كل ناحية ، فتعاين الأبصار ، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعا تنخلع له النفوس خشية ورقة .

ومن الغرباء من إقتصر على الطواف والصلاة في الحجر ، ولم يحضر التراويح ، ورأى أن ذلك أفضل ما يغتنم ، أشرف عمل يلتزم ، وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم .

والشافعي في التراويح أكثر الأئمة إجتهادا ، وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات ، ويدخل الطواف مع الجماعة ، فإذا فرغ من الأسبوع وركع ، عاد لاقامة تراويح أخرى ، وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة يسمعها المسجد لعلو صوتها ، كأنها إيذان بالعود الى الصلاة ، فإذا فرغوا من تسليمتين ، عادوا لطواف أسبوع ، فإذا أكملوه ضربت الفرقعة ، وعادوا لصلاة تسليمتين ، ثم عادوا للطواف هكذا إلى أن فرغوا من عشر تسليمات ، فيكمل لهم عشرون ركعة ، ثم يصلون الشفع والوتر ، وينصرفون . وسائر الأئمة لا يريدون على العادة شيئا .

والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة : أولهم إمام الفريضة ، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبوجعفر بن (علي) الفنكي القرطبي ، وقراءته ترق الجمادات خشوعا .

وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل فى هذا الشهر المبارك ، وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات ، عند الفراغ من أذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة ، وهى لا محالة من حملة البدع المحدثة فى هذا المسجد المعظم ، قدسه الله ،

والمؤذن الزمزمى يتولى التسحير فى الصومعة التى فى الركن الشرقى من المسجد ، بسبب قربها من دار الأرقم ، فيقوم فى وقت السحور فيها داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، ومعه أخوان صغيران يحاورانه ويقاولاته ، وقد نصبت فى أعلى الصومعة خشبة طويلة فى رأسها عود كالذراع ، وفى طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحر ، فإذا قرب تبيين خيطى الفجر ، خط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة ، وبدأ بالأذان ، وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان . وفى ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسحير ، ممن يبعد مسكنه من المسجد ، يبصر القنديلين يقدان فى أعلى الصومعة ، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع .

## سيف الإسلام

وفى ليلة الثلاثاء الثانى من الشهر مع العشى طاف الأمير مكثر بالبيت مودعا ، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين ، وقد تقدم الخبر بورود من مصر منذ مدة ، ثم تواتر إلى أن صح وصوله إلى الينبوع ، أنه عرج إلى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقدمت أثقاله إلى الصفراء ، والمتحدث به فى وجهته قصد اليمن لإختلاف وقع فيها ، وفتنة حدثت من أمرائها ، لكن وقع فى نفوس المكبين هذا الأمر المذكور متلقيا مسلما ، وفى الحقيقة مستسلما ، والله تعالى يعرف المسلمين أخيرا.

وفى ضحوة يوم الأربعاء . الثالث من الشهر المبارك المذكور، كنا جلوسا بالحجر المكرم ، فسمعنا دبادب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه . فبينا نحن كذلك دخل منصرفا من لقاء الأمير سيف الإسلام المذكور ، وطائفا بالبيت المكرم طواف التسليم، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته ، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام الزاهر وضرب أبنيته فيه، ومقدمته من العسكر قد وصلت إلى المحرم، وزاحمت الأمير مكثرا فى الطواف.

فبينا الناس ينظرون إليهم إذ سمعوا ضوضاء عظيمة، وزعقات هائلة، فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلا من باب بنى شيبة، ولمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين

الأبصار وبينه، والقاضى عن يمينه، وزعيم الشيبيين عن يساره، والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان، والمؤذن الزمزمى فى مرقبته رافعا عقيرته بالدعاء له والثناء عليه، وأصوات الناس تعلو على صوته، والهول قد عظم مرأى ومستمعا.

فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف، وتضاءلت النفوس، وخلعت ملابس العزة وذلت الأعناق، وخضعت الرقاب، وطاشت الألباب مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار، مؤتى الملك من يشاء، ونازع الملك ممن يشاء، سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه.

ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخضوع، وبلت سبالهم الدموع، وطاف القاضى وزعيم الشيبيين بسيف الإسلام والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام، فأسرع فى الفراغ من الطواف، وبادر إلى منزله.

وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها، ثم خرج على باب الصفا إلى السعى، فابتدأه ماشيا على قدميه تواضعا وتذللا لمن يجب التواضع له، والسيوف مصلوته أمامه، وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضا فى الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، ومنها إلى الصفا، وهرول بين الميلين الأخضرين،ثم قيده الأعياء فركب وأكمل السعى راكبا، وقد حشر الناس ضحى، يعنى وقتا.

ثم عاد هذا الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الإرهاب والهيبة، وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة ، وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه - ولم يكن يوم فتحه - وضم الكرسى الذى يصعد عليه، فرقى الأمير فيه. وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب فإذا المفتاح قد سقط من كمه فى ذلك الزحام، فوقف وقفة دهش مذعور، ووقف الأمير على الأدراج، فيسر الله للحين فى وجود المفتاح، ففتح الباب الكريم، ودخل الأمير وحده مع الشيبى وأغلق الباب، وبقى وجوه الأغزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسى، فبعد لأى ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا.

وتمادى مقام سيف الإسلام فى البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج وانفتح الباب للكافة منهم، فياله من ازدحام وتراكم وانتظام، حتى صاروا كالعقد المستطيل، وقد اتصلوا وتسلسلوا، فكان يومهم أشبه شيء بأيام السرو فى دخولهم البيت - حسبما تقدم وصفه -

وركب الأمير سيف الإسلام، وخرج إلى مضرب أبنيته بالموضع المذكور. وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر، العجيبة المشهد، الغريبة الشأن، فسبحان من لا ينقضى ملكه، ولا يبيد سلطانه، لا إله سواه.

وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها، اغتناما لطريق البر والأمن، فوصلوا فى عافية وسلامة والحمد الله.

وفى ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم، فإذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الأذان، وارتجت لها نواحى الحرم الشريف. فبينا نحن نتطلع لاستعلام خبرها، طلع علينا الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله، وهو رافل فى حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كورها على رأسه، كأنها سحابة مركومة، وهى مصفحة بالذهب، وتحت الحلة خلعتان من الديبق المرسوم البديع الصنعة، خلعها عليه الأمير سيف الإسلام، فوصل بها فرحا جذلان، والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الإسلام، إشادة بتكرمته واعلاما بمأثره منزلته، فطاف بالبيت المكرم شكرا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير، بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه، والله يصلحه ويوفقه بمنه.

وفى يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة أول الوقت، وفتح البيت المكرم فدخله مع الأمير مكثر، وأقاما به مدة طويلة ثم خرجا، وتزاحم الغز للدخول تزاحما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسى الذى يصعد عليه فلم يغن عن ذلك شيئا، وأقاموا على الأزدحام فى الصعود باشالة بعضهم على بعض، ودأموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب، فخرجوا لاستماع الخطبة، وأغلق الباب، وصلى الأمير سيف الإسلام مع الأمير مكثر فى القبة العباسية، فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا، وركب إلى مضرب أبنيته.

وفى يوم الأربعاء العاشر منه، خرج الأمير المذكور بجنوده إلى اليمن، والله يعرف أهلها من المسلمين فى مقدمه خيرا بمنه.

## تراويح رمضان

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف فى قيامه وصلاة تراويحه، وكثرة الأئمة فيه. وكل وتر من الليالى العشر الأواخر يختم فيها القرآن. فأولها

ليلة احدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ، فلما فرغوا منها قام الصبى فيهم خطيبا، ثم استدعاهم أبو الصبى المذكور إلى منزله إلى طعام وحلوا قد أعدهما واحتفل فيهما.

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار، غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فأحتفل أبوه لهذه الليلة إحتفالا بديعا. وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد إليها شمعا كثيرا، ووضع فى وسط الحرم، مما يلى باب بنى شيبة، شبيه المحراب المربع من أعواد مشرجبة، قد أقيم على قوائم أربع، وربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل، وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل، وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع، فاستدار بالمحراب كله، وأوفدت الثريا المغصنة ذات الفواكه.

وأمعن الاحتفال فى هذا كله، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا ونساء، وهو فى محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به، ثم برز من محرابه رافلا فى أفخر ثيابه بهيبة أمامية، وسكينة غلامية، مكحل العينين، مخضوب الكفين إلى الزندين، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام، فأخذه أحد سدنة تلك الناحية فى ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره، فاستوى مبتسما، وأشار على الحاضرين مسلما.

وقعد بين يديه قراء، فابتدروا القراءة على لسان واحد، فلما أكملوا عشرا من القرآن قام الخطيب، فصدع بخطبة يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع، وبين يديه فى درجات المنبر نفر يمسكون أتوار الشمع فى أيديهم، ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة، يكررون ذلك، والقراء يبتدرون القراءة فى أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته.

وتمادى فيها متصرفا فى فنون من التذكير، وفى أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق - كرمه الله - فحسر عن ذراعيه مشيرا إليه، وأردفه بذكر زمزم والمقام، فأشار إليهما بكلتا أصبعيه، ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء، ثم نزل وانفض ذلك الجمع العظيم.

وقد استظرف ذلك الخطيب واستنبل، وأن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل، والتذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الآذان. ثم ذكر أن المعينين من ذلك

الجمع - كالقاضى وسواء - خصوا بطعام حفيل وحلوا، على عادتهم فى مثل هذا المجتمع، وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر.

ثم كانت ليلة خمس وعشرين، فكان المختتم فيها الإمام الحنفى، وقد أعد إبنا له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور، فكان احتفال الإمام الحنفى لإبنه فى هذه الليلة عظيما، أحضر فيها من ثريات الشمع أربعا مختلفات الصنعة: منها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة، ومنها غير مغصنة، فصففت أمام حطيمه، وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه، وجلل ذلك كله سرجا ومشاعيل وشمعا، فاستنار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من النور. وأحضر الشمع فى أتوار الصفر، ووضع المحراب العودى المشرجب، فجلل دائرة الأعلى كله شمعا، وأحدق فى الأنوار به، فاكتنفته هالات من نور، ونصب المنبر قبالته مجللا أيضا بالكسوة الملونة.

واحتفال الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الأول، فختم الصبى المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره يسحب أذيال الخفر فى أثواب رائقة المنظر، فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين، وابتدأ خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياء مبين، فكأن الحال على طفولتها كانت أوقر من الأولى وأخشع، والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع.

وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول. وفى أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة، فيسكت خلال اكمالهم الآية التى انتزعوها من القرآن، ثم يعود إلى خطبته. وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أتوار الشمع بأيديهم، ومنهم من يمسك المجمرة يسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى. فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع، رفعوا أصواتهم بيارب يارب، يكررونها ثلاثا أو أربعا، وربما جاراهم فى النطق بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل. وجرى الإمام أثره على الرسم من الأطعام لمن حضر من أعيان المكان، أما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة، أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم.

ثم كانت ليلة سبع وعشرين-وهى ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد-فكانت الليلة الغراء، والختمة الزهراء، والهيبة الموفورة الكهلاء، والحالة التى تمكن عند الله تعالى فى القبول والرجاء. وأى حالة تؤازى شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم! وإنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم.

ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وأقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضا، ووصلت بالحطيم المذكور.

ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا منها خشبا مستطيلة مغرورة كلها مسامير محددة الأطراف، لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم، نصب عليها الشمع، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبا متصلا، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها.

وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب، ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار، وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها فى الهواء، وخرقت كلها ثقبا، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية، لا يزيد منها أنبوب من أنبوب فى القد، وأوفدت فيها المصابيح، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا.

ووصلت بالحطيم الثانى، الذى يقابل الركن الجنوبى من قبة زمزم، خشب على الصفة المذكورة اتصلت إلى الركن المذكور، وأوقد الشعل الذى فى رأس فحل القبة المذكورة، وصففت طرة شباكها سمعا مما يقابل البيت المكرم.

وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الصفة المذكورة، جللت كلها شمعا، ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم فى أتوار تناسبها كبرا، وصفت تلك الأنوار على الكراسى التى يصرفها السدنة مطالع عند الإبقاء، وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعا فى أنوار من الصفر، فجاءت كأنها دائرة نور ساطع، وأحدقت بالحرم المشاعيل، وأوقد جميع ما ذكر.

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، وقد وضعت بيد كل (واحد) منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا، فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات، وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع، فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة إيقادها، خيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمى

الأبصار، وفى أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيارب يارب على لسان واحد، فيرتج الحرم لأصواتهم.

فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الأبصار شعاع (تلك الأنوار، فلا تقع لمحة طرف إلا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر، فيتوهم المتوهم - لهول ما يعانيه من ذلك - أن تلك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء، فزينت بمصابيح السماء. وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة، ثم قام وابتدأ بسورة القدر، وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها قد انتهوا فى القراءة إليها، وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيما لختمة المقام، وحضروا متبركين بمشاهدتها.

وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث فى البيت العتيق - حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد - ووضع فى محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التى يصلى الناس خلفها، فختم القاضى بتسليمتين، وقام خطيبا مستقبل المقام والبيت العتيق، فلم يتمكن سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام.

فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم، وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعا، وأعينهم قد سالت دموعا، والأنفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشرا بمن الله تعالى بالقبول، ومشعرا أنها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها فى التنزيل، والله عز وجل لا يخلى الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها، إنه كريم منان لا إله سواه.

ثم ترتيب قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولا، بعد هذه الليلة المذكورة، بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور، تتضمن التذكير والتحذير والتبشير، بحسب اختيار كل واحد منهم، ورسم طوافهم أثر كل تسليمتين باق على حاله، والله ولى القبول من الجميع.

ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح، ملتزمين رسم الخطبة أثر الختمة، والمشار إليه منهم المالكى، فتقدم بإعداد أعواد بازاء محرابه، نصبها ستة على هيئة دائرة محراب، مرتفعة عن الأرض بدون القامة، يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط، فأدير بالشمع أعلاها، وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك.

وأحدق أيضا داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط، فكان منظرا مختصرا، ومشهدا عن احتفال المباهاة منزها موقرا، رغبة فى احتفال الأجر والثواب. ومناسبة لموضع هيئة المحراب، نصبت للشمع فيه عرضا من الأتوار أثافى من الأحجار، فجاءت الحال غريبة فى الاختصار، خارجة عن محفل التعاظم والاستكبار، داخلة مدخل التواضع والاستصغار.

واحتفل جميع المالكية للختمة، فتناوبها أئمة التراويح، فقضوا صلاتهم سراعا عجالا، كاد يلتقى طرفاها خفوفا واستعجالا، ثم تقدم أحدهم فعقد حبوته بين تلك الأثافى، وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبى ابن الإمام الحنفى، فأرسلها معادة إلى الأسماع، ثقيلا لحنها على الطباع. ثم انفض الجمع وقد جمد فى شئونه الدمع، واختطف للحين من أثافيه ذلك الشمع، أطلقت عليه أيدى الانتهاب، ولم يكن فى الجماعة من يستحى منه أو يهاب، وعند الله تعالى فى ذلك الجزاء والثواب، إنه سبحانه الكريم الوهاب.

وانتهت ليالى الشهر ذاهبة عنا بسلام، جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام، ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه فى جوار الكعبة البيت الحرام، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الإسلام، وأوزعنا حمدا يحق هذه النعمة وشكرا، وجعلها للمعاد لنا ذخرا، ووفانا عليها ثوابا من لديه وأجرا يرجى بفضله وكرمه، إنه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطرا، إنه الحنان المنان لا رب سواه.

## شهر شوال عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من ينار، يمن الله مطلعه، ورزقنا بركته. وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات، وبعده تتصل ثلاثة الأشهر الحرم المباركات.

وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالى الحفيلة فى المسجد الحرم - زاده الله تكريما - جرى الرسم فى إيقاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، وأوقدت الصوامع من الأربع جهات من الحرم، وأوقد سطح المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس، وأقام المؤذن ليلته تلك فى أعلى سطح قبة زمزم مهللا ومكبرا ومسبحا وحامدا، وأكثر الأئمة تلك الليلة إحياء، وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير. يقبل الله من جميعهم، إنه سميع الدعاء، كفيل بالرجاء، سبحانه لا إله سواه.

## عيد رمضان

فلما كان صبيحتها، وقضى الناس صلاة الفجر، لبس الناس أثواب عيدهم، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام، لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس إليه، رغبة فى شرف البقعة وفضل بركتها. وفضل صلاة الإمام خلف المقام ومن يأتم به.

فأول من بكر الشيبيون، وفتحوا باب الكعبة المقدسة، وأقام زعيمهم جالسا فى العتبة المقدسة، وسائر الشيبيين داخل الكعبة، إلى أن أحسوا بوصول الأمير مكثر، فنزلوا إليه وتلقوه بمقربة من باب النبى ﷺ، فانتهى إلى البيت المكرم، وطاف حوله أسبوعا، والناس قد احتفلوا لعيدهم، والحرم قد غص بهم، والمؤذن الزمزمى فوق سطح القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له، متناوبا فى ذلك مع أخيه.

فلما أكمل الأمير الأسبوع، عمد إلى مصطبة قبة زمزم - مما يقابل الركن الأسود - فقعد بها، وبنوه عن يمينه ويساره، ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه، وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم، يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت، غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته، فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته. وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة، فأنشدوه واحدا أثر واحد إلى أن فرغوا من إنشادهم.

وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة - وكان ضحى من النهار - فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين، والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه، وقد صك الحرم صوتها، وهو لابس ثياب سواده، فجاء إلى المقام الكريم، وقام الناس للصلاة، فلما قضوها رقى المنبر - وقد ألصق إلى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة، حيث الباب الكريم شارعا - فخطب خطبة بليغة، والمؤذنون قعود دونه فى أدراج المنبر، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره، إلى أن فرغ من خطبته.

وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء، مسرورين جذلين فرحين بما أتاهم الله من فضله، وبادروا إلى البيت الكريم، فدخلوا بسلام آمنين، مزدحمين عليه فوجا فوجا، فكان مشهدا عظيما وجمعا بفضل الله تعالى مرحوما. جعله الله ذخيرة للمعاد، كما جعل ذلك العيد الشريف فى العمر أفضل الأعياد بمنه وكرمه، إنه ولى ذلك، والقادر عليه.

وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم ، وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض ، فى زيارة الجبانة بالمعلى ، تبركا بإحتساب الخطا الصالحين من الصدر الأول وسواد ،

رضى الله عن جميعهم، وحشرنا فى زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم، فالمرء - كما قال ﷺ - «مع من أحب».

## مناسك الحج

وفى يوم السبت التاسع عشر منه، والثالث لفبراير، صعدنا إلى منى لمشاهدة المناسك المعظمة بها، ولمعاينة منزل اكترى لنا فيها، إعدادا للمقام بها أيام التشريق إن شاء الله، فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحا: مدينة عظيمة الآثار، واسعة الاختطاط، عتيقة الوضع قد درست إلا منازل يسيرة متخذة للنزول، تحف بجانبى طريق كأنه ميدان انبساطا وانفساحا ممتد الطول.

فأول ما يلقى المتوجه إليها عن يساره، وبمقربة منها، مسجد البيعة المباركة، التى كانت أول بيعة فى الإسلام عقدها العباس، رضى الله عنه، للنبى ﷺ على الأنصار حسب المشهور من ذلك.

ثم يفضى منه إلى جمرة العقبة، وهى أول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار إليها، وهى على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها من حصى الجمرات، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسى، لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الأزمنة، لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات، لا إله سواه. وعليها مسجد مبارك، وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التى ذكرناها، فيجعلها الرامى عن يمينه مستقبلا مكة - شرفها الله - ويرمى بها سبع حصيات، وذلك يوم النحر أثر طلوع الشمس، ثم ينحر أو يذبح ويحلق - والمحلق حولها، والمنحر فى كل موضع من منى، لأن منى كلها منحر كما قال ﷺ - وقد حل له كل شىء إلا النساء والطيب حتى يطوف طواف الإفاضة.

وبعد هذه الجمرة العقبية موضع الجمرة الوسطى، ولها أيضا علم منصوب وبينهما قدر الغلوة، ثم بعدها يلقى الجمرة الأولى، ومسافتها منها كمسافة الأخرى. (و) فى وقت الزوال من ثانى يوم النحر ترمى فى الأولى سبع حصيات، وفى الوسطى كذلك، وفى العقبة كذلك، فتلك إحدى وعشرون حصاة. وفى الثالث من يوم النحر، فى الوقت بعينه، كذلك على الترتيب المذكور، فتلك اثنتان وأربعون حصاة فى اليومين، وسبع رميت. فى العقبة يوم النحر، وقت طلوع الشمس، كما ذكرناه - وهى المحللات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب - فتلك تكملة تسع وأربعين جمرة.

وفى أثر ذلك ينفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم؛ واختصر فى هذا الزمان إحدى وعشرون كانت ترمى فى اليوم الرابع على الترتيب المذكور، وذلك لإستعجال الحاج خوفا من العرب الشبيين، إلى غير ذلك من محذورات الفتن المغيرات لآثار للسنن، فمضى العمل اليوم على تسع وأربعين حصاة، وكانت فى القديم سبعين، والله يهب القبول لعباده.

والصادر من عرفات إلى منى أول ما يلقى الجمرة الأولى، ثم الوسطى، ثم جمرة العقبة. وفى يوم النحر تكون جمرة العقبة أولى منفردة بسبع حصيات، حسبما تقدم ذكره، ولا يشترك معها سواها فى ذلك اليوم، ثم فى اليومين بعده ترجع الآخرة على الترتيب حسبما وصفناه، بحول الله عز وجل. وبعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيرا، ويلقى منحر الذبيح ﷺ، حيث فدى بالذبح العظيم، وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى، وهو بمقربة من سفح ثبير.

وفى موضع المنحر المذكور، حجر قد ألصق بالجدار المبنى، فيه أثر قدم صغيرة يقال إنه أثر قدم الذبيح ﷺ عند تحركه، فلان الحجر له بقدرة الله عز وجل إشفاقا وحنانا، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، ويفضى من ذلك إلى مسجد الخيف المبارك، وهو آخر منى فى توجهك، أعنى من المعمور منها بالبنيان. وأما الآثار القديمة فآخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد.

وهذا المسجد المبارك متسع الساحة، كأكبر ما يكون من الجوامع، والصومعة وسط رحبة المسجد، وله فى القبلة أربعة بلاطات يشملها سقف واحد، وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة، وكفى بما ورد فى الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم.

وبمقربة منه، عن يمين المار فى الطريق، حجر كبير مسند إلى صفح الجبل، مرتفع عن الأرض يظل ما تحته، ذكر أن النبى ﷺ قعد تحته مستظلا، ومس رأسه المكرم فيه، فلان له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دور الرأس، فيبادر الناس لوضع رؤوسهم فى ذلك الموضع، تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله عز وجل.

فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة، أخذنا فى الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله فى مباشرتها، ووصلنا إلى مكة قريب الظهر، والحمد لله على ما من به.

وفى يوم الأحد بعده، وهو الموفى عشرين لشوال، صعدنا إلى الجبل المقدس حراء، وتبركنا بمشاهدة الغار فى أعلاه الذى كان النبى ﷺ يتعبد فيه. وهو أول موضع نزل فيه الوحى عليه ﷺ، ورزقنا شفاعته، وحشرنا فى زمرته، وأماتنا على سنته ومحبته، بمنه وكرمه، لا رب سواه.

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين منه، وهو السادس من فبراير، اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة - بعد أن ندبهم القاضى إلى ذلك، وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله - فاجتمعوا فى هذا اليوم الرابع المذكور، وقد أخلصوا النيات لله عز وجل. وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق.

ثم أقبل القاضى بين رايتيه السوداوين، لابسا ثياب البياض، وأخرج مقام الخليل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا، ووضع على عتبة باب البيت المكرم، وأخرج مصحف عثمان رضى الله عنه من خزانته، ونشر بازاء المقام المطهر، فكانت دفته الواحدة عليه، والثانية على الباب الكريم.

ثم نودى فى الناس بالصلاة جامعة، فصلى القاضى بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين: قرأ فى إحداهما بسبح اسم ربك اعلى، وفى الثانية بالغاشية، ثم صعد المنبر - وقد ألصق إلى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة - فخطب خطبة بليغة، والتى فيها الاستغفار، ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم، وحضهم على التوبة والإنابة لله عز وجل، حتى نزفت دمعها العيون، واستنفدت ماءها الشئون. وعلا الضجيج، وارتفع الشهيق والنشيج، وحول رداءه وحول الناس أرديتهم اتباعا للسنة، ثم انفض الجمع راجين رحمة الله عز وجل، غير قانطين منها، والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه.

وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية على الصفة المذكورة، وقد نال الجهد من أهل الحجاز، وأضر بهم القحط، وأهلك مواشيهم الجدب، لم يمطروا فى الربيع ولا الخريف ولا الشتاء إلا مطرا طلا غير كاف ولا شاف. والله عز وجل لطيف بعباده، غير مؤاخذهم بجرائمهم، إنه الحنان المنان لا رب سواه.

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال، صعدنا إلى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك، الذى أوى إليه النبى ﷺ مع صاحبه الصديق رضى الله عنه، حسبما جاء فى محكم التنزيل العزيز - وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولا فى هذا التقييد - وولجناه من الموضع الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس، تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك، قدسه الله، لأن مدخل النبى ﷺ كان منه.

وكان لأحد الصاعدين إليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة وفضيحة. وذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة، وعاود ذلك مرارا فلم يستطع، حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك، وبكوا له إشفاقا، ولجأوا إلى الله عز وجل فى الدعاء فلم يغن ذلك شيئا، وكان فيهم من هو أضخم منه، فيسر الله عليه، وطال تعجب الناس منه واعتبارهم. وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه، عصمنا الله من مواقف الفضيحة فى الدنيا والآخرة.

وهذا الجبل صعب المرتقى جدا، يقطع الأنفاس تقطيعا، لا يكاد يبلغ منتهاه إلا وقد ألقى بالأيدى إعياء وكلالا. وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال، وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها، والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه. وطول الغار ثمانية عشر شبرا، وسعته أحد عشر شبرا فى الوسط منه، وفى حافتيه ثلثا شبر، وعلى الوسط منه يكون الدخول، وسعة الباب الثانى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا، لأن له بابين حسبما ذكرناه أولا.

وفى يوم الجمعة بعده وصل السرو اليمنيون فى عدد كثير، مؤملين زيارة قبر الرسول ﷺ، وجلبوا ميرة إلى مكة على عادتهم، فاستبشر الناس بقدومهم استبشارا كثيرا، حتى أنهم أقاموه عوض نزول المطر. ولطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة، إنه سبحانه لطيف بعباده لا إله سواه.

## شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء، بموافقة الرابع عشر من شهر فبراير، بشهادة ثبتت عند القاضى فى رؤيته، وأما الأكثر الأغلب من أهل المسجد الحرام فلم يبصروا شيئا، وطال ارتقابهم إلى أثر صلاة المغرب، وكان منهم من يتخيله فيشير إليه، فإذا حققه تلاشى عنده نظره وكذب خبره، والله أعلم بصحة ذلك.

وهذا الشهر المبارك ثانى الأشهر الحرم، وثانى أشهر الحج، أطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن والإيمان والمغفرة والرضوان بعزته ورحمته.

## مسجد مولد النبى صلى الله عليه وسلم

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه، دخلنا مولد النبى ﷺ، وهو مسجد حفيل البنيان، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب أبى النبى ﷺ، وقد تقدم ذكره.

ومولده ﷺ صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار، وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة، فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا. ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس، الذى هو مسقط لأكرم مولود على الأرض، وممس لأطهر سلالة وأشرفها ﷺ، ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم، وبازائه محراب حفيل القرنصة، مرسومة طرته بالذهب، وقد تقدم الوصف لهذا كله.

وهذا الموضع المبارك هو شرقى الكعبة متصل بصفح الجبل، ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبى قبيس، وعلى مقربة منه أيضا مسجد عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد على بن أبى طالب رضوان الله عليه، وفيه تربى رسول الله ﷺ، وكان دارا لأبى طالب عم النبى ﷺ وكافله.

## دار السيدة خديجة رضى الله عنها

ودخلت أيضا فى اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها، وفيها قبة الوحى، وفيها أيضا مولد فاطمة رضى الله عنها، وهو بيت صغير مائل للطول، والمولد شبه صهريج صغير، وفى وسطه حجر أسود، وفى البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها، رضى الله عنهما، لاصق بالجدار، ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين، وعليهما حجران مائلان إلى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين، ومسحنا الخدود فى هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام رضوان الله عليهم.

وفى الدار المكرمة أيضا مختبأ النبى ﷺ، شبيه القبة، وفيه مقعد فى الأرض عميق شبيه الحفرة داخل فى الجدار قليلا، وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور، قيل إنه كان الحجر الذى كان غطى النبى ﷺ عند اختبائه فى الموضع المذكور، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين. وعلى كل واحد من هذه المواليد المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه، فإذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به، ثم أعادها عليه.

وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور، نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل، وانتهاب منزله، وصرفه عن حجابة البيت الحرام - طهره الله - وذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1]، أعاذنا الله من سوء القضاء ونفوذ سهام الدعاء بمنه.

---

(١) سورة الحج الآية : ٢٥ .

وفى هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور، توالى مجىء السرو اليمنيين فى رفاق كثيرة، بالميرة من الطعام وسواه وضروب الأدام والفواكه اليابسة، فأرغدوا البلد.. ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر فى جهد ومشقة، فهم رحمة لهذا البلد الأمين، ثم توجهوا إلى الزيارة المباركة، إلى التربة المباركة طيبة، مدفن رسول الله ﷺ، ووصلوا فى أسرع مدة، قطعوا الطريق من مكة إلى المدينة فى يسير أيام، ومن صحبهم من الحاج حمد صحبتهم. وفى أثناء مغيبهم وصلت طوائف أخر منهم للحج خاصة، لضيق الوقت عن الزيارة، فأقاموا بمكة، ووصل الزوار منهم، فضاق بهم المتسع.

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور، فتح البيت العتيق، وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبى المعزول - هو أمثل طريقة منه على ما يذكر - فازدحم السرو للدخول على العادة، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف: يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا إلى أن يلجوا على أعظم مشقة، ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم، فينحدر الفوج منهم على المصعد، وفوج آخر صاعده، فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم إلى بعض، فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدين، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين، وتضاغطوا إلى أن يميلوا فيقع البعض على البعض فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا، فمنهم سليم وغير سليم، وأكثرهم إنما ينحدرون وثبا على الرءوس والأعناق.

ومن أعجب ما شاهدناه فى يوم الاثنين المذكور، أن صعد بعض من الشيبيين، أثناء ذلك الزحام، يرومون الدخول إلى البيت الكريم، فلم يقدروا على التخلص، فتعلقوا بأستار حافتى عضادتى الباب، ثم أن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القنبية الممسكة للأستار إلى أن علا الرؤوس والأعناق، فوطئها ودخل البيت، فلم يجد موطئا لقدمه سواها لشدة تراصهم وتراكمهم، وانضمام بعضهم إلى بعض. وهذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام، لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام، ولله القدرة المعجزة لا سواه.

وفى هذا اليوم المذكور، الذى هو السابع والعشرون من ذى القعدة، شمرت أستار الكعبة المقدسة إلى نحو قامة ونصف من الحدر من الجوانب الأربعة، ويسمون ذلك إحراما لها، فيقولون أحرمت الكعبة، وبهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر، ولا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة، فكأن ذلك التشمير إيذان بالتشمير للسفر وإيذان بقرب وقت وداعها المنتظر، لا جعله الله آخر وداع، وقضى لنا إليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاعة بعزته وقدرته.

وفى (يوم) الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور، كان دخولنا إلى البيت الكريم، على حال اختلاس وانتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام، فدخلناه دخول وداع، إذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه، ولا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقى، فإنهم يظهرون من التهافت عليه، والبدار إليه، والازدحام فيه، ما ينسى أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم، فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك، والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته الكريم، ويرزقنا العود إليه على خير وعافية، بمنه ولطيف صنعه.

وفى يوم إحرام الكعبة المذكور، أقلعت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التى كانت عليه، ووضعت عوضها قبة الحديد إعدادا للأعاجم المذكورين، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فصلا عن غير ذلك لما هم عليه من صحة النفوس شوقا إلى هذه المشاهد المقدسة، ونطارحهم بأجرامهم عليها، والله ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه.

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور، جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهوا إعجابا، ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعبد إليه، ففتح الباب الكريم، وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها فى أياد الحديد المضروبة فى السطح، ويرسلونها إلى الأرض، فيربط فيها شبيه محمل العود، ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين. فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار.

فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبى المعزول إلى خطته، على صحة الهنات المنسوبة إليه، فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها. فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه، مع كونها فى خطة دونها الخلافة رفعة، والحال تشبه بعضها بعضا ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1]، وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى فى أشرف بقاع الأرض، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## منشأ الإسلام

وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة المذكور، دخلنا دار الخيزران التى كان منها منشأ الإسلام، وهى بازاء الصفا، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٩ .

كان مسكن بلال رضى الله عنه، ويدخل إليها على حلق كبير شبيه الفندق قد أحدقت به بيوت للكراء من الحاج.

والدار المكرمة دار صغيرة، يجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره، وهى مجددة البناء، أنفق فى بنائها جمال الدين - المذكور أثره الكريم فى هذا المكتوب - نحو الألف دينار، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح.

وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبى ﷺ والصخرة التى كان إليها مستنده، وعن يمينه موضع أبى بكر الصديق، وعن يمين أبى بكر موضع على بن أبى طالب، والصخرة التى كان إليها مستنده هى داخلة فى الجدار كشبه المحراب.

وفى هذه الدار كان إسلام عمر بن الخطاب، ومنها ظهر الإسلام على يديه وأعزه الله. نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة، وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم ونسبت إليهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

## شهر ذى الحجة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس، بموافقة الخامس عشر من مارس، وكان للناس فى ارتقابه أمر عجيب، وشأن من البهتان غريب، ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد - فضلا عن غيره - رد وتكذيب. وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين، والأفق قد تكاثف نوؤه وتراكم غيمه، إلى أن علته مع المغيب بهض حمرة من الشفق، فطمع الناس فى فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها، فبينما هم كذلك إذ كبر أحدهم، فكبر الجم الغفير لتكبيره، ومثلوا قياما ينتظرون مالا يبصرون، ويشيرون إلى ما يتخيلون، حرصا منهم على أن يكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة، كأن الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه.

فاختلقوا شهادات زورية، ومشت منهم طائفة من المغاربة - أصلح الله أحوالهم - ومن أهل مصر وأربابها، فشهدوا عند القاضى برؤيته. فردهم أقبح رد، وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح، وفضحهم فى تزييف أقوالهم أخزى فضيحة، وقال: يا للعجب! لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس، تحت ذلك الغيم الكثيف النسج، لما قبلته، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة! وكان أيضا مما حكى من قوله. تشوشت المغارب، تعرضت شعرة من الحاجب، فأبصروا خيالا ظنوه هلالا.

وكان لهذا القاضي جمال الدين، في أمر هذه الشهادة الزورية، مقام من التوقف والتحرى حمده له أهل التحصيل، وشكره عليه ذوو العقول. وحق لهم ذلك؛ فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة، أتوا لها من كل فج عميق، فلو تسومح فيها بطل السعى، وقال الرأى. والله يرفع الالتباس والبأس بمنه.

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة، ظهر الهلال أثناء فرج السحاب، وقد اكتسى نورًا من الثلاثين ليلة، فزعقت العامة زعقات هائلة، وتنادت بوقفة الجمعة، وقالت: الحمد لله الذى لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا، كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة، إذا لم تكن توافق يوم الجمعة، ليست مقبولة ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأمولة؛ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ثم إنهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضى، فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكى الحق وتضحك الباطل، فردها وقال: يا قوم! حتى هذا التمادى فى الشهوة؟ وإلى من تستنون فى طرق الهفوة؟ وأعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثرًا فى أن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة، فيقفوا عشية بها، ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده، ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة. فإن كانت الوقفة يوم الجمعة، فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة بأس، إذ هو جائز عند أيمة المسلمين، وإن كانت (يوم) السبت فبها ونعمت، وأما أن يقع القطع بها يوم الجمعة، فتغرير بالمسلمين وافساد لمناسكهم، لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة كما أنها عندهم جائزة يوم النحر. فشكر جميع من حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق، ودعوا له، وأظهر من حضر من العامة الرضى بذلك، وانصرفوا عن سلام. والحمد لله على ذلك.

وهذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهر الحرم وعشره الأولى مجتمع الأمم، وموسم الحج الأعظم: شهر العج والثج، وملتقى وفود الله من كل أوب وفج، مصاب الرحمة والبركات، ومحل الموقف الأعظم بعرفات. جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات، وتعرى به من ملابس الأوزار والسيئات، بمنه وكرمه، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة. والأمير العراقى منتظر لكشف هذا الإلباس عن الناس فى أمر الهلال، لعله قد اتضح له اليقين فيه إن شاء الله.

وفى سائر هذه الأيام كلها إلى هلم جرا، تصل رفاق من السرو اليمنيين، وسائر حجاج الآفاق، لا يحصى عددها إلا محصى آجالها وأرزاقها لا إله سواه. فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الأمين، الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها، ولو أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع لضاقت عنه.

وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات، فى اتساعها لهذا البشر المعجز احصاؤه، إلا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها تتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها، وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهذا البلد الحرام، عظم الله حرمته، ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله.

ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دبادب الأمير بكرة وعشية، وفى أوقات الصلوات، كأنها أشعار بالموسم، ولا يزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات، عرفنا الله بها القبول والرحمة.

وفى يوم الاثنين الخامس أن الرابع من هذا الشهر، صل الأمير عثمان بن على صاحب عدن، خرج منها فارًا أمام سيف الإسلام المتوجه إلى السن، وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لا تحصى كثرة، لأنه طال مقامه فى تلك الولاية واتسع كسبه.

وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر منه لحقت حليَه حراريق الأمير. سيف الإسلام، فأخذت جميع ما فيها من الأثقال، وكان فد استصحب الخفَ النفيس الخطير مع نفسه إلى البر، وهو فى جملة من رجاله وعبده، فسلم به ووصل مكة بغير موقرة متاعًا ومالاً، دخلت على أعين الناس لى داره التى ابتناها بها، بعد أن قدم نفس ذخائر وناضءً ماله وحملة رقيقة وخدمة ليلاً، وبالجملة فحاله لا توصف كثرة وإتساعًا.

والذى انتهب له أكثر، لأنه كان فى ولايته يوصف بسوء السيرة مع التحالب، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه، الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه، فاكتسب سحتًا عظيمًا، وحصل على كنوز قارونية، لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به، ولا يدرى حال أمره مع صلاح الدين لما يكون. والدنيا مفنية محبيها، آكلة بنيها، وثواب الله خير ذخيرة، وطاعته أشرف غنيمة، لا إله سواه.

وبقيت الشهادة مضطربة فى أمر هذا الهلال المبارك الميمون، إلى أن تواصلت الأخبار برؤيته ليلة الخميس، الذى يوافق الخامس عشر من مارس، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع، يمنيون وسواهم، من الواصلين من المدينة المكرمة. لكن بقى القاضى على ثباته وتوقفه فى القبول، وارجاء الأمر إلى وصول المبشر المُعلم بوصول الأمير العراقى، ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج فى ذلك.

فلما كان يوم الأربعاء، السابع من الشهر المذكور، وصل المبشر، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه، حذرًا من حقد الخليفة على أهم مكثر، لمذموم فعل صدر

عنه. فكان وصول هذا البشير أمانًا وتسكينا للنفوس الشاردة، فوصل مبشرًا ومؤنسًا، وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور، وتواترت الأنباء بذلك.

فصح الأمر عند القاضى بذلك صحة أوجبت خطبته فى ذلك اليوم - على ماجرت به العادة فى اليوم السابع من ذى الحجة، أثر صلاة الظهر - علم الناس فيها مناسكهم، ثم أعلمهم أن غدهم هو يوم الصعود إلى منى، وهو يوم التروية، أن وقفتهم يوم الجمعة، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله ﷺ بأنها تعدل سبعين وقفة، ففضل هذه الوقفة فى الأعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام.

## الصعود إلى عرفات

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود إلى منى، وتمادوا منها إلى عرفات، وكانت السنة المبيت بها، لكن ترك الناس ذلك اضطرارا، بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج فى طريقهم إلى عرفات. وصدر عن هذا الأمير عثمان، المتقدم ذكره، فى ذلك اجتهاد، بل جهاد يرجى له به المغفرة لجميع خطاياه إن شاء الله.

وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه، شاكين فى الأسلحة، إلى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين، فينحدر الشعبيون من أحدهما - وهو الذى عن يسار المار إلى عرفات - فينتهبون الحاج انتهابًا. فضرب هذا الأمير قبة فى ذلك المضيق بين الجبلين، بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد إلى رأس الجبل بفرسه - وهو جبل كؤود - فعجبنا من شأنه، وأكثر التعجب من أمر الفرس، وكيف تمكن له الصعود إلى المرتقى الصعب الذى لا يرتقيه..

فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم، فحصل على أجرين: أجر جهاد وحج، لأن تأمين وفد الله عز وجل فى مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد. واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها إلى يوم الجمعة كله، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده إلا الله عز وجل.

ومزدلفة بين منى وعرفات: من منى إليها ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات مثل ذلك أو أشف قليلاً، وتسمى المشعر الحرام، وتسمى جمعًا، فلها ثلاثة أسماء. وقبلها بنحو الميل وادى مُحسِّر، وجرت العادة بالهرولة فيه، وهو حد بين مزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما.

ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء فى زمان زبيدة رحمها الله، وفى وسط ذلك البسيط من الأرض حلق، فى وسطه قبة، فى أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين، يزدحم الناس فى الصعود إليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها.

وعرفات أيضًا بسيط من الأرض مد البصر، لو كان محشرا للخلائق لوسعهم، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة.

## جبل الرحمة

وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه وحوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين، فما أمام العلمين إلى عرفات حل وما دونهما حرم.

وبمقربة منهما، مما يلى عرفات، بطن عُرَنة الذى أمر النبى، ﷺ، بالارتفاع عنه فى قوله، ﷺ: «عرفات كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عُرنة»[1].

فالواقف فيه لا يصح حجه، فيجب التحفظ من ذلك، لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيرا من الحاج، وحذروهم الزحمة فى النفر، واستدرجوهم بالعلمين اللذين أمامهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه، فيبطلوا على الناس حجهم. والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس.

وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال، قائم فى وسط البسيط، وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض، وكان صعب المرتقى، فأحدث فيه جمال الدين، المذكورة مآثره فى هذا التقييد، أدراجا وطية من أربع جهاته، يصعد فيها بالدواب الموقورة، وأنفق فيها مالا عظيما.

وفى أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة رضى الله عنها، ولا يعرف صحة ذلك. وفى وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به، فسيح الساحة، جميل المنظر، يشرف منه على بسيط عرفات. وفى جهة القبلة منه جدار، وقد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها.

وفى أسفل هذا الجبل المقدس - عن يسار المستقبل للقبلة فيه - دار عتيقة البنيان، وفى أعلاها غرف لها طيقان، تنسب إلى آدم ﷺ. وعن يسار هذه الدار - فى استقبال القبلة - الصخرة التى كان عندها موقف النبى ﷺ، وهى فى جبل متطأمن، وحول جبل

---

(١) متفق عليه.

الرحمة والدار المكرمة، صهاريج للماء وجباب،وعن يسار الدار أيضًا – على مقربة منها – مسجد صغير.

وبمقربة من العلمين – عن يسار مستقبل القبلة – مسجد قديم فسيح البناء، بقى منه الجدار القبلى، ينسب إلى إبراهيم ﷺ، فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة. ثم يجمع بين الظهر والعصر. وعن يسار العلمين أيضا – فى استقبال القبلة – وادى الأراك، وهو أراك أخضر يمتد فى ذلك البسيط مع البصر امتدادًا طويلاً.

فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها. وفى نحو الثلث الباقى من ليلة الجمعة المذكورة، وصل أمير الحاج العراقى، فضرب أبنيته. فى البسيط الأفيح، مما يلى الجانب الأيمن من جبل الرحمة، فى استقبال القبلة. والقبلة فى عرفات هى إلى مغرب الشمس، لأن الكعبة المقدسة فى تلك الجهة منها.

فأصبح يوم الجمعة المذكور فى عرفات جمع لا شبيه له إلا الحشر، لكنه – إن شاء الله تعالى – حشر للثواب، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب. زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط فى عرفات جمعا أحفل منه، ولا أرى كان من عهد الرشيد، الذى هو آخر من حج من الخلفاء، جمع فى الإسلام مثله. جعله الله جمعًا مرحومًا معصومًا بعزته.

فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور، وقف الناس خاشعين باكين، وإلى الله عز وجل فى الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع. فما رؤى يوم أكثر مدامع، ولا قلوبا خواشع، ولا أعناقًا لهيبة الله خوانع خواضع، من ذلك اليوم. فما زال الناس على تلك الحالة، والشمس تلفح وجوههم، إلى أن سقط قرصها، وتمكن وقت المغرب.

## قدوم الأمير العراقى

وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين، ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور. وأخذ السرو اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم فى جبال عرفات، المتوارثة عن جد فجد من عهد النبى ﷺ، لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى، وكان المجتمع منهم فى هذا العام عددًا لم يجتمع قط مثله.

وكذلك وصل الأمير العراقى فى جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين، ومن النساء العقائل، المعروفات بالخواتين: واحدتهن خاتون ومن السيدات

بنات الأمراء كثير، ومن سائر العجم عدد لا يحصى. فوقف الجميع، وقد جعلوا قدوتهم فى النَّفْر الإمام الملكى، لأن مذهب مالك رضى الله عنه يقتضى أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب، ومن السرو اليمنيين من نفر قبل ذلك.

فلما أن حان الوقت، أشار الإمام المالكى بيديه، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعًا ارتحت له الأرض، ورجفت الجبال. فياله موقفا ما أهول مرآه، وأرجى فى النفوس عقباه! جعلنا الله ممن خصّه فيه برضاه، وتغمده بنعماه، إنه منعم كريم حنان منان.

وكانت محلة هذا الأمير العراقى جميلة المنظر، بهية العدة، رائقة المضارب والأبنية، عجيبة القباب والأروقة، على هيآت لم ير أبدع منها منظرًا. فأعظمها مرآى مضرب الأمير، وذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان، كأنه حديقة بستان، أو زخرفة بنيان، وفى داخله القباب المضروبة، وهى كلها سواد فى بياض، مرقشة ملونة كأنها أزاهير الرياض. وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل فى البياض، يستشعر الناظر إليها مهابة، يتخيلها درقًا لَمْطية قد جللتها مزخرفات الأغشية.

ولهذا السرادق، الذى هو كالسور المضروب. أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة، يُدخل منها إلى دهاليز وتعاريج، ثم يفضى منها إلى الفضاء الذى فيه القباب؛ وكأن هذا الأمير ساكن فى مدينة قد أحدق بها سورها، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله، وهى من الأبهات الملوكية المعهودة التى لم يعهد مثلها عند ملوك الغرب. وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير وخدمه وغاشيته، وهى أبواب مرتفعة، يجىء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ، قد أحكمت إقامة ذلك كله أمراس وثيقة من الكتان، تتصل بأوتاد مضروبة، أدير ذلك كله بتدبير هندسى غريب.

ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك، لكنها على تلك الصفة، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة؛ إلى ما يطول وصفه، ويتسع القول فيه، من عظيم احتفال هذه المحلة فى الآلة والعدة، وغير ذلك مما يدل على سعة الأحوال، وعظيم الانخراق فى المكاسب والأموال.

ولهم أيضًا فى مراكبهم على الإبل قباب تظلهم بديعة المنظر، عجيبة الشكل، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات، وهى كالتوابيت المجوفة، هى لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال، تملأ بالفرش الوثيرة، ويقعد الراكب فيها مستريحًا كأنه فى مهاد لين فسيح، وبازائه معادله أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى، والقبة مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما أحبا.

فعندما يصلان إلى المرحلة التى يحطان بها ضرب سرادقهما للحين أن كانا من أهل الترفه والتنعم، يدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، وينصب لهما كرسى ينزلان عليه، فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما. وناهيك من هذا الترفيه، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وإن بعدت شقته نصبًا، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبًا.

ودون هؤلاء فى الراحة راكبو المحارات، وهى شبيهة الشقادف التى تقدم وصفها فى ذكر صحراء عيذاب، لكن الشقادف أبسط وأوسع، وهذه أضم وأضيق، وعليها أيضًا ظلائل تقى حر الشمس، ومن قصرت حاله عنها فى هذه الأسفار، فقد حصل على نصب السفر الذى هو قطعة من العذاب.

## استيفاء حال النفر

ثم يرجع القول إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات؛ وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر، فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة، فجمعوا بها بين العشاءين حسبما جرت به سنة النبى ﷺ. واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج، وأما مسجده المذكور فعاد كله نورًا، فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به.

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين، أعظم الناس همة فى استجلاب هذا الشمع، والاستكثار منه إضاءة لهذه المشاهد الكريمة. وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه، فيدخل منهم كل إنسان بشمعة فى يده، وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الإمام الحنفى، لأنهم على مذهبه. وشاهدنا منه شمعا عظيمًا أخضر، تنوء الشمعة منه بالعصبة كأنه السرو، وضع أمام الحنفى.

فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة، وهى ليلة السبت، فلما صلوا الصبح غدوا منه إلى منى بعد الوقوف والدعاء، لأن مزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر، ففيه تقع البرولة فى التوجه إلى منى حتى يخرج منه. ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وهو المستحب، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخَيف بمنى، وكل ذلك واسع.

فلما انتهى الناس إلى منى، بادروا لرمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحروا أو ذبحوا، وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب يطوفوا طواف الإفاضة. ورُمِى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر. ثم توجه أكثر الناس لطواف الإفاضة، ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى، ومنهم من أقام إلى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار إلى مكة.

فلما كان اليوم الثانى من يوم النحر، عند زوال الشمس، رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات، وبالجمرة الوسطى كذلك، يقفون للدعاء، وبجمرة العقبة كذلك، ولا يقفون بها، اقتداء فى ذلك كله بفعل النبى صلى الله عليه وسلم، فتعود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة - وهى يوم النحر أولى منفردة ولا يخلط معها سواها.

وفى اليوم الثانى من يوم النحر، بعد رمى الجمرات، خطب الخطيب بمسجد الخيف، ثم جمع بين الظهر والعصر. وهذا الخطيب وصل مع الأمير العراقى، مقدما من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما يذكر، ويعرف بتاج الدين، وظاهر أمره البلادة والبله، لأن خطبته أعربت عن ذلك، ولسانه لا يقيم الإعراب.

## الهبوط إلى مكة

فلما كان اليوم الثالث، تعجل الناس فى الانحدار إلى مكة، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين جمرة : ثم إحدى وعشرون فى اليوم الثانى بعد زوال الشمس : سبعًا سبعًا فى الجمرات الثلاث، وفى اليوم الثالث كذلك. ونفر إلى مكة : فمنهم من صلى العصر بالأبطح، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام، ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح.

ومضت السُنة قديمًا بإقامة ثلاثة أيام، بعد يوم النحر، بمنى لاكمال رمى سبعين حصاة. فوقع التعجيل فى هذا الزمان فى اليومين، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1] وذلك مخافة بنى شعبة، وما يطرأ من حرابة المكيين.

وقد كانت فى يوم الانحدار المذكور، بين سودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين، جولة وهوشة، وقعت فيها جراحات،وسلت السيوف، وفوقت القسى، ورميت السهام، وانتهب بعض أمتعة التجار، لأن منى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق : يباع فيها من الجوهر النفيس، إلى أدنى الخرز، إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا ؛ لأنها مجتمع أهل الآفاق. فوقى الله شر تلك الفتنة تسكينا لها سريعًا، وكانت عين الكمال فى تلك الوقفة الهنيئة، وكمل الناس حجهم، والحمد لله رب العالمين.

## نقل كسوة الأمير العراقى للكعبة

وفى يوم السبت، يوم النحر المذكور، سيقت كسوة الكعبة المقدسة، من محلة الأمير العراقى إلى مكة، على أربعة جمال. تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوّادية،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٣.

والرايات على رأسه، والطبول تهر وراءه، وابن عم الشيبى محمد بن إسماعيل معها ؛ لأنه ذكر أن أمر الخليفة مفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه، والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه. وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالاً، وقد تقدم ذكر ذلك فى العزلة الأولى.

فوضعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة. فلما كان يوم الثلاثاء، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور، اشتغل الشيبيون باسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنًا، فى أعلاها رسم أحمر واسع، مكتوب فيه فى الصفح الموجه إلى المقام الكريم - حيث الباب المكرم - وهو وجههـــا المبارك، بعد البسملة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[1] الآية، وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن، وذكر الخليفة أيضًا.

فكملت كسوتها، وشمرت أذيالها الكريمة، صونا لها من أيدى الأعاجم وشدة اجتذابها، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ؛ فلاح للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جليت فى السندس الأخضر. أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها، حريص على المثول بفنائها، بمنه.

## يوم الأعاجم العراقيين فى البيت الكريم

وفى هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقى، فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم، ووصول بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم فى غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدى إلى تلف المهج وكسر الأعضاء.

وهم فى خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح، القاء الفراس بنفسه على المصباح. فعادت أحوال السرو اليمنيين، فى دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر، حال تؤدة ووقار بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغتام، نفعهم الله بنياتهم، وقد فقد منهم فى ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله، والله يغفر للجميع. وربما زاحمهم فى تلك الحال بعض نسائهم، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا فى مضيق ذلك المعترك الذى حمى بأنفاس الشوق وطيشه، والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده، بعزته.

---

(1) سورة آل عمران الآية ٩٦.

وفى ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك، اثر صلاة العتمة، نصب منبر الوعظ أمام المقام. فصعده واعظ خراسانى، حسن البشارة، مليح الإشارة، يجمع بين اللسانين عربى وعجمى، فأتى فى الحالين بالسحر الحلال من البيان، فصيح المنطق، بارع الألفاظ ؛ ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم، فيهزهم اضطرابًا، ويذيبهم زفرات وانتحابًا.

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها، وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفى، فصعد اثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال، رائع الجلال، بارع التمام فى الفصل والكمال ؛ فصدع بخطبة انتظمت آية الكرسى كلمة كلمة، ثم تصرف فى أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضا، حرك بها القلوب حتى أطارها، وأورثها احتدامًا بالخشية بعد استعارها. وفى أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل، فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ، فتحار له الألباب، ويملك كل نفس منه الإغراب والإعجاب، فكأنما هو وحى يوحى.

وهذا الذى مشى به وعاظ هذه الجهات المشرقية، من إلقاء المسائل إليهم، وإفاضة شآبيب الامتحان عليهم ؛ من أعجب الأمور المعربة عن غريب شأنهم، والناطقة بسحر بيانهم. وليست فى فن واحد، إنما هى فى فنون شتى، وربما قصد بها التعنيت والتنكيت، فيأتون بالجواب كخطفة البرق، وارتداد الطرف. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وبين أيدى هؤلاء الوعاظ قراء ينغمون بالقراءة، فيأتون بألحان تكسب الجماد طربًا وأريحية، كأنها المزامير الداوودية، فلا تدرى من أى أحوال هذا المجتمع تعجب، والله يؤتى الحكمة من يشاء، لا إله سواه.

وسمعت هذا الشيخ الواعظ بسند الحديث إلى خمسة من أجداده، جد عن جد، نسقًا مسلسلا من أبيه إليهم على اتصال، كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم، ومكانته من التذكير والوعظ ؛ فهو معرق فى الصنعة الشريفة، تليد المجد فيها.

## سوق المسجد الحرام

وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام - نزهه الله وشرفه - سوقًا عظيمة : يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البر إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بنى شيبة. ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من [illegible] إلى الشمال،

وفي البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق، وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم. والله غالب على أمره لا إله سواه.

## يوم الرحيل

وفي عشي يوم الأحد الموفي عشرين من الشهر المذكور، وهو أول أبريل، كان مسيرنا إلى محلة الأمير العراقي بالزاهر - وهو على نحو من الميلين من البلد - وقد كمل اكتراؤنا إلى الموصل، وهو أمام بغداد بعشرة أيام، عرفنا الله الخير والخيرة بمنه، فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق، ونعيد وداعه.

فلما كان ضحوة يوم الخميس، الثاني والعشرين من ذى الحجة المذكور، أقلعت المحلة على تؤدة ورفق بسبب البطء والتأخر، ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع الذى أقلعت منه، بمقربة من بطن مَرّ، والله كفيل بالسلامة والعصمة بمنه.

فكانت مدة مقامنا بمكة - قدسها الله - من يوم وصولنا إليها، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين، إلى يوم اقلاعنا من الزاهر، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذى الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وثلث شهر، التى هى - بحسب الزائد والناقص من الأشهر - مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يومًا سعيدات مباركات - جعلها الله لذاته، وجعل القبول لها موافقًا لمرضاته، بمنه - غبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام : يوم عرفة، وثانى يوم النحر، ويوم الأربعاء الذى هو الحادى والعشرون لذى الحجة، قبل يوم الخميس، يوم اقلاعنا من الزاهر. والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم، بمنه.

ثم أقلعنا من ذلك الموضع، اثر صلاة الظهر من يوم الخميس، إلى بطن مر، وهو وادٍ خصيب كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة الماء، تسقى منها أرض تلك الناحية. وعلى هذا الوادى قطر متسع، وقرى كثيرة وعيون، ومنه تجلب الفواكه إلى مكة - حرسها الله - فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب.

وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود، ملك الدروب والأرمن وما يلى بلاد الروم، وهى إحدى الخواتين الثلاث اللاتى وصلن للحج مع أمير الحاج أبى المكارم طاشتكين، مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة، وله بتولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد.

وخاتون هذا أعظم الخواتين قدرا بسبب سعة مملكة أبيها. والمقصود من ذكر أمرها أنها أسرَت من بطن من ليلة الجمعة إلى مكة، فى خاصة من خدمها وحشمها، فتفقد

موضعها يوم الجمعة المذكور، فوجه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها فى الانصراف، وأقام بالناس منتظرًا لها، فوصلت عتمة يوم السبت.

وأجيلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون : فمنهم من يقول انها انصرفت أنفة لبعض ما انتقدته على الأمير، ومنهم من قال أن نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها لى المثابة المكرمة، ولا يعلم الغيب إلا الله. وكيف ما كان الأمر، فقد كفى الله العطلة بسببها، وأطلق سبيل الحاج، ولله الحمد على ذلك.

وأبو هذه المرأة المذكورة الأمير مسعود كما ذكرناه، وهو فى بسطة من ملكه، واتساع من امرته ؛ يركب له - على ما حقق عندنا - أكثر من مائة ألف فارس. وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها، ويركب له أيضًا نحو اثنى عشر ألف فارس.

ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج : منها سقى الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير. وأمرها يطول وصفها، وسنها نحو خمسة وعشرين عامًا.

والخاتون الثانية : أم معز الدين صاحب الموصل، زوج بابك أخى نور الدين، الذى كان صاحب الشام رحمه الله. ولهذه أفعال كثيرة من البر.

وخاتون الثالثة : ابنة الدقوس صاحب أصبهان من بلاد خراسان، وهى أيضًا كبيرة القدر، عظيمة الشأن، منافسة فى أفعال البر.

وشأنهن جمع عجيب جدًا فى ما هن بسبيله من الخيل، والاحتفال فى الأبهة الملوكية.

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذى الحجة المذكور، ونزلنا بمقربة من عَسْفان، ثم أسرينا إليها نصف الليل، وصبحناها بكرة يوم الأحد. وهى فى بسيط من الأرض بين جبال، وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضى الله عنه، وشجر المقل فيها كثير، وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة، غير معمور، قد أثر فيه القدم، وأوهنته قلة العمارة ولزوم الخراب ؛ فاجتزناها بأميال، ونزلنا مريحين قائلين.

فلما كان اثر صلاة الظهر أقلعنا إلى خليص، فوصلنا عشى النهار. وهى أيضًا فى بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، لها جبل فيه حصن مشيد فى قنته، وفى البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب، وبها عين فوارة قد أحدثت لها أخاديد فى

الأرض مسربة، يستقى منها على أفواه كالآبار، يجدد الناس بها الماء لقلته فى الطريق بسبب القحط المتصل، والله يغيث بلاده وعباده، وأصبح الناس بها مقيمين يوم الاثنين لارواء الإبل واستصحاب الماء.

وهذه الجملة العراقية، ومن انضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق - من الواصلين صحبة أمير الحاج المذكور - جمع لا يحصى عدده إلا الله تعالى : يغص بهم البسيط الأفيح، ويضيق عنهم المهْمَه الصحصاح، فترى الأرض تميد بهم ميدًا، وتموج بجميعهم موجًا. فتبصر منهم بحرًا طامى العباب، ماؤه السراب وسفنه الركاب، وشرعه الظلائل المرفوعة والقباب. تسير سير السحب المتراكمة، يتداخل بعضها على بعض، ويضرب بعضها جوانب بعض. فتعاين لها تزاحمًا فى البراح المنفسح يهول ويروع، واصكاكا نبع المحارات فيه بعضه ببعض مقروع. فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به، ويتحف السامع بغرابته، والقدرة والقوة لله وحده.

وحسبك أن النازل فى منزل من منازل هذه المحلة متى خرج عنها لبعض حاجة، ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضعه، ضل وتلف، وعاد منشودًا فى جملة الضوال. وربما اضطر به الحال إلى الوصول إلى مضرب الأمير ورفع مسألته إليه، فيأمر أحد المنشدين ببريحه والهاتفين بأوامره، ممن قد اعد لذلك، أن يردفه خلفه على جمل، ويطوف به المحلة العجاجة - وهو قد ذكر له اسمه واسم جماله، واسم البلد الذى هو منه - فيرفع عقيرته بذلك، معرفًا بهذا الضال، ومناديًا باسم الجمال وبلده، إلى أن يقع عليه فيؤديه إليه، ولو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه، إلا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقًا. فهذا من بعض عجائب شئون هذه المحلة، وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف، ولأهلها من قوة الجدة واليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء.

ولهؤلاء النسوة الخواتين فى كل عام، إذا لم يحججن بأنفسهن، نواضح مسبلة مع الحاج، يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل فى المواضع المعروف فيهاالماء فى الطريق كله، وبعرفات وبالمسجد الحرام فى كل يوم وليلة ؛ فلهن فى ذلك أجر عظيم، ومالتوفيق إلا بالله جل جلاله.

فتسمع المنادى على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل، فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملؤنها : ويقول المنادى فى اشادته بصوته : أبقى الله الملكة خاتون، ابنة الملك الذى من أمره كذا، ومن شأنه كذا. ويحليه بحلاه، إعلانًا باسمها

واظهارًا لفعلها، واستجلابًا للدعاء لها من الناس، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وقد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون، وأنها عندهم بمنولة السيدة، أو ما يليق بهذا اللفظ الملوكى النسائى.

ومن عجيب هذه المحلة أيضًا - على عظمها وكبرها، وكونها وجود دنيا بأسرها - أنها إذا حطت رحالها ونزلت منزلها، ثم ضرب الأمير طبله للإنذار بالرحيل - ويسمونه الكوس - لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها إلا كلا ولا، فلا يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة إلا والركائب قد أخذت سبيلها، كل ذلك من قوة الاستعداد، وشدة الاستظهار على الأسفار. والحول والقوة لله وحده لا إله سواه.

واسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجالة بأيدهم، فلا تبصر قشاوة من القشاوات إلا وأمامها مشعل. فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة، توضح عسق الظلماء، وتباهى بها الأرض أنجم السماء. والمرافق الصناعية، وغيرها من المصالح الدينية والمنافع الحيوانية، كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة، ووصفها يطول، والأخبار عنها لا تنحصر.

فلما كان ظهر يوم الاثنين اثر الصلاة، أقلعنا من خليص مرتحلين، وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة، ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة، ثم ضرب الكوس، فأقلعنا وأسرينا إلى ضحى من النهار، ثم نزلنا مريحين إلى أول الظهر من يوم الثلاثاء.

ثم أقلعنا من منزلنا ذلك إلى واد يعرف بوادى السمك - اسم يكاد يكون واقعًا على غير مسمى - فنزلناه مع العشاء الآخرة، وأصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء لتجديد حمل الماء، وهو بهذا الوادى فى مستنقعات وربما حفر عليه فى الرمال.

فأقلعنا منه أول ظهر يوم الأربعاء المذكور، ثم أجزنا مع الليل عقبة محجرة كؤودًا ذهب فيها من الجمال كثير، ونزلنا فى بسيط من الأرض، ونمنا إلى نصف الليل، ثم رحلنا فى مَهْمَه أفيح بسيط ممتد مد البصر ورملة منثالة، فمشت الجمال فيها دون مقطرة لانفساح طريقها. ثم نزلنا مريحين قائلين يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة، وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين.

فلما كان أول الظهر رحلنا إلى مقربة من بدر، فنزلنا بائتين، ثم قمنا نصف الليل، فوصلنا بدرًا وقد ارتفع النهار. وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة، وبها حصن فى ربوة مرتفعة، ويدخل إليها على بطن واد بين جبال، وببدر عين فوارة، وموضع

القليب – الذى كان بازائه الوقعة الإسلامية التى أعزت الدين وأذلت المشركين – هو اليوم نخيل، وموضع الشهداء خلفه.

وجبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة عن يسار الداخل منها إلى الصفراء، وبإزائه جبل الطبول، وهو شبيه كثيب رمل ممتد. وهذه التسمية لإشاعة لهج بها أكثر المسلمين، وذلك أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها كل (يوم) جمعة، كأنها آثار انذارات باقية بما سلف من النصر النبوى فى ذلك الموضع، والله أعلم بغيبه.

وموضع عريش النبى صلى الله عليه وسلم يتصل بسفح جبل الطبول المذكور، وموضع الوقيعة أمامه، وعند نخيل القليب مسجد يقال انه مَبْرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم. وصح عندنا – على زعمة أحد الأعراب الساكنين ببدر – أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور، لكن عين لذلك كل يوم اثنين ويوم خميس فعجبنا من زعمه مل العجب، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى.

وبين بدر والصفراء بريد، والطريق إليها فى واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل، والعيون فيه كثيرة، وهو طريق حسن. وبالصفراء حصن مشيد، ويتصل به حصون كثيرة : منها حصنان يعرفان بالتوأمين، وحصن يعرف بالحسنية، وآخر يعرف بالجديد إلى حصون كثيرة وقرى متصلة.

## شهر محرم سنة ثمانين وخمسمائة
## عرفنا الله بركته وبركة سنته

استهل هلاله ليلة السبت، بموفقة الرابع عشر لشهر أبريل، ونحن مقلعون من بدر إلى الصفراء. فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة بدر، حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين، والحمد لله على ذلك.

وكان نزولنا بالصفراء اثر صلاة العشاء الآخرة، فأصبحنا يوم السبت – مستهل الهلال المذكور – مقيمين مريحين بها، ليتزود الناس منها الماء، ويأخذوا نفس استراحة إلى الظهر، ومنها إلى المدينة المكرمة إن شاء الله ثلاثة أيام.

فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور، وتمادى السير بنا إلى اثر صلاة العشاء الآخرة، والطريق فى واد متصل بين جبال، فنزلنا ليلة الأحد.

ثم أقلعنا نصف الليل، وتمادى سيرنا إلى ضحى من النهار، فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم، ويقال إن على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتل الجن بها، وتعرف أيضًا بالروحاء. والبئر المذكورة متناهية بُعد الرشاء، لا يكاد يلحق قعرها، وهى معينة.

ورحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم الأحد، وتمادى بنا السير إلى اثر صلاة العشاء الآخرة، فنزلنا شعب على رضى الله عنه، وأقلعنا منه نصف الليل إلى تربان إلى البيداء، ومنها تبصر المدينة المكرمة، فنزلنا ضحى يوم الاثنين، الثالث لمحرم المذكور، بوادى العقيق، وعلى شفيره مسجد ذى الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمدينة من هذا الوضع على خمسة أميال، ومن ذى الحليفة حرم المدينة إلى مشهد حمزة إلى قباء. وأول ما يظهر لعين منارة مسجدها بيضاء مرتفعة.

ثم رحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم الاثنين المذكور - وهو السادس عشر لأبريل - فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء، والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحيان والآناء.

وفى عشى ذلك اليوم، دخلنا الحرم المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة، فوفقنا بازائها مسلمين، ولترب جنباتها المقدسة مستلمين، وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس والمنبر، واستلمنا أعواد المنبر القديمة، التى كانت موطأ الرسول صلى الله عليه وسلم، والقطعة الباقية من الجذع الذى حنَّ إليه صلى الله عليه وسلم عليه، وهى ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر، وعن يمينك إذا استقبلت القبلة فيها، ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة.

وكان من الاتفاق السعيد لنا أن وجدنا بعض فسحة فى تلك الحال، لاشتغال الناس بإقامة مضاربهم وترتيب رحالهم، فتمكنا من الغرض المقصود، وفزنا بالمشهد المحمود، وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين : صِدِّيق الإسلام، وفاروقه.

وانصرفنا إلى رحالنا مسرورين، ولنعمة الله علينا شاكرين، ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر إلا وقد قضيناه، ولا غرض من أغراضنا المأمولة إلا وبلغناه، وتفرغت الخواطر للإياب للوطن. نظم الله الشمل، وتمم علينا الفضل، والحمد لله على ما أولاه وأسداه، وأعاده من جميل صنعه وأبداه، فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه، لا إله سواه.

## ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر روضته المقدسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل، وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى: فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من

غرب إلى شرق، والجهة الجوفية لها أيضًا خمسة بلاطات على الصفة المذكورة، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات.

والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق، وانتظمت من بلاطاته مما يلى الصحن فى السعة اثنين ونيف إلى خمسة أركان بخمس صفحات، وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله، والصفحات الأربع محرفة من القبلة تحريفًا بديعًا، لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى صلاته لأنه ينحرف عن القبلة.

وأخبرنا الشيخ الإمام العالم الورع، بقية العلماء وعمدة الفقهاء، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التونسى رضى الله عنه: أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، اخترع ذلك فى تدبير بنائها، مخافة أن يتخذها الناس مصلى.

وأخذت أيضًا من الجهة الشرقية سعة بلاطين، فانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبرًا، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبرًا. وما بين الركن الشرقى إلى الركن الجوفى صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبرًا، ومن الركن الجوفى إلى الغربى صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبرًا، ومن الركن الغربى إلى القبلى صفحة سعتها أربعة وعشرون شبرًا.

وفى هذه الصفحة صندوق أبنوس مختم بالصندل، مصفح بالفضة مكوكب بها، هو قبالة رأس النبى ﷺ، وطوله خمسة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أربعة أشبار. وفى الصفحة التى بين الركن الجوفى والركن الغربى، موضع عليه ستر مسبل، يقال أنه كان مهبط جبريل عليه السلام.

فجميع سعة الروضة المكرمة، من جميع جهاتها، مائتا شبر واثنان وسبعون شبرًا. وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت، وينتهى الازار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرًا، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر، قد علاه تضميخ المسك والطيب، مقدار نصف شبر، مسودًا مشققًا متراكمًا مع طول الأزمنة والأيام، والذى يعلوه من الجدار شبابيك عود متصلة بالسمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد. وإلى حيز ازار الرخام تنتهى الأستار، وهى لازوردية اللون، مختمة بخواتيم بيض مثمنة ومربعة، وفى داخل الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض تحف بها، فمنظرها منظر رائق بديع الشكل، وفى أعلاها رسم مائل إلى البياض.

وفى الصفحة القبلية، أمام وجه النبى ﷺ، مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم، فيقف الناس أمامه للسلام. وإلى قدميه - ﷺ - رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، فيقف المسلم مستدبر القبلة

ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبى بكر، ثم إلى وجه عمر رضى الله عنهما.

وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من الفضة، وفيها اثنان من ذهب. وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب، قيل أنه كان بيت فاطمة رضى الله عنها، ويقال هو قبرها، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة، وهو فى الحوض المبارك الذى طوله أربع عشر خطوة وعرضه ست خطًا، وهو مرخم كله، وارتفاعه شبر ونصف، وبينه وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر — وفيها جاء الأثر أنها «روضة من رياض الجنة» — ثمانى خطوات.

وفى هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة، وحق لهم ذلك. وبازائها لجهة القبلة عمود يقال أنه مطبق على بقية الجذع الذى حن للنبى ﷺ، وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس، ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيها، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق.

وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر. والمنبر مغشًّى بعود الأبنوس، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طبق عليه بلوح من الأبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه؛ فيدخل الناس أيديهم إليه، ويتمسحون به تبركًا بلمس ذلك المقعد الكريم.

وعلى رأس رجل المنبر اليمنى حيث يضع الخطيب يده إذا خطب، حلقة فضة مجوفة مستطيلة — تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه صفة لا صغرًا لأنها أكبر منها — لاعبة تستدير فى موضعها، يزعم الناس أنها لعبة الحسن والحسين رضى الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات الله وسلامه عليه.

وطول المسجد الكريم مائة خطوة وست وتسعون خطوة، وسعته مائة وست وعشرون خطوة، وعدد سواريه مائتان وتسعون، وهى أعمدة متصلة بالسمك دون قسى تنعطف عليها، فكأنها دعائم قوائم، وهى من حجر منحوت قطعًا قطعًا، ململمة مثقبة توضع أنثى فى ذكر، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن تتصل عمودا قائما، وتكسى بغلالة جيار، ويبالغ فى صقلها ودلكها، فتظهر كأنها رخام أبيض.

والبلاد المتصل بالقبلة، من الخمسة بلاطات المذكورة، تحف به مقصورة تكتنفه طولاً من غرب إلى شرق، والمحراب فيها، ويصلى الإمام فى الروضة الصغير المذكورة إلى جانب الصندوق، وبينهما وبين الروضة والقبر المقدس محمل كبير مدهون، عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد.

وبازاء المقصورة، إلى جهة الشرق، خزانتان كبيرتان، محتويتان على كتب ومصاحف موقفة على المسجد المبارك، ويليهما فى البلاط الثانى، لجهة الشرق أيضًا، دفة مطبقة على وجه الأرض، مقفلة هى على سرداب يهبط إليها على أدراج تحت الأرض، يفضى إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهو كان طريق عائشة إليها، وبازائها دار عمر بن الخطاب، ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما. ولاشك أن ذلك الموضع هو موضع الخوخة المفضية لدار أبى بكر التى أمر النبى ﷺ بابقائها خاصة.

وأما الروضة المقدسة أيضًا صندوق كبير، هو للشمع والأنوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة. وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود، هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك. وسدنته فتيان أحابيش وصقالب ظراف الهيئات، نظاف الملابس والشارات، والمؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال رضى الله عنه.

وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج إليه فيه، وبازائها فى الصحن خمس عشرة نخلة، وعلى رأس المحراب الذى فى جدار القبلة — داخل المقصورة — حجر مربع أصفر، قدر شبر فى شبر، ظاهر البريق والبصيص، يقال أنه كان مرآة كسرى، والله أعلم بذلك. وفى أعلاه، داخل المحراب، مسمار مثبت فى جدار، فيه شبه حق صغير لا من أى شىء هو، ويزعم أيضًا أنه كان كأس كسرى، والله أعلم بحقيقة ذلك كله.

ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع ازارا على ازار، مختلف الصبغة واللون، مجزع أبدع تجزيع. والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة، تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات، مائلات الأغصان بثمرها.

والمسجد كله على تلك الصفة، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك، ومن جهة الجوف أيضًا، والغربى والشرقى الناظران إلى الصحن مجردان أبيضان ومقرنصان، قد زينا برسم يتضمن أنواعًا من الأصبغة؛ إلى

ما يطول وصفه وذكره من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك، المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة، وموضوعها أشرف، ومحلها أرفع من كل ماتزين به.

وللمسجد المبارك تسعة عشر بابًا، لم يبق منها مفتحًا سوى أربعة فى الغرب: منها اثنان يعرف الواحد بباب الرحمة، والثانى بباب الخشية، وفى الشرق اثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام، والثانى بباب الرخاء، ويقابل باب جبريل عليه السلام دار عثمان رضى الله عنه، وهى التى استشهد بها، ويقابل الروضة المكرمة من هذه الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصلى رحمه الله، المشهور خبره وأثره، وقد تقدم ذكر مآثره.

وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح إلى روضته، تتنسم منها روحًا وريحانًا، وفى القبلة باب واحد صغير مغلق، وفى الجوف أربعة مغلقة، وفى الغرب خمسة مغلقة أيضا، وفى الشرق خمسة أيضًا مغلقة؛ فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر بابًا.

وللمسجد المبارك ثلاث صوامع: أحداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة، والاثنتان فى ركن الجهة الجوفية صغيرتان، كأنهما على هيئة برجين، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع.

## ذكر المشاهد المكرمة
## التى ببقيع الغرقد وصفح جبل أحد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه - وهو بقبلى الجبل المذكور، والجبل جوفى المدينة، وهو على مقدار ثلاثة أميال - وعلى قبره رضى الله عنه مسجد مبنى، والقبر برحبة جوفى المسجد والشهداء رضى الله عنهم بازائه، والغار الذى أوى إليه النبى ﷺ بازاء الشهداء أسفل الجبل، وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب إلى حمزة، ويتبرك الناس بها.

وبقيع الغرقد شرقى المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأول ما تلقى عن يسارك — عند خروجك من الباب المذكور- مشهد صفية عمة النبى ﷺ، أم الزبير بن العوام رضى الله عنه. وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدنى رضى الله عنه، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبى ﷺ، وعليه قبة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه، أسمه عبد الرحمن الأوسط، وهو المعروف بأبى شحمة، وهو الذى جلده أبوه الحد، فمرض ومات رضى الله عنهما.

وبازائه قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وعبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه، وبازائهم روضة فيها أزواج النبى ﷺ، وبازائها روضة صغيرى فيها ثلاثة من أولاد النبى ﷺ.

ويليها روضة العباس بن عبد المطلب، والحسن بن على رضى الله عنهما، وهى قبة مرتفعة فى الهواء، على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلى العباس رضى الله عنهما. وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان، مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبى ﷺ.

ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، ويعرف ببيت الحزن، يقال أنه الذى أوت إليه، والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى ﷺ.

وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين رضى الله عنه، وعليه قبة صغيرة مختصرة. وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد، أم على رضى الله عنها وعن بنيها. ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى، لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب «ما ضم قبر أحد فاطمة بنت أسد رضى الله عنها وعن بنيها».

وقُباء قبلى المدينة، ومنها إليها نحو الميلين، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة، والطريق إليها بين حدائق النخل المتصلة، والنخيل محدق بالمدينة من جهاتها، وأعظمها جهة القبلة والشرق وأقلها جهة الغرب.

والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد، وهو مربع مستوى الطول والعرض، وفيه مئذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى ﷺ، وعلى حلق قصير شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه، وفى صحته مما يلى القبلة شبه محراب على مصطبة، هو أول موضع ركع فيه النبى ﷺ، وفى قبلته محاريب، وله باب واحد من جهة الغرب، وهو سبعة بلاطات فى الطول ومثلها فى العرض.

وفى قبلة المسجد دار لبنى النجار، وهى دار أبى أيوب الأنصارى. وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر، وبازائها على الشفير حجر متسع شبيه البيلة، يتوضأ الناس فيه. ويلى دار بنى النجار دار عائشة رضى الله عنها، وبازائها دار عمر، ودار فاطمة، ودار أبى بكر رضى الله عنهم، وبازائها بئر أريس، حيث تفل النبى ﷺ، وفعاد ماؤها

عذبًا بعد ما كان أجاجًا، وفيها وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه، والحديث مشهور.

وفى آخر القرية تل مشرف يعرف بعرفات، يدخل إليه على دار الصفة — حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة — وسمى ذلك التل عرفات، لأنه كان موقف النبى ﷺ عرفة، ومنه زويت له الأرض، فأبصر الناس بعرفات، وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصى.

وللمدينة المكرمة أربعة أبواب، وهى تحت سورين، فى كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، ويعرف باسمه باب الحديد، ويليه باب الشريعة، ثم باب القبلة وهو مغلق، ثم باب البقيع وقد تقدم ذكره.

وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة، تلقى الخندق الشهير ذكره، الذى صنع النبى ﷺ عند تحزب الأحزاب، وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبى ﷺ، وعليها حلق عظيم مستطيل.

ومنبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل، وتحته سقايتان مستطيلتان باستطالة الحلق، وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار، فحصل الحوض محدقًا بجدارين، وهو يمد الساقيتين المذكورتين، ويهبط اليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجًا.

وماء هذه العين المباركة يعم أهل الأرض، فضلاً عن أهل المدينة، فهى لتطهر الناس واستقائهم وغسل أثوابهم. والحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء خاصة، صونًا له ومحافظة عليه، وبمقربة منه مما يلى المدينة قبة حجر الزيت، يقال أن الزيت رشح للنبى ﷺ من ذلك الحجر، ولجهة الجوف منه بئر بضاعة، وبازائها لجهة اليسار جبل الشيطان، حيث صرخ — لعنه الله — يوم أحد، حين قال: قتل نبيكم.

وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزاب، وهو خرب، قيل أن عمر رضى الله عنه بناه لعزاب المدينة، وأمامه لجهة الغرب على البعد بئر رومة، التى اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفا. وفى طريق أحد مسجد على رضى الله عنه، ومسجد سليمان رضى الله عنه ومسجد الفتح الذى أنزلت فيه على النبى ﷺ سورة الفتح.

وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد، يهبط إليها على أدراج، وماؤها معين، وهى بمقربة من الحرام الكريم. وبقبلى هذا الحرم المكرم دار أمام دار الهجرة مالك ابن أنس رضى الله عنه، ويطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش.

فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة ومشاهدها، على جهة الاقتضاب والاختصار، والله ولى التوفيق.

## الخاتون بنت الأمير مسعود

ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة، الداخلة مدخل السمعة والشهرة، أن إحدى الخواتين المذكورات — وهى بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها وذكر أبيها — وصلت عشى يوم الخميس السادس لمحرم، ورابع يوم وصولنا، إلى مسجد رسول الله ﷺ راكبة فى قبتها، وحولها قباب كرائمها وخدمها، والقراء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها، ويدفعون الناس أمامها، إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم.

فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، ومشت إلى أن سلمت على النبى ﷺ، والخيول أمامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها اشادة بذكرها. ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر، فصلت فيها تحت الملحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها، ثم صلت فى الحوض بازاء المنبر.

ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة، فقعدت فى الموضع الذى يقال أنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخى الستر عليها، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها، واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة، فما زالت فى موضعها إلى الليل.

## وعظ رئيس العلماء

وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين، رئيس الشافعية الأصبهانى، الذى ورث النباهة والوجاهة فى العلم كابرا عن كابر، لعقد مجلس وعظ تلك الليلة — وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم — فتأخر وصوله إلى هدء من الليل، والحرم قد غص بالمنتظرين، والخاتون جالسة موضعها. وكان سبب تأخره تأخر أمير الحجاج، لأنه كان على عدة من وصوله إلى أن وصل، ووصل الأمير.

وقد أعد لرئيس العلماء المذكور — وهو يعرف بهذا الاسم، توارثه عن أب فأب — كرسى بازاء الروضة المقدسة فصعده، وحضر قراؤه أمامه، فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة، وتلاحين مطربة مشجية، وهو يلحظ الروضة المقدسة، فيعلن بالبكاء.

ثم أخذ فى خطبة من انشائه سحرية البيان، ثم سلك فى أساليب من الوعظ باللسانين، وأنشد أبياتا بديعة، من قوله منها هذا البيت، وكان يردده فى كل فصل من ذكره صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى الروضة:

هاتيك روضته تفوح نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام، وقال عجبا للألكن الأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب!

وتمادى فى وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة. وتهافتت عليه الأعاجم معلنين بالتوبة، وقد طاشت ألبابهم، وذهلت عقولهم، فيلقون نواصيهم بين يديه، فيستدعى جملين ويجزها ناصية ناصية، ويكسو عمامته المجزوز الناصية، فيوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو جلسائه، ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك، فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم، فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى إلى أن خلع منها عدة، وجز نواصى كثيرة.

ثم ختم مجلسه بان قال: معشر الحاضرين قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل، وهذه الليلة بحرم رسوله ﷺ، ولابد للواعظ من كدية، وأنا أسألكم حاجة أن ضمنتموها لى أرقت لكم ماء وجهى فى ذكرها. فأعلن الناس كلهم بالاسعاف وشهيقهم قد علا، فقال: حاجتى أن تكشفوا رءوسكم، وتبسطوا أيديكم، ضارعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنى، ويسترضى الله عز وجل لى.

ثم أخذ فى تعداد ذنوبه، والاعتراف بها. فأطار الناس عمائمهم وبسطوا أيديهم للنبى ﷺ، داعين له باكين متضرعين. فما رأيت ليلة أكثر دموعا، ولا أعظم خشوعا من تلك الليلة. ثم انفض المجلس، وانفض الأمير، وانفضت الخاتون من موضعها، وعند وصول صدر الدين المذكور، أزيل الستر عنها، وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة فى ردائها، فعاينا من أمرها فى الشهرة الملوكية عجبًا.

وأمر هذا الرجل صدر الدين عجيب، فى قُعدده وأبهته وملكويته، وفخامة آلته وبهاء حالته، وظاهر مكنته، ووفور عدته، وكثرة عبيده وخدمته، واحتفال حاشيته وغاشيته. فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك، وله مضرب كالتاج العظيم فى الهواء، مفتح على أبواب على هيئة غريبة الوضع، بديعة الصنعة والشكل، تطل على المحلة من بعد، فتبصره ساميا فى الهواء.

وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف. شاهدنا مجلسه فرأينا رجلاً يذوب طلاقة و بشرًا، ويخف للزائر كرامة وبرًا، على عظيم حرمته وفخامة بنيته، وهو قد أعطى البسطتين علمًا وجسمًا. استجزناه فأجازنا نثرًا ونظمًا، وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات.

وفى يوم الجمعة المذكور، وهو السابع من محرم، شاهدنا من أمور البدعة أمرًا ينادى له الإسلام يالله يا للمسلمين! وذلك أن الخطيب وصل الخطبة، فصعد منبر النبى ﷺ. وهو — على ما يذكر — على مذهب غير مرضى، ضد الشيخ الإمام العجمى الملازم صلاة الفريضة فى المسجد المكرم، فذلك على طريقة من الخير والورع لائقة بإمام مثل ذلك الموضع الكريم.

فلما أذن المؤذنون قام هذا الخطيب المذكور للخطبة، وقد تقدمته الرايتان السوداوان، وقد ركزتا بجانبى المنبر الكريم، فقام بينهما. فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل فى السرعة، وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف، ويتخطون الرقاب، كدية على الأعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق.

فمنهم من يطرح الثوب النفيس، ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطيها — وقد أعدها لذلك — ومنهم من يخلع عمامته فينبذها، ومنهم من يتجرد عن برده فيلقى به. ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح بفضلة من الخام، ومنهم من يدفع القراضة من الذهب. ومنهم من يمدّ يده بالدينار والدينارين إلى غير ذلك. ومن النساء من تطرح خلخالها. وتخرج خاتمها فتلقيه، إلى ما يطول الوصف له من ذلك.

والخطيب فى أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر، يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس بلحظات يكررها الطمع، ويعيدها الرغبة والاستزادة، إلى أن كاد الوقت ينقضى والصلاة تفوت. وقد ضج من له دين وصحة من الناس، وأعلن بالصياح، وهو قاعد ينتظر اشتفاف صبابة الكدية. وقد أراق عن وجهه ماء الحياء. فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه، فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة، وصلى بالناس، وانصرف أهل التحصيل باكين على الدين، يائسين من فلاح الدنيا، متحققين أشراط الآخرة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وفى عشى ذلك اليوم المبارك، كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة. فياله وداعًا عجبًا ذهلت له النفوس ارتياعًا حتى طارت شعاعًا واستشرت به النفوس التياعًا حتى

ذابت انصداعًا. وما ظلك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين!

إنه لموقف تنفطر له الأفئدة، وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة. فوا أسفاه! وا أسفاه! كل يبوح لديه بأشواقه، ولا يجد بدا من فراقه، فما يستطيع إلى الصبر سبيلاً، ولا تسمع فى هول ذلك المقام إلا رنة وعويلاً، وكل بلسان الحال ينشد:

محبتى تقتضى مقامى وحالتى تقتضى الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبى الكريم منزل الكرامة، وجعله شفيعًا لنا يوم القيامة، وأحلنا من فضله فى جواره دار المقامة برحمته، إنه غفور رحيم، جواد كريم.

وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام: أولها يوم الاثنين، وآخرها يوم الجمعة.

## من المدينة إلى العراق

وفى ضحوة يوم السبت الثامن لمحرم المذكور، والحادى والعشرين من شهر أبريل، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق – قرب الله لنا المرام، وسهل علينا السبيل – واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام. فنزلنا يوم الاثنين، ثالث يوم رحيلنا المذكور، بوادى العروس، فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه فى الأرض بئرًا، فينبع منها ماء عذب معين، يروى الأمة التى لا يحصى لها عدد من هذه المحلة، مع جمالها التى تنيف على عددها، ولله القدرة سبحانه.

وصعدنا من وادى العروس إلى أرض نجد، وخلفنا تهامة وراءنا، ومشينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها، ولا يبلغ مداها، وتنسمنا نسيم نجد وهواءها المضروب به المثل، فانتشعت النفوس والأجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه. ونزلنا يوم الثلاثاء، رابع يوم رحيلنا، على ماء يعرف بماء العسيلة. ثم نزلنا يوم الأربعاء، خامس يوم رحيلنا، بموضع يعرف بالنقرة، وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام، وجدنا أحدها مملوء بماء المطر، فعم جميع المحلة، ولم ينضب على كثرة الاستماحة.

وصفة مراحل هذا الأمير بالحاج: أن يسرى من نصف الليالى إلى ضحية، ثم ينزل إلى أول الظهر، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة، ثم يقوم نصف الليل؛ هذا دأبه.

ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم، وسادس يوم رحيلنا، على ماء يعرف بالقارورة، وهى مصانع مملوءة بماء المطر، وهذا الموضع هو وسط أرض نجد. وما أرى أن

فى المعمورة أرضا أفسح بسيطًا، ولا أوسع أنفًا، ولا أطيب نسيمًا، ولا أصح هواء، ولا أمد استواء، ولا أصفى جوًا، ولا أتقى تربة، ولا أنعش للنفوس والأبدان، ولا أحسن اعتدالاً فى كل الأزمان؛ من أرض نجد، ووصف محاسنها يطول، والقول فيها يتسع.

وفى يوم الخميس المذكور. مع ضحوة النهار، نزلنا بالحاجر، والماء فيه فى مصانع، وربما حفروا عليه حفرا قريبة العمق يسمونها أحفارا: وأحدها حفر. وكنا نتخوف فى هذا الطريق قلة الماء، لا سيما مع عظم هذا الجمع الأنامى والأنعامى الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه، فأنزل الله من سحب رحمته ما أعاد الغيطان غدرانا، وأجرى المسول سيولاً، وصير الوهاد مملوءة عهادًا. فكنا نبصر مذانب الماء سائحة على وجه الأرض: فضلاً من الله ونعمة، ولطفًا من الله بعباده ورحمة، والحمد لله على ذلك.

وفى اليوم المذكور أجزنا بالحاجز واديين سيالين، وأما البرك والقرارات فلا تحصى.

وفى يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة، وهى موضع معمور، وفى بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون، والماء فيه فى آبار كثيرة إلا أنها زعاق ومستنقعات وبرك. وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن، ووقع الناس على قَرم وعيمة، فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التى يستصحبونها لمشاراة الأعراب، لأنهم لا يبايعونهم إلا بها.

وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق، وهو جبل فى بيداء من الأرض، وفى صفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح. ثم رحنا من ذلك الموضع، وبتنا بوادى الكروش على غير ماء، ثم أسرينا منه، وأصبحنا على فَيْد يوم الأحد. وهى حصن كبير مبرج مشرف فى بسيط من الأرض، يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان، وهو معمور بسكان من الأعراب، ينتعشون مع الحاج فى التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق.

وهناك يترك الحاج بعض زادهم إعدادًا للأرمال من الزاد عند انصرافهم، ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم. وهذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة -شرفها الله-أوأقل يسيرًا، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يومًا فى طريق سهلة طيبة، والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع كثيرة. ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأهبة، إرهابا للمجتمعين به من الأعراب، لئلا يداخلهم الطمع فى الحاج. فهم يلحظونهم مستشرفين إلى مكانهم، لكنهم لا يجدون إليهم سبيلا، والحمد لله.

والماء بهذا الموضع كثير، فى آبار تمدها عيون تحت الأرض. ووجد الحاج فيها مصنعًا قد اجتمع فيه الماء من المطر، فانتزف للحين، وامتلأت أيدى الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة، فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة، إلا وإلى جانبها كبش أو كبشان بحسب القدرة والوجد، فعم جميع المحلة غنم العرب، وكان ذلك اليوم عيدًا من الأعياد، وكذلك عمتهم أيضًا جمالهم لمن أراد الابتياع منهم من الجمالين وسواهم، للاستظهار على الطريق. وأما السمن والعسل واللبن، فلم يبق إلا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته.

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها إلى ظهر يوم الاثنين بعده. ثم أسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل، ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم، وهو أول يوم من مايه، بموضع يعرف بالأجفر، وهو مشتهر عندهم بموضع جميل وبثينة العذربين. ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة، ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة.

ثم أسرينا منها، ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزرود، وهى وهدة فى بسيط من الأرض فيها رمال منهالة، وبها حلق كبير داخله دويرات صغار، هو شبيه الحصن، يعرف بهذه الجهات بالقصر، والماء بهذا الموضع فى آبار غير عذبة. فنزلنا ضحوة يوم الخميس، الموفى عشرين لمحرم والثالث لمايه، بموضع يعرف بالثعلبية، ولها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه إلا الحلق، بازائه مصنع عظيم كبير الدور، من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلاها، والمهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات، وكان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة.

ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساء، واتخذوا به سوقًا عظيمة حفيلة للحمال والكباش والسمن واللبن وعلف الإبل، فكان يوم سوق نافقة. وبقى من هذا الموضع إلى الكوفة، من المناهل التى تعم جميع المحلة، ثلاثة. أحدها زبالة، والثانى واقصة، والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة. وبين هذه المناهل مياه موجودة، لكنها لا تعم، وهذه الثلاثة المذكورة هى التى تعم الناس والإبل، وهى التى تردها رفها.

وفى هذا المنهل الذى للثعلبية، شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمرًا هائلاً لا يكاد يشاهد مثله فى تغلب المدن والحصون بالقتال. وحسبك أن مات فى ذلك الموضع، ضغطًا بشدة الزحام وغطا تحت الماء بالأقدام، سبعة رجال: بادروا لمورد الماء، فحصلوا على مورد الفناء، رحمهم الله وغفر لهم.

وفى ضحوة يوم الجمعة بعده، نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم، وهى مصنع، وقد بنى له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدى الماء إليه على بعد، وأحكم ذلك أحكامًا يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاعة. ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق، وقد علا كأنه هضبة شماء، وكل مجتاز عليه لابد أن يلقى عليه حجرًا. ويقال أن أحد الملوك رجمه لأمر استوجب به ذلك، والله أعلم.

وبهذا الموضع بيوت كثيرة العرب، وبادروا للحين بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج، وكان هذا المصنع مملوء من ماء المطر، فغمر الناس وعمهم، والحمد لله.

وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التى من بغداد إلى مكة، هى آثار زبيدة ابنة جعفر ابن أبى جعفر المنصور، زوج هارون الرشيد وابنة عمه. انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت فى هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سلكت هذا الطريق، والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها.

وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبًا صافيًا، فأراق الناس مياههم، وجددوا مياها طيبة، واستبشروا بكثرة الماء، وجددوا شكر الله على ذلك. وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها، لا يكاد يقطعه السابح إلا عن جَهد ومشقة، وكان الماء قد علا فيه أزيد من قامتين، فتنعم الناس من مائه سباحة واغتسالاً وتنظيف أثواب، وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر.

ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده ووزار حرمه، أن كانت هذه المصانع كلها – عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة – دون ماء، فأرسل الله من سُحبِ رحمته ما أترعها ماء معدا لصدر الحاج، فضلا من الله ولطفا بوفده المنقطعين إليه.

ورحنا من ذلك الموضع المذكور، وبتنا بموضع يعرف بالتنانير، وكان فيه أيضًا مصنع مملوء ماء. وأسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث والعشرين لمحرم، واجتزنا سحرًا بزبالة، وهى قرية معمورة، وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب، ومصنعان للماء وآبار، وهى من مناهل الطريق الشهيرة.

ونزلنا، عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور، بالهيثمين، وفيها مصنعان للماء. ولا نكاد نمر، بحول الله، يوما بموضع إلا والماء يوجد فيه، والشكر لله على ذلك. وبتنا ليلة الاثنين، الرابع والعشرين لمحرم المذكور، على مصنع مملوء ماء، فسقى الناس بالليل واستقوا. وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان.

ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة، وليست بالطويلة الكؤود، ولكن ليس بالطريق وعر غيرها، فهي شهيرة بهذا السبب. ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء، وأجزنا مصانع كثيرة، وما منها مصنع إلا وإلى جانبه قصر مبني من قصور الأعراب، والطريق كلها مصانع، ورضي الله عن التي اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء.

ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة، وهي وهدة من الأرض منفسحة، فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير، وبازائه أثر بناء، وهي معمورة بالأعراب، وهي آخر مناهل الطريق، وليس بعدها إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات، ومنها إلى الكوفة ثلاثة أيام، وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة، وهم مستجلبون إليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه الحاضرة في ذلك الوقت، ويهنيء الناس بعضهم بعضًا بالسلامة. والحمد لله عز وجل على ما منَّ به من التيسير والتسهيل، حمدا يستوجب المزيد، ويستصحب من كريم صنعه المعهود.

وبتنا ليلة الأربعاء، السادس والعشرين، بموضع يعرف بلوزة، وفيها مصنع كبير وجده الناس مملوءا، فجددوا الاستسقاء، ورفهوا الإبل. ثم أسرينا منها، وأجزنا سحر يوم الأربعاء المذكور، بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء، وفيه أيضًا مصنع ماء، وله ستة مخازن، وهي صهاريج صغار تؤدى الماء إلى المصانع، استقى الناس فيها وسقوا، وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها، والحمد لله على منته وسابغ نعمته.

وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء. ثم نزلنا، ضحوة اليوم المذكور، بمنارة تعرف بمنارة القرون، وهي منارة في بيداء من الأرض لا بناء حولها، قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر، قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية، مثمنة ومربعة، أشكال بديعة. ومن غريب أمرها أنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها، فتلوح كظهر الشيهم، وللناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من إثباته. وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج مشيدة، وبازائه مصنع عظيم وجد مملوءًا ماء، والحمد لله على ما منَّ به.

واجتزنا عشي يوم الخميس المذكور على العُذيب، وهو واد خصيب، وعليه بناء، وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة، وأعلمنا أن بمقربة منه بارقًا. ووصلنا منه إلى الرحبة، وهي بمقربة منه، وفيها بناء وعمارة، ويجرى الماء فيها من عين نابعة في أعلى القرية المذكورة، وبتنا أمامها بمقدار فرسخ.

ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل، واجتزنا على القادسية، وهى قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل، ومشارع من ماء الفرات. وأصبحنا بالنجف، وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء، وهو صلب من الأرض منفسح متسع للعين، فيه مزاد استحسان وانشراح. ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور، والحمد لله على ما أنعم به من السلامة.

## ذكر مدينة الكوفة، حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر. ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهى لا تزال تضرُّ بها، وكفاك بتعاقب الأيام والليالى محييًا ومفنيًا. وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها.

والجامع العتيق آخرها مما يلى شرقى البلد، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق، وهو جامع كبير: فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة، وفى سائر الجوانب بلاطان. وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة. من صم الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، ولا قسىَّ عليها، على الصفة التى ذكرناها فى مسجد رسول الله ﷺ، وهى فى نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها، فما أرى فى الأرض مسجدا أطول أعمدة منه، ولا أعلى سقفًا.

ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة: فمنها بيت بازاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال إنه كان مصلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وعليه ستر أسود صوتا له، ومنه يخرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة، فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه.

وعلى مقربة منه - مما يلى الجانب الأيمن من القبلة - محراب محلق عليه بأعواد الساج، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين.

وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلى، المتصل بآخر البلاط الغربى، شبيه مسجد صغير، محلق عليه أيضًا بأعواد الساج، هو موضع مفار التنور الذى كان آية لنوح عليه السلام. وفى ظهره خارج المسجد بيته الذى كان فيه، وفى ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبد إدريس عليه السلام، ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال إنه كان مُنشأ

السفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه، والبيت الذى غسل فيه، (و) يتصل به بيت يقال إنه كان بيت ابنة نوح ﷺ، وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد، فأثبتناه حسبما نقلوه إلينا، والله أعلم بصحة ذلك كله.

(وفى) الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه. وفى جوفى الجامع، على بعد منه يسير، سقاية كبيرة من ماء الفرات، فيها ثلاثة أحواض كبار. (وفى) غربى المدينة، على مقدار فرسخ منها، المشهد الشهير الشان، المنسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها، مسجى ميتًا على ما يذكر، ويقال إن قبره فيه، والله أعلم بصحة ذلك. وفى هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا، لأنا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك، لأنا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت.

وفى غدائه رحلنا، ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات. والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلى الجانب الشرقى، والجانب الشرقى كله حدائق نخيل ملتفة، يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر. ورحلنا من ذلك الموضع، وبتنا ليلة الأحد منسلح محرم بمقربة من الحلة، ثم جئناها يوم الأحد المذكور.

## ذكر مدينة الحلة، حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة، عتيقة الوضع مستطيلة، لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابى مستدير بها، وهى على شط الفرات: يتصل بها من جانبها الشرقى ويمتد بطولها. (و)لهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية، وهى قوية العمارة، كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجًا، فديارها بين حدائق النخيل.

وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار، متصلة من الشط إلى الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد، كالأذرع المفتولة عظما وضخامة، ترتبط إلى خشب مثبتة فى كلا الشطين، تدل على عظم الاستطاعة والقدرة. أمر الخليفة بعقده على الفرات، اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله، وكانوا قبل ذلك يعبرون فى المراكب، فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة فى مغيبهم، ولم يكن عند شخوصهم إلى مكة شرفها الله.

وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور، ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد. وهذا النهر، كاسمه فرات، هو من أعذب المياه وأخفها، وهو نهر كبير زخّار تصعد فيه السفن وتنحدر.

والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها، فى بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينًا وشمالاً، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها فمحرثها لأحد لاتساعه وانفساحه، فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مزاد انبساط وانفساح، والأمن فيها متصل بحمد الله سبحانه.

## شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمنه وبركته

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين، بموافقة الرابع عشر من مايه، استهل هلاله ونحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحلة. وفى ضحوة يوم الاثنين المذكور رحلنا، وأجزنا جسرًا على نهر يسمى النيل، وهو فرع متشعب من الفرات، وكان عليه ازدحام غرق كثير من الناس والدواب فى الماء، فتنحينا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم، وعبرنا على سلامه وعافية، والحمد لله.

ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاج إرسالاً وأفواجًا أفواجًا: فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر، لا يعرج المستعجل على المتعذِّر، ولا المتقدم على المتأخر، فحيثما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا، وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذى كانت الأفئدة ترجف له، بدارًا للرحيل واستعجالا للقيام، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس، فيقوم عجلاً وجلاً، ثم يتحقق أنه من أضغاث أحلامه فيعود إلى منامه.

ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد، فلا تكاد تمشى ميلاً إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات. فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير، وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق – اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج – دون اعتراض منها لاستنفاع بكدية أو سواها. فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها، ولتراكموا وقوعًا بعض على بعض.

والأمير طاشتكين، المتقدم الذكر، يقيم بالحلة ثلاثة أيام إلى أن يتقدم جميع الحاج، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته، وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة. وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج، والاحتياط عليهم، والاحتراس لمقدَّمتهم وساقتهم، وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم – سيرة محمودة، وطريقته فى الحزم وحسن النظر طريقة سديدة. وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان، على وتيرة سعيدة، نفعه الله ونفع المسلمين به.

وفى عصر يوم الاثنين المذكورة نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة، كثيرة الخصب، كبيرة الساحة، متدفقة فيها جداول الماء، وارفة الظلال بشجرات الفواكه، من أحسن القرى وأجملها، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدودبة، يصعد إليها وينحدر

عنها، فتعرف القرية بها، وتعرف أيضًا بحصن بشير. وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات فى هذا الوقت، الذى هو نصف مابه.

ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثانى لصفر، فنزلنا قائلين ضحوته بقرية تعرف بالفراش، كثيرة العمارة يشقها الماء، وحولها بسيط أخضر جميل المنظر. وقرى بهذه الطريق، من الحلة إلى بغداد، على هذه الفلاسفة من الحسن والاتساع. وفى هذه النظرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار له شرفات صغار.

ثم رحلنا منها، ونزلنا عشى النهار بقرية تعرف بزريران. وهذه القرية من أحسن قرى الأرض، وأجملها منظرا، وأفسحها ساحة، وأوسعها اختطاطًا، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل، وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن. وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسقى شرقيها، والفرات يسقى غربيها، وهى كالعروس بينهما، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين.

ومن شرف هذه القرية أيضًا أن بازائها، لجهة الشرق منها، ايوان كسرى، وأمامها بيسير مداينه. وهذا الايوان بناء عال فى الهواء شديد البياض، لم يبق من قصوره إلا البعض، فعايناها على مقدار الميل سامية مشرفة مشرقة. وأما المداين فخراب، اجتزنا عليها سحر يوم الأربعاء الثالث لصفر، فعاينا من طولها واتساعها مرأى عجيبًا.

ومن فضائل هذه القرية أيضًا أن بالشرق منها، بمقدار نصف فرسخ، مشهد سلمان الفارسى رضى الله عنه، فما اختصت تربتها بهذا الدفين المبارك رضى الله عنه إلا لفضل تربتها. والقرية على شط دجلة، وهى تعترض بينها وبين المشهد الكريم المذكور.

وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور فى القلب، ويبعث النفس دائمًا على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طربًا، وإن كان نازح الدار معتربًا حتى حللنا بهذا الموضع المذكور - وهو على مرحلة منها - فلما نفحتنا نوافح هوائها، ونقعنا الغلة ببرد مائها، أحسسنا من نفوسنا - على حال وحشة الاغتراب - دواعى من الأطراب، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغُيَّاب بالإياب، وهبت بنا محركات من الأطراب، أذكرتنا معاهد الأحباب فى ريعان الشباب؛ هذا للغريب النازح الوطن، فكيف للوافد فيها على أهل وسكن؟

سقى الله باب الطاق صوب غمامةٍ ورد إلى الأوطان كلّ غريب

وفى سحر يوم الأربعاء المذكور، رحلنا من القرية المذكورة، واجتزنا على مداين كسرى حسبما ذكرناه، وانتهينا إلى صرصر، وهى أخت زريران المذكورة حسنًا أو قريب منها،

ويمر بجانبها القبلي نهر كبير متفرع من الفرات، عليه جسر معقود على مراكب، تحف بها من الشط إلى الشط سلاسل حديد عظام، على الصفة التي ذكرناها في جسر الحلة؛ فعبرناه وأجزنا القرية، ونزلنا قائلين وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ. وبهذه القرية سوق حفيلة، ومسجد جامع كبير جديد، وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسنا.

وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتهما عن وصفهما، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة، ومنها انصبابهما إلى البحر، ومجراهما من الشمال إلى الجنوب، وحسبهما ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما النيل مما هو مذكور مشهور.

ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور، وجئنا بغداد قبيل العصر، والمدخل إليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها.

## ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى

هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل أنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها، كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص. فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر، إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي تردها ولا تظمأ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ، هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففتن الهوى - إلا أن يعصم الله منها - مخوفة.

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبًا وكبرياء. يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والأباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء. قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم. يسحبون أذيالهم أشرًا وبطرًا، ولا يغيرون في ذات الله منكرا. يظنون أن أسنى الفخار في سحب الأزار، ولا يعلمون أن فضله - بمقتضى الحديث المأثور - في النار.

يتبايعون بينهم بالذهب قرضًا، وما منهم من يحسن لله قرضًا. فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه. لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع

العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل فى سورة التطفيف. لا يبالون فى ذلك بعيب، كأنهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب. فالغريب فيهم معدوم الأرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق. فسوء معاشرة أبنائها، يغلب على طبع هوائها ومائها ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها.

استغفر الله! إلا فقهاءهم المحدثين، عاظهم المذكرين، لا جرم أن لهم فى طريقة عظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير؛ مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم. لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد، ويرومون تفجير الجلامد، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه، فالموفق منهم لا يزال فى مجلس ذكر أيامه كلها، لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة.

## مجالس علم ووعظ

فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى، رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقديم فى العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة، أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور، فصعد المنبر، وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة، فتوقوا وشوقوا، وأتوا بتلاحين معجبة، ونغمات محرجة مطربة.

ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف فى أفانين من العلوم: من تفسير كتاب الله عز وجل، وإيراد حديث رسوله ﷺ، والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر، ودفعت إليه عدة رقاع فيها، فجمعها جملة فى يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها، وينبذ بها. إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل، وافترق الجمع.

فكان مجلسه مجلس علم، ووعظ، وقورًا هينًا لينًا، ظهرت فيه البركة والسكينة، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة، ولا سيما آخر مجلسه، فإنه سرت حميًا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعًا، وفجرتها دموعًا، وبادر التائبون إليه سقوطًا على يده ووقوعا، فكم ناصية جز، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز.

فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة، وتتغمد الجناة، وتستدام العصمة والنجاة. والله تعالى يجازى كل ذى مقام عن مقامه، ويتغمد ببركة العلماء الأولياء عبادة العاصين من سخطه وانتقامه، برحمته وكرمه، إنه المنعم الكريم لا رب سواه، ولا معبود إلا اياه.

وشهدنا له مجلسًا ثانيًا أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف أماق تشوقت له النفوس. فأخذ الإمام المتقدم الذكر فى وعظه، مسرورًا بحضوره ومتجملاً به، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر. ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندى، المتقدم الذكر فى هذا التقييد، المشتهر المآثر والمكارم، المقدم بين الأكابر والأعاظم.

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه، الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى، بازاء داره على الشط بالجانب الشرقى، وفى آخره على اتصال من قصور الخليفة، ويمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى - وهو يجلس به كل يوم سبت - فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفى جوف الفرا كل الصيد: آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية. إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة. مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر، والغامض فى بحر فكره على نفائس الدر. فأما نظمه فرضى الطباع، مهيارى الانطباع. وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان.

ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصمد المنبر، ويبتدئ القراء بالقراءة - وعددهم نيف على العشرين قارئًا - فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها، على نسق بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددًا أو يسميها نسقًا.

فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلاً مبتدرًا، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررًا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته، فقرا، وأتى بها على نسق القراءة لها، لاَ مقدمًا ولا مؤخرًا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها. فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب،

لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا، يورد الخطبة الغراء بها عجلا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾[1]. فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر.

ثم أنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقًا. إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعيًا له ومنهم من يغشى عليه، فيرفع فى الأذرع إليه. فشاهدها هو لا يملأ النفوس انابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة.

فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة. والحمد لله على أن من بلقاء من يشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله. وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل، وتطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه.

ثم شاهدنا مجلسًا ثانيًا له، بكرة يوم الخميس الحادى عشر لصفر، بباب بدر، فى ساحة قصور الخليفة، ومناظره مشرفة عليه. وهذا الموضع المذكور، هو من حرم الخليفة، وخص بالوصول إليه والتكلم فيه، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته، ومن حضر من الحرَم. ويفتح الباب للعامة، فيدخلون إلى ذلك الموضع، وقد بسط بالحصر. وجلوسه بهذا الموضع كل (يوم) خميس.

فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم. فصعد المنبر، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعًا لحرمة المكان، وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، وشوقوا ما شاءوا. وأطربوا ما أرادوا. وبادرت العيون بإرسال الدموع.

فلما فرغوا من القراءة - وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات - صدع بخطبته الزهراء الغراء، وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب، إلى أن أكملها، وكانت الآية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2] فتمادى على هذا السين، وحسن أى تحسين، فكان يومه فى ذلك أعجب من أمسه.

---

(١) سورة الطور الآية ١٥.

(٢) سورة غافر الآية ٦١.

ثم أخذ فى الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته، وكنى عنها بالستر الأشرف، والجنات الأرأف، ثم سلك سبيله فى الوعظ. كل ذلك بديهة لا روية، ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى. فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وبالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله والذهول، وصارت النفوس لا تملك تحصيلاً، ولا تميز معقولاً، ولا تجد للصبر سبيلاً.

ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب، مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدًا، ويعود موضوعها النسيبى زهدًا. وكان آخر ما أنشده من ذلك - وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتل سهام - ذلك الكلام:

أين فؤادى أذابه الوجد وأين قلبى فما صحا بعد

يا سعد زدنى جوىً بذكركم بالله قل لى فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه. إلى أن خاف الافحام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر دهشا عجلا، وقد أطار القلوب وجلاً، وترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر: فمن معلن بالانتحاب، ومن متعفر فى التراب. فياله من مشهد ما أهول مرآه، وما أسعد من رآه! نفعنا الله ببركته، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته، بمنه وفضله..

وفى أول مجلسه أنشد قصيدا نير القبس، عراقى النفس، فى الخليفة، أوله:

فى شغلٍ من الغرام شاغل من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة:

يا كلمات الله كونى عوذةً من العيون للإمام الكامل

ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربًا، ثم أخذ فى شأنه، وتمادى فى إيراد سحر بيانه. وما كنا نحسب أن متكلمًا فى الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها، ما أعطى هذا الرجل. فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده، لا إله غيره.

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد، ممن نستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من متكلمى الغرب. وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة - شرفهما الله - مجالس من قد ذكرناه فى هذا التقييد، فصغرت - بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ - فى نفوسنا

قدرا، ولم نستطب لها ذكرًا. وأين تقعان مما أريد، وشتان بين اليزيدين، وهيهات الفتيان كثير، والمثل بمالك يسير.

ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه، ويروق استطلاعه. وحضرنا له مجلسًا ثالثًا يوم السبت الثالث عشر لصفر، بالوضع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقي، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها. فشاهدنا من أمره عجبًا: صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبًا، وأسأل من أدمعهم وابلا سكبا، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتًا من النسيب، شوقًا زهديا وطربا، إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والها مكتئبًا، وغادر الكل متندمًا على نفسه منتحبًا، لهفان ينادى: يا حسرتًا واحربًا! والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحا، وكل منهم بعد من سكرته ما صحا. فسبحان من خلقه عبرة لأولى الألباب، وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب، لا إله سواه.

ثم نرجع إلى ذكر بغداد. هى كما ذكرناه جانبان: شرقى، وغربى، ودجلة بينهما. فأما الجانب الغربى فقد عمه الخراب، واستولى عليه، وكان المعمور أولاً. وعمارة الجانب الشرقى محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة، وفى كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانى، منها بجوامع يصلى فيها الجمعة.

فأكبرها القَرِّية وهى التى نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة، على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدها السيلى، فعاد الناس يعبرون بالزوارق، والزوارق فيها لا تحصى كثرة، فالناس ليلاً ونهارًا - من تمادى العبور فيها - فى نزهة متصلة رجالاً ونساء، والعادة أن يكون لها جسران: أحدهما مما يقرب من دور الخليفة، والآخر فوقه لكثرة الناس، والعبور فى الزوارق لا ينقطع منها. ثم الكرخ وهى مدينة مسورة. ثم محلة باب البصرة وهى أيضا مدينة، وبها جامع المنصور رحمه الله، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله. ثم الشارع وهى أيضا مدينة؛ فهذه الأربع أكبر المحلات.

وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهى مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من دجلة.

وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها: كالوسيطة، وهى بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب فى دجلة، يجئ فيه جميع المرافق التى فى الجهات التى يسقيها

الفرات.ويشق على باب البصرة - الذى ذكرنا محلته - نهر آخر منه، وينصب أيضًا فى دجلة. ومن أسماء المحلات: العتابية، وبها تصنع الثياب العتابية، وهى حرير وقطن مختلفات الألوان. ومنها الحربية، وهى أعلاها، وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد، إلى أسماء يطول ذكرها. وباحدى هذه المحلات قبر معروف الكوفى، وهو رجل من الصالحين، مشهور الذكر فى الأولياء. وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان، داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب «هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه». وفى الجانب الغربى أيضًا قبر موسى بن جعفر رضى الله عنهما، إلى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته، من الأولياء والصالحين والسلف الكريم، رضى الله عن جميعهم.

وبأعلى الشرقية خارج البلد، محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة، ولالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط. وفى تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية فى الهواء، فيه «قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه، وبه تعرف المحلة. وبالقرب من تلك المحلة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وفى تلك الجهة أيضًا قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله، وقبر الحسين بن منصور الحلاج، وببغداد من قبور الصالحين كثير رضى الله عنهم.

وبالغربية هى البساتين والحدائق، ومنها تجلب الفواكه إلى الشرقية.

## دار الخلافة

وأما الشرقية فهى اليوم دار الخلافة، وكفاها بذلك شرفًا واحتفالاً. ودور الخليفة مع آخرها، وهى تقع منها فى نحو الربع أو أزيد، لأن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقلين اعتقالا جميلاً، لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم.

وللخليفة من تلك الديار جزء كبير، قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة. وليس له اليوم وزير، إنما له خديم - يعرف بنائب الوزارة - يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة، وبين يديه الكتب، فينفذ الأمور. وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاد الدار، هذا لقبه، ويدعى له أثر الدعاء للخليفة، وهو قل ما يظهر للعامة، اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلاً ونهارًا.

ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والأحابش المجايب: منهم فتى اسمه «خـالص»، وهو قائد العسكرية كلها، أبصرناه خارجًا أحد الأيام، وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم، وحوله نحو خمسين سيفًا مسلولة فى أيدى رجال قد احتفوا به، فشاهدنا من أمره عجبا فى الدهر. وله القصور والمناظر على دجلة.

وقد يظهر الخليفة فى بعض الأحيان بدجلة راكبًا فى زورق، وقد يصيد فى بعض الأوقات فى البرية، وظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة، فلا يـزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهارا. وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة، ويؤثر التحبب لهم، وهو ميمون النقيبة عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاء وعـدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له.

أبصرنا هذا الخليفة المذكور - وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف، ويتصل نسبه إلى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم - بالجانب الغربى أمام منظرته به، وقد انحدر عنها صاعدًا فى الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط.

وهو فى فتاء من سنه، أشقر اللحية صغيرها، كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء، سنه نحو الخمس وعشرين سنة، لابسًا ثوبًا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة، المتخذة للباس الملوك، مما هو كالفنك وأشرف، متعمدًا بذلك زى الأتراك تعمية لشأنه، لكن الشمس لا تخفى وأن سترت؛ وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين.

وأبصرناه أيضًا عشى يوم الأحد بعده، متطلعًا من منظرته المذكورة بالشط الغربى، وكنا نسكن بمقربة منها.

والشرقية حفيلة الأسواق، عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذى أحصى كل شىء عددا، وبها من الجوامع ثلاثة، كل يجمع فيها: جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة: مرافق الوضوء والطهور. وجامع السلطان، وهو خارج البلد، ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضا المعروف بشاه شاه، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة. وكان يسكن

هنالك، فابتنى الجامع أمام مسكنه. وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقى المذكور، وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله.

فجميع جوامع البلد ببغداد، المجمع فيها، أحد عشر.

## الحمامات والمساجد والمدارس

وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفى حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة، لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير فى جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب وقد انعقد. فسبحان خالق ما يشاء، لا إله سواه.

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير، فضلاً عن الاحصاء. والمدارس بها نحو الثلاثين، وهى كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهى يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهى التى ابتناها نظام الملك، وجددت سنة أربع وخمسمائة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة، وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم، وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح.

## أبواب الشرقية الأربعة

وللشرقية أربعة أبواب: فأولها - وهو فى أعلى الشط - باب السلطان، ثم باب الظفرية، ثم يليه باب الحلبة، ثم باب البصلية. هذه الأبواب التى هى فى السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله، هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة، وداخلها فى الأسواق أبواب كثيرة. وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف، وأين هى مما كانت عليه؟ هى اليوم داخلة تحت قول حبيب:

لا أنت أنت ولا الديار ديار

## الرحيل من بغداد إلى الموصل

واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل اثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر، وهو الثامن والعشرون لمايه، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يومًا. ونحن فى صحبة الخاتونين : خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر فى هذا التقييد، وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل، وصحبتهما حاج الشام والموصل وأرض الأعاجم، المتصلة بالدروب التى إلى طاعة الأمير مسعود، والد إحدى الخاتونين المذكورتين. وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة، ابن الملك الدقوس، وطريقهم على الجانب الشرقى من بغداد، وطريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربى منها.

وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرعيل ومن يقوده

ولهما أجناد برسمهما، وزادهما الخليفة جندا يشيعونهما مخافة العرب الخفاجين المضرين بمدينة بغداد.

وفى تلك العشية التى رحلنا فيها، فجئتنا خاتون المسعودية المترفة شبابًا وملكًا، وهى قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين، الواحدة أمام الأخرى، وعليهما الجلال المذهبة، وهما تسيران بها سير النسيم سرعة ولينا، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان، وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق.

ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة، وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات، والنسيم يتلاعب بعذباتهن، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحال، ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعن نزولها. وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله، رتبة تهز الأرض هزًا، وتسحب أذيال الدنيا عزًا.

ويحق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا الهز، فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية ، وهو من العدل فى رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية. وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن فى هذا العام - الذى هو عام تسعة وسبعين الخالى عنا - استفتح من بلاد الروم نحو

الخمسة وعشرين بلدًا، ولقبه عز الدين، واسم أبيه مسعود، وهذا الاسم غلب عليه، وهو عريق فى المملكة عن جد فجد.

ومن شرف خاتون هذه - واسمها سلجوقة - أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين، وهى من أعظم بلاد الدنيا، فترك البلد لها كرامة لأبيها، وأعطاها المفاتيح، فبقى ملك زوجها بسببها وناهيك من هذا الشأن، والملك ملك الحى القيوم، يؤتى الملك من يشاء لا إله سواه.

فكان مبيتنا تلك الليلة بإحدى قرى بغداد، نزلناها وقد مضى هدء من الليل، وبمقربة منها دجيل، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقى تلك القرى كلها. وغدونا من ذلك الموضع ضحى يوم الثلاثاء، السادس عشر لصفر المذكور، والقرى متصلة فى طريقنا، فاتصل سيرنا إلى اثر صلاة الظهر، ونزلنا. وأقمنا باقى يومنا ليلحقنا من تأخر من الحاج ومن تجار الشام والموصل.

ثم رحلنا قبيل نصف الليل. وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار. فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل، وأسرينا الليل كله، فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف بالحربة من أخصب القرى وأفسحها. ورحلنا من ذلك الموضع، وأسرينا الليل كله، ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس، الثامن عشر لصفر، على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق، ويقال انه (كان) متفرجًا لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمه الله.

وعلى قبالة هذا الموضع، فى الشط الشرقى، مدينة (سر من رأى)، وهى اليوم عبرة من رأى. أين معتصمها وواثقها ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها، إلا بعض جهات منها هى اليوم معمورة. وقد أطنب المسعودى رحمه الله فى وصفها، ووصف طيب هوائها ورائق حسنها، وهى كما وصف، وإن لم يبق إلا الأثر من محاسنها. والله وارث الأرض ومن عليها، لا إله غيره.

فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين، وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة (شم) رحلنا منه، وأسرينا الليل كله، فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وهو أول يوم من يونيه، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم.

## ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحة ، حفيلة الأسواق ، كثيرة المساجد ، غاصة بالخلق . أهلها أحسن أخلاقًا وقسطًا فى الموازين من أهل بغداد ،

ودجلة منها فى جوفيها، ولها قلعة حصينة على الشط هى قصبتها المنيعة، ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه، وهى من المدن العتيقة المذكورة.

ورحلنا مع عشى اليوم المذكور، وأسرينا طول الليل، وأصبحنا يوم السبت، الموفى عشرين منه، بشط دجلة، فنزلنا مريحين. ومن ذلك الموضع يستصحب الماء ليوم وليلة، فاستصحبنا، ورحلنا ذلك اليوم ضحوة، فأسرينا إلى الليل،ونزلنا لأخذ نفس راحة واختلاس سنة نوم، فهومًنا هنيهة، ورحلنا وأستأدنا إلى الصباح.

وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار من يوم الحد بعده، فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة، وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعقر، وعلى رأسها ربوة مرتفعة كانت حصنًا لها، وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف، حفيل البنيان وثيقه، والقرى والعمائر من هذا الموضع إلى الموصل متصلة. ومن هنا ينتثر انتظام الحاج فى المشى، فينبسط كل فى طريقه، متقدمًا ومتأخرًا، وبطيئًا ومستعجلاً، آمنًا مطمئنًا.

فرحلنا منها قريب العصر، وتمادى سيرنا إلى المغرب، ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال ما تتعشى الإبل، ورحلنا قبل نصف الليل، وأدلجنا إلى الصباح. وفى ضحوة هذا اليوم - وهو يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر والرابع ليونيه - مررنا بموضع يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة.

وبالجانب الشرقى منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل فيه، وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة، قد أنبط الله فيها عيونًا كبارًا وصغارًا تنبع بالقار، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان، ويصنع له أحواض يجتمع فيها، فتراه شبه الصلصال، منبسطًا على الأرض، أسود أملس صقيلاً رطبًا عطر الرائحة شديد التعلك، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس.

وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء، يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود، تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا؛ فشاهدنا عجبًا كنا نسمع به فنستغرب سماعه.

وبمقربة من هذه العيون، على شط دجلة، عين أخرى منه كبيرة، أبصرنا على البعد منها دخانًا، فقيل لنا أن النار تشعل فيه، إذا أرادوا نقله، فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكه إلى جميع البلاد البحرية، والله يخلق ما يشاء، سبحانه وتعالى جده، وجلت قدرته لا رب غيره.

ولا شك أن على هذه الصفة هى العين التى ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة، وقد ذكرنا أمرها فى هذا التقييد.

ومن هذا الموضع إلى الموصل مرحلتان، وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين، ثم رحنا وسرنا إلى العشى، ونزلنا بقرية تعرف بالعقيبة، ومنها تصبح الموصل إن شاء الله. فأسرينا منها بعد نصف الليل، ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر والخامس من يونيه، ونزلنا بربضها فى أحد الخانات بمقربة من الشط

## ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت أبراجها تلتقى انتظامًا لقرب مسافة بعضها (من بعض). وباطن الداخل منه بيوت بعضها على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه، وللمقاتلة فى هذه البيوت حرز وقاية، وهى من المرافق الحربية.

وفى أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصًا، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان، وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله، ودجلة شرقى البلد، وهى متصلة بالسور، وأبراجه فى مائها.

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة - وكان يعرف بمجاهد الدين - جامعا على شط دجلة، ما أرى وضع جامع أحفل منه بناء، يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه، وكل ذلك نقش فى الآجر، وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة، ويطيف به شبابيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة، لا مقعد أشرف منها ولا أحسن. ووصفه يطول، وإنما وقع الالماع بالبعض جريًا إلى الاختصار.

وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور، وبنى أيضًا داخل البلد وفى سوقه قيسارية للتجار، كأنها الخان العظيم، تنغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض ؛ قد جلى ذلك كله فى أعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له، فما أرى فى البلاد قيسارية تعدلها.

وللمدينة جامعان : أحدهما جديد، والآخر من عهد بنى أمية. وفى صحن هذا الجامع قبة داخلها سارية رخام قائمة، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، وفى أعلاها خصة رخام مثمنة، يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة. فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة. كأنه قضيب من البلور معتدل.

ثم ينعكس إلى أسفل القبة. ويجمع فى هذين الجامعين القديم والحديث، ويجمع أيضًا فى جامع الربض.

وفى المدينة مدارس للعلم، نحو الست أو أزيد على دجلة ـ فتلوح كأنها القصور المشرفة، ولها مارستانات حاشى الذى ذكرنا فى الربض. وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة، فيها مشهد جرجس صلى الله عليه وسلم، وقد بنى فيها مسجد، وقبره فى زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر، يجده المار إلى الجامع من باب الجسر عن يساره، فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس والوقوف عنده، نفعنا الله بذلك.

ومما خص الله به هذه البلدة أن فى الشرق منها - إذا عبرت دجلة على نحو الميل - تل التوبة، وهو التل الذى وقف به يونس عليه السلام بقومه، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب. وبمقربة منه - على قدر الميل أيضًا - العين المباركة المنسوبة إليه، ويقال أنه أمر من قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة، ثم صعدوا على التل داعين.

وفى هذا التل بناء عظيم، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة، ومقاصر ومطاهر وسقايات، يضم الجميع باب واحد. وفى وسط ذلك البناء بيت يستدل عليه ستر، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله، يقال انه كان الموضع الذى وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم، ومحراب هذا البيت يقال أنه كان بيته الذى كان يتعبد فيه، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظمًا، فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه.

وحول هذا الرباط قرى كثيرة، ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نيسوى، وهى مدينة يونس عليه السلام، وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، وفرج الأبواب فيه بينة، وأكوام أبراجه مشرفة. بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر، (ثم) صبحنا العين المباركة، وشربنا من مائها وتطهرنا فيها، وصلينا فى المسجد المتصل بها. والله ينفع بالنية فى ذلك بمنه وكرمه.

وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم. فكان مقامنا فى هذه البلدة أربعة أيام.

## المشاهد الدنيوية الحفيلة

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة، بروز شاهدناه يوم الأربعاء - ثانى يوم وصولنا الموصل - للخاتونين : أم معز الدين صاحب الموصل، وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها.

فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة، وخرج النساء كذلك - وأكثرهن راكبات، قد اجتمع منهن عسكر جرار - وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته. فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة، قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون، وقلدوها القلائد المزوقة.

ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها، وقد جللت قبتها كلها سبائك دهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات، فلا تكاد تبين من القبة موضعا، ومطيتاها تزحفان بها زحفًا، وصخب ذلك الحلى يسد المسامع، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب، ومراكب جواريها كذلك، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره. وكان مشهدا أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار لا شريك له.

وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه، أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر. فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلا الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالاً عظيمًا، وهي تحب الصالحين والصالحات، وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم. وشأنها عجيب كله، على شبابها وانغماسها في نعيم الملك، والله يهدى من يشاء من عباده.

وفى عشى اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معاملة الجمالين، على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبة الأشبه منهم، ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة - شرفها الله - إلى الموصل. فأسرينا ليلة السبت إلى بعيد نصف الليل، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل.

ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور، وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد، وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد ينحدر فيه الماء، وكان مقيلاً مباركًا. وفي تلك القرية خان كبير جديد، وفى محلات الطرق كلها خانات، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة، وأسرينا منها، وأصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف بالمويلحة وأسرينا منها، وبتنا بقرية كبيرة تعرف بجدال، لها حصن عتيق.

وفى يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق جبل الجودى المذكور فى كتاب الله تعالى، الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل. ثم رحلنا في السحر الأعلى من يوم الاثنين، التاسع والعشرين لصفر، فكان مبيتنا بقرية من قرى نصيبين، ومنها إليها مرحلة، ويعرف الموضع المذكور بالكلابى.

## شهر ربيع الأول من سنة ثمانين
## عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة الثانى عشر من يونيو، ونحن بالقرية المذكورة، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور، ووصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم المذكور.

## ذكر مدينة نصيبين، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرد فى نواحيه، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافيته، وتفيء ظلالها الوارفة عليه. فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول :

طابت نصيبين لى يومًا فطبت لها  يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضى الشمائل، أندلسى الخمائل، يرف غضارة ونضارة، ويتألق عليه رونق الحضارة، وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال.

وهذا النهر ينسرب إليها من عين معينة، منبعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها، ويلح فى بعض ديارها، ويصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه، وينصب فى صهريجين : أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقى منه، ويفضى إلى سقايتين حول الجامع. وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلى، وفيها مدرستان ومارستان واحد، وصاحبها معين الدين، أخو معز الدين صاحب الموصل، ابنا بابك.

ولمعين (الدين) أيضا مدينة سنجار، وهى عن يمين الطريق إلى الموصل. ويسكن فى إحدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الأسود الجسد، الأبيض الكبد، أحد الأولياء الذين نور الله بصائرهم بالإيمان، وجعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان، الشهير المقامات، الموصوف بالكرامات، نضو التبتل والزهادة، ومن أخلفت جدته العبادة، قد اكتفى بنسج يده، ولا يدخر من قوت يومه لغده. أسعدنا الله

بلقائه، وأصبحنا من بركة دعائه. عشى يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته، وشرفنا بمصافحته، والله ينفعنا بدعائه، إنه سميع مجيب لا إله سواه.

فكأن نزولنا بها فى خان خارجها، وبتنا بها ليلة الأربعاء الثانى من ربيع الأول، ورحلنا صبيحته فى قافلة كبيرة من البغال والحمير، حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد، بلاد بكر وما يليها، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال.

فتمادى سيرنا إلى أول الظهر، ونحن على أهبة وحذر من اغارة الأكراد، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيصر، يقطعون السبيل، ويسعون فسادا فى الأرض، وسكناهم فى جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم، فهم ربما وصلوا فى بعض الأحيان إلى باب نصيبين، ولا دافع لهم ولا مانع إلا الله عز وجل.

فقلنا يوم الأربعاء المذكور، ورأينا ذلك اليوم، عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل، مدينة دارى العتيقة، وهى بيضاء كبيرة لها قلعة مشرفة، ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة ماردين، وهى فى صفح جبل فى قنته قلعة لها كبيرة، هى من قلاع الدنيا الشهيرة، وكلتا المدينتين معمورة.

## ذكر مدينة دنيصر، حرسها الله

هى فى بسيط من الأرض فسيح، وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقى، وهى مائلة الطبع إلى البادية ولا سور لها، وهى مشحونة بشرًا، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة. وهى محضر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التى تلى طاعة الأمير مسعود وما يليها، ولها المحرث الواسع، ولها مرافق كثيرة.

فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع (الأول) بها مريحين. وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها، ويتصل بها حمام، والبساتين حولها، فهى مدرسة ومأنسة. وصاحب هذه البلدة قطب الدين، وهو أيضًا صاحب مدينة دارى ومدينة ماردين ورأس العين، وهو قريب لابنى بابك.

وهذه البلدة لسلاطين شتى، كملوك طوائف الأندلس، كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقابًا هائلة، وصفات لذى التحصيل غير طائلة، قد تساوى فيها السوقة والملوك، واشترك فيها الغنى والصعلوك، ليس فيهم من ارتسم بسمة به

تليق، أو اتصف بصفة هو بها خليق. إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن، المشتهر الفضل والعدل، فهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح، وشهادات يرجها التجريح، ودعوى نسبة للدين برحت به أي تبريح :

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

ونرجع إلى حديث المراحل-قربها الله-فكان مقامنا بدنيصر إلى أن صلينا الجمعة، وهو اليوم الرابع لربيع (الأول)، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها، والقرى المتصلة بها، لأن الطريق كلها يمينًا وشمالاً قرى متصلة وخانات مشيدة، ويسمون هذه السوق-المجتمع إليها من الجهات-البازار ، وأيام كل سوق معلومة.

ورحلنا اثر صلاة الجمعة، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن تعرف بتل العقاب، هي للنصارى المعاهدين الذميين، ذكرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسنا ونضارة، تحفها البساتين والكروم وأنواع الأشجار، وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه، وخطها متسع، والبساتين قد انتظمته، وشاهدنا بها من الخنانيص أمثال الغنم كثرة وأنسا بأهلها.

ثم وصلنا عشى النهار إلى قرية أخرى تعرف بالجسر، هي الآن لناس من المعاهدين، وهم فرقة من فرق الروم. فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور، ثم أسحرنا منها، ووصلنا مدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم السبت المذكور.

## ذكر مدينة رأس العين، حرسها الله

هذا الاسم لها من أصدق الصفات، وموضوعها به أشرف الموضوعات. وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيونًا، وأجراها ماء معينًا، فتقسمت مذانب،وانسابت جداول تنسبط في مروج خضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، تحف بها أشجار وبساتين، قد انتظمت حافيتها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها.

وأعظم هذه العيون عينان، إحداهما فوق الأخرى : فالعليا منهما نابعة فوق الأرض في صمم الحجارة، كأنها في جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم، ثم يخرج ويسيل نهرًا كبيرًا كأكبر ما يكون من الأنهار، وينتهي إلى العين الأخرى ويلتقي بمائها.

وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل. وذلك أنها نابعة تحت الأرض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات أو أزيد، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجاً في ذلك العمق، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الأرض. فربما يروم السابح، القوى السباحة الشديد الغوص في أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قعره، فيمجه الماء بقوة انبعاثا من منبعه، فلا يتناهى في غوصه إلى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئا، شاهدنا ذلك عياناً.

وماؤها أصفى من الزلال، وأعذب من السلسبيل، يشف عما حواه، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما أخفاه، ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك.

وينقسم ماء هذه العين نهرين : أحدهما آخذ يميناً، والآخر يساراً. فالأيمن يشق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين، وهي تسمى الرباط أيضاً. والأيسر ينسرب على جانب الخانقة، وتفضى منه جداول إلى مظاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية، ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الأخرى العليا. وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع بيوت أرحى، تتصل على شط موضوع وسط النهر كأنه سد، من مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور.

وبمقربة من هذه الخانقة، بحيث تناظرها، مدرسة بازائها حمام، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل. وما أرى كان في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة، لأنها في جزيرة خضراء، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب، والمدخل إليها من جانب واحد، وأمامها ووراءها بستان، وبازائها دولاب يلقى الماء إلى بساتين مرتفعة عن مصب النهر.

وشأن هذا الموضع كله عجيب جداً، فغاية حسن القرى بشرقي الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا، أو تتحلى بمثل هذه العيون. ولله القدرة في جميع مخلوقاته.

وأما المدينة فللمداوة بها اعتناء، وللحضارة عنها استغناء، لا سور يحصنها، ولا دور أنيقة البناء تسحنها. قد ضحيت في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها، وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن، ولها جامعان : حديث، وقديم. فالقديم بموضع هذه العيون، وتتفجر أمامه عين معينة هي بدون اللتين ذكرناهما، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه. والجامع الآخر داخل البلد، وفيه يجمع أهله. فكانا مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس في سفرنا كله مثلها.

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور، وهو السادس عشر ليونيه، رحلنا منها رغبة فى الاساد وبرد الليل، وتفاديًا من حر هجرة التأويب، لأن منها إلى حران مسيره يومين لا عمارة فيها. فتمادى سيرنا إلى الصباح، ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب، وأرحنا قليلاً.

ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد، وسرنا قريب العصر على ماء بئر، بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة، يعرف ببرج حواء، فبتنا به، ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة، وأسرينا إلى الصباح، فوصلنا مدينة حران، مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور، والثامن عشر ليونيه، والحمد لله على تيسيره.

## ذكر مدينة حران، حفظها الله

بلد لا حسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تنقد بلفح الهجير ساحاته، وأرجاؤه. لا تجد فيه مقيلاً، ولا تتنفس منه إلا نفسًا ثقيلاً. قد نبذ بالعراء، ووضع فى وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة.

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلاً أنها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وله بقبليها - نحو ثلاثة فراسخ - مشهد مبارك، فيه عين جارية، كأن مأوى له ولسارة، صلوات الله عليهما، ومتعبدًا لهما. ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرًا للصالحين المتزهدين، ومثابة للسائحين المتبتلين.

لقينا من أفرادهم السيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز، حذاء مسجده المنسوب إليه، وهو يسكن منه فى زاوية بناها فى قبلته، وتتصل بها فى آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها، وأشبه طريقة أبيه فما ظلم، وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم. فوصلنا إلى الشيخ - وهو قد نيف على الثمانين - فصافحنا ودعا لنا، وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور، فملنا غليه ولقيناه ودعا لنا، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة.

ولقينا أيضا بمسجد عتيق، الشيخ الزاهد سلمة، فلقينا رجلاً من الزهاد الأفراد، فدعا لنا وسألنا، وودعناه وانصرفنا. وبالبلد سلمة آخر، يعرف بالمكشوف الرأس، لا يغطى رأسه تواضعًا لله عز وجل، حتى عرف بذلك، ووصلنا إلى منزله، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحًا. وبهذه البلدة كثير من أهل الخير، وأهلها هينون معتدلون، محبون للغرباء، مؤثرون للفقراء.

وأهل هذه البلاد، من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام، على هذه السبيل من حب الغرباء، وإكرام الفقراء، وأهل قراها كذلك، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا، لهم فى ذلك مقاصد فى الكرم مأثورة وشأن أهل هذه الجهات فى هذا السبيل عجيب، والله ينفعهم بما هم عليه. وأما عبادهم وزهادهم والسائحون فى الجبال منهم، فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء، والله ينفع المسلمين ببركاتهم، وصوالح دعواتهم، بمنه وكرمه.

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام، عجيبة الترتيب، مسقفة كلها بالخشب، فلا يزال أهلها فى ظل ممدود، فتخترقها كأنك تخترق دارًا كبيرة الشوارع، قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها، قبة عظيمة مرفوعة، مصنوعة من الجص، هى كالمفرق لتلك السكك.

ويتصل بهذه الأسواق جامعها المركم، وهو عتيق مجدد، قد جاء على غاية الحسن، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوارى رخام، وتحت كل قبة بئر عذبة، وفى الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة، قد قامت على عشر سوار من الرخام، دور كل سارية تسعة أشبار، وفى وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم، دوره خمسة عشر شبرا. وهذه القبة من بنيان الروم، وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد، يقال إنه كان مخزنًا لعدتهم الحربية، والله أعلم.

والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط، وسعته خمس عشرة خطوة، وهو خمسة أبلطة، وما رأينا جامعًا أوسع حنايا منه. وجداره المتصل بالصحن، الذى عليه تسعة عشر بابًا : تسعة يمينًا، وتسعة شمالاً، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب، يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله. بهى المنظر، جميل الوضع، كأنه باب من أبواب المدن الكبار. ولهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش، تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور. فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع، وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به، مرأى عجيبا، قل ما يوجد فى المدن مثل انتظامه.

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانا، وهى بلدة كبيرة، وسورها متين حصين مبنى بالحجارة المنحوتة، المرصوص بعضها على بعض فى نهاية من القوة، وكذلك بنيان الجامع المكرم، ولها قلعة حصينة مما يلى الجهة الشرقية منها، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما، ومنقطعة أيضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها، قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة، وسور القلعة وثيق الحصانة.

ولهذه البلدة نهير مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها. بين سورها وجبانتها، ومصبه من عين هى على بعد من البلد. والبلد كثير الخلق، واسع الرزق، ظاهر البركة، كثير المساجد، جم المرافق، على أحفل ما يكون من المدن. وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين، وطاعته إلى صلاح الدين.

وهذه البلاد كلها : من الموصل، إلى نصيبين، إلى الفرات، المعروفة بديار ربيعة - وحدها من نصيبين إلى الفرات، مع ما يلى الجنوب من الطريق، وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى : كآمد وميافارقين و.. وغيرها مما يطول ذكره - ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين، فهم إلى طاعته وإن كانوا مستبدين، وفضله يبقى عليهم، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله.

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور، وأقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده. واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس الذى فاتنا لقاؤه يوم الاثنين، فلقيناه بمسجده، فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين وسمت المحبين، مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر، فآنسنا ودعا لنا، وودعناه، وانصرفنا حامدين لله عز وجل، على ما من به عليه من لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين.

وفى ليلة الأربعاء، التاسع لربيع المذكور، كان رحيلنا بعد تهويم ساعة. فأسرينا إلى الصباح، ونزلنا مريحين بموضع يعرف بتل عبدة، وهو موضع عمارة، وهذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة، وفيه أثر بناء قديم، وبهذا الموضع ماء جار.

وكان رحيلنا منه عند المغرب، وأسرينا الليل كله، واجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء، فيها خان كبير جديد، وهو نصف الطريق من حران إلى الفرات، ويقابلها على اليمين من الطريق - فى استقبالك الفرات إلى الشام - مدينة سروج، التى شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبى زيد إليها، وفيها البساتين والمياه المطردة، حسبما وصفها به فى مقاماته.

فكان وصولنا إلى الفرات ضحوة النهار، وعبرنا فى الزواريق، المقلة المعدة للعبور، إلى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم، وحولها ديار بادية، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز. فأقمنا بها يوم الخميس، العاشر لربيع الأول المذكور، مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور. وإذا عبرت الفرات حصلت فى حد الشام، وسرت فى طاعة صلاح الدين إلى دمشق.

والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر، وعن يسار الطريق-فى استقبالك الفرات إلى الشام - مدينة الرقة، وهى على الفرات، وتليها رحبة مالك بن طوق - وتعرف

برحبة الشام - وهى من المدن الشهيرة. ثم رحلنا منها عند مضى ثلث الليل الأول، وأسرينا، ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة، الحادى عشر لربيع المذكور، والثانى والعشرين ليونيه.

## ذكر مدينة منبج، حرسها الله

بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء، جوها صقيل ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النشر عليل، نهارها يندى ظله، وليلها كما قيل فيه سحر كله، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها، ويتخلل جميع نواحيها.

وخصص الله داخلها بآبار معينة، شهدية العذوبة، سلسبيلية المذاق، تكون فى كل دار منها البئر والبئران. وأرضها أرض كريمة، تستنبط مياهها كلها، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعًا وكبرًا، وأعالى أسواقها مسقفة، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات.

لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب، حتى أخذ منها الخراب. كانت من مدن الروم العتيقة، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها، ولها قلعة حصينة فى جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها. ومدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية.

وأهلها أهل فضل وخير، سنيون شافعيون، وهى مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة، كما نجده فى الأكثر من هذه البلاد، فمعاملاتهم صحيحة، وأحوالهم مستقيمة، وجادتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة. فكان نزولنا خارجها فى أحد بساتينها، وأقمنا يوما مريحين، ثم رحلنا نصف الليل، ووصلنا بزاعة ضحوة يوم السبت الثانى عشر لربيع المذكور.

## ذكر بلدة بزاعة، كلأها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى، واسعة الذرى، تصغر عن المدن، وتكبر عن القرى. بها سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية، وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة، رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها، فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عورة منبوذة بعرائها. ولهذه البلدة عين معينة، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة، وتريك برونقها الأنيق حسن الحضارة.

ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة، تعرف بالباب، هى باب بين بزاعة وحلب، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية لا يحصى عددهم إلا الله، فطار شرارهم، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم. حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية، وحركتهم الأنفة والحمية، فتجمعوا من كل أوب عليهم، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم، وعجلوا بقطع دابرهم، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم، وأحاق بهم مكرهم، والحمد لله رب العالمين. وسكانها اليوم قوم سنيون.

فأقمنا بها يوم السبت، ببطحاء هذه البلدة مريحين، ورحلنا منها فى الليل، وأسرينا إلى الصباح، ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الأحد الثالث عشر لربيع الأول والرابع والعشرين ليونيه.

## ذكر مدينة حلب، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير، وذكرها فى كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير. فكم هاجت من كفاح، وسلت عليها من بيض الصفاح. لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير فى القلاع، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع.

قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستجيرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء. فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها. عتيقة فى الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام.

هذه منازلها وديارها، فأين سكانها قديمًا وعمارها ؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ أجل فنى جميعهم، ولم يأن بعد فناؤها. فيا عجبًا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون ولا يقضى هلاكها. تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها، وترام فيتيسر بأهون شىء إدراكها.

هذه حلب ! كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان، ونسخت ظرف الزمان بالمكان. أنص اسمها فتحلت بزينة الغوان، ودانت بالغدر فيمن خان، وتجلت عروسًا بعد سيف دولتها ابن حمدان. هيهات هيهات سيهرم شبابها، ويعدم خطابها، ويسرع فيها بعد

حين خرابها، وتتطرق جنبات الحوادث إليها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا إله سواه سبحانه جلت قدرته.

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده، فلنعد إلى ما كنا بصدده، فنقول إن من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديمًا فى الزمان الأول ربوة يأوى إليها إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم، بغنيمات له فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها، فلذلك سميت حلب، والله أعلم، وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه.

ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع، وقد صنع عليه جبان، فهما ينبعان ماء، فلا تخاف الظماء أبد الدهر، والطعام يصبر فيها الدهر كله ؛ وليس فى شروطه الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين. ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان، من الجانب الذى ينظر للبلد، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، والماء ينبع فيه.

وشأن هذه القلعة فى الحصانة والحسن أعظم من أن ننتهى إلى وصفه، وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالى المنيفة، والقصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طيقانًا، وكل برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية.

وأما البلد فموضوعه ضخم جدًا، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من (سماط) صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها فى ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنًا، وتستوقف المستوفز تعجبًا.

وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا، مطيفة بالجامع المكرم، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائى الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ؛ قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش، وتفتحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفى صحنه بئران معينتان، والبلاط القبلى لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح.

وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره، فما رأى فى بلد من البلاد منبرًا على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، فتجللت صفحاته كلها حسنًا على تلك الصفة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوس أعلاه، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا.

وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف. ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا واتقان صنعة، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى. وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتًا وغرفًا، لها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبًا، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها، فيمد الساكن فيها يده، ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة.

وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس، ولها مارستان، وأمرها فى الاحتفال عظيم. فهى بلدة تليق بالخلافة، وحسنها كله دخل، لا خارج لها إلا نهير يجرى من جوفيها إلى قبليها، ويشق ربضها المستجير بها، فإن لها ربضًا كبيرًا فيه من الخانات ما لا يحصى عدده. وبهذا النهر الأرحاء، وهى متصلة بالبلد، وقائمة وسط ربضه، وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله.

وكيف ما كان الأمر فيه، داخلاً وخارجاً، فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها. والوصف فيه يطول. فكان نزولنا بربضه فى خان يعرف بخان أبى الشكر، فأقمنا به أربعة أيام، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور، والثامن والعشرين ليونيه. ووصلنا قنسرين، قبيل العصر، فأرحنا بها قليلاً، ثم انتقلنا إلى قرية تعرف بتل تاجر، فكان مبيتنا بها ليلى الجمعة الثامن عشر منه.

وقنسرين هذه هى البلدة الشهيرة فى الزمان، لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضًا وطولاً. وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان، ولذلك يذكر أن أهل قنسرين، عند استفتاح الأندلس، نزلوا جيان تأنسا بشبه الوطن وتعللاً به، مثل ما فعل فى أكثر بلادها حسب ما هو معروف.

ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل، فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين، فى خان كبير يعرف بخان التركمان وثيق الحصانة. وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة؛ وأبوابها حديد، وهى من الوثاقة فى غاية.

ثم رحلنا من هذا الموضع، وبتنا بموضع يعرف بتمنى، فى خان وثيق على الصفى المذكورة. ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الأول المذكور، وهو آخر يوم من يونيه، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين، يوم الجمعة المذكور، بلاد المعرة. وهى سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهى من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقًا.

ووراءها جبل لبنان، وهو سامى الارتفاع، ممتد الطول، يتصل من البحر إلى البحر، وفى صفحته حصون للملاحدة الإسماعيلية : فرقة مرقت من الإسلام، وادعت الإلهية فى أحد الأنام. قبض لهم شيطان من الأندلس، يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات، موه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلها يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل فى مرضاته الردى. والله يضل به سبحانه من الفتنة فى الدين، ونسأله العصمة من ضلال الملحدين، لا رب غيره ولا معبود سواه.

وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها للمسلمين. وفى صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد، هو للافرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص، وهو برأس العين منهما. فكان وصولنا إلى مدينة حماة فى الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور، فنزلنا بربضها فى أحد خاناته.

## ذكر مدينة حماة، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة فى البلدان، قديمة الصحبة للزمان، غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء، أقطارها مضمومة، وديارها مركومة، لا يهش البصر إليها عند الاطلال عليها، كأنها تكن بهجتها وتخفيها، فتجد حسنها كامنا فيها. حتى إذا جست خلالها، ونفرت ظلالها، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا : تتسع فى تدفقه أساليبه، وتتناظر بشطيه دوالبيه، قد انتظمت طرتيه بساتين تنهدل أغصانها عليه، وتلوح خصرتها عذارا بصفحتيه، ينسرب فى ظلالها، وينساب على سمت اعتدالها.

وبأحد شطيه، المتصل بربضها، مطاهر منتظمة بيوتًا عدة يخترق الماء من أحد دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها. وعلى شطه الثانى، المتصل بالمدينة السفلى، جامع صغير، قد فتح جداره الشرقى عليه طيقانا، تجتلى منها منظرًا ترتاح النفس إليه، وتتقيد الأبصار لديه. وبازاء ممر النهر، بجوفى المدينة، قلعة حلبية الوضع، وإن كانت دونها فى الحصانة والمنع، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها، فهى لا تخاف الصدى، ولا تتهيب مرام العدا.

وموضوع هذه المدينة فى وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق، يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل. والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلى، والقلعة فى الجانب الآخر فى ربوة منقطعة كبيرة مستديرة، قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان. والمدينة السفلى تحت القلعة، متصلة بالجانب الذى يصب النهر عليه، وكلتا المدينتين صغيرتان. وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلى، ويطيف بها. وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور.

وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة، يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها، وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهى الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بازاء الجامع الصغير.

وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض، قد انتظم أكثره شجرات الأعناب، وفيه المزارع والمحارث، وفى منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطى النهر، وهو يسمى العاصى، لأن ظاهره انحداره من سفل إلى علو، ومجراه من الجنوب إلى الشمال، وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة منها.

فكان مقامنا بحماة إلى عشى يوم السبت المذكور، ثم رحلنا منها، وأسرينا الليل كله، وأجزنا فى نصفه هذا النهر العاصى المذكور، على جسر كبير معقود من الحجارة، وعليه مدينة رستن التى خربها عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وآثارها عظيمة، ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالاً جمة مكنوزة، والله أعلم بذلك. فوصلنا إلى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد، الموفى عشرين لربيع (الأول)، وهو أول يوليه، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل.

## ذكر مدينة حمص حرسها الله تعالى

هى فسيحة الساحة مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، موضوعة فى بسيط من الأرض عريض مداه، لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمر. فهى تشتكى ظماءها، وتستقى على البعد ماءها، فيجلب لها من نهيرها العاصى، وهو منها بنحو مسافة الميل، وعليه طرة بساتين تجتلى العين خضرتها، وتستغرب نضرتها، ومنبعه فى مغارة بصفح جبل فوقها بمرحلة، بموضع يقابل بعلبك – أعادها الله – وهى عن يمين الطريق إلى دمشق.

وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه، وبعدهم فى ذلك أهل حلب. فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه، فكأن الهواء النجدى فى الصحة شقيقه وقسيمه. وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه، هو سيف الله المسلول، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن، وقبر عبيد الله بن عمر رضى الله عنهم.

وأسوار هذه المدينة فى غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد سامية الإشراف هائلة المنظر، رائعة الاطلال والانافة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة. وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء، خلقة الأرجاء، ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها، ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها.

وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذا يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره. وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟ فقال – وقد أنكر ذلك –: حمص كلها مارستان، وكفاك تبيينا شهادة أهلها فيها، وبها مدرسة واحدة.

وتجد فى هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد، فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها، بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الأندلس، يقع للحين فى نفسك خياله، وبهذا الاسم سميت فى القديم، وهى العلة التى أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر. وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته فله لمحة من إحدى جهاته.

فأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده، وهو الثانى ليوليه، إلى أول الظهر. ورحلنا منها، وتمادى سيرنا إلى العشى، ونزلنا بقرية خربة تعرف بالمشعر، فعشبنا بها الدواب. ثم رحلنا عند المغرب، وأسرينا طول ليلتنا، وتمادى سيرنا إلى الضحى الأعلى

من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور، ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة، ليس فيها من المسلمين أحد، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد، في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البعد، فهو لا يزال ملآن.

فأرحنا بالخان المذكور إلى الظهر، ثم رحلنا منه إلى قرية تعرف بالنبك، بها ماء جار ومحرث متسع، فنزلنا بها للتعشية. ثم رحلنا منها - بعد اختلاس تهويمة خفيفة - وأسرينا الليل كله، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح. وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام، وهو في نهاية الوثاقة والحسن، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها، واحتفالهم في تشييدها. وفي هذا الخان ماء جار، يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج، ثم يغوص في سرب في الأرض.

والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة، إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات المذكورة. فأقمنا يوم الأربعاء، الثالث والعشرين لربيع المذكور، بالخان المذكور مريحين ومستدركين النوم إلى أول الظهر. ثم رحلنا وجزنا بثنية العقاب، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها، وعند هذه الثنية مفرق طريقين: أحداهما التي جئنا منها، والثانية آخذة شرقا في البرية على السماوة إلى العراق، وهي طريق قصد، لكنها لا تدخل إلا في الشتاء.

فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد إلى البسيط، ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير، فيه خان كبير، والنهر جار أمامه. ثم رحلنا منه مع الصبح، وسرنا في بساتين متصلة لا يوصف حسنها. ووصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول، والخامس ليوليه، والحمد لله رب العالمين.

## شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الأربعاء، بموافقة الحادى عشر ليوليه، ونحن بدمشق، نازلين فيها بدار الحديث غربى جامعها المكرم.

## ذكر مدينة دمشق، حرسها الله تعالى

جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها. قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من

البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين، تشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرار ومعين.

ظل ظليل، وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيى النفوس نسميها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى مُعرَّس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء، فتكاد تناديك بها لصم الصلاب «أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب».

قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر. ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيها، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها.

## ذكر جامعها المكرم، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسنـًا، واتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت، ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف.

انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثنى عشر ألفا من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد فى ذلك أن توقف عنه. فامتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما فى ذلك، مما هو مذكور فى كتب التواريخ.

فشرع فى بنائه، وبلغت الغايات فى التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجارًا وفرعت أغصانا، منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصا.

وكان مبلغ النفقة فيه – حسبما ذكره ابن المعلى الأسدى فى جزء وضعه فى ذكر بنائه – مائة صندوق، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار.

والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى، وأدخلها فيه، لأنه كان قسمين: قسمًا للمسلمين وهو الشرقى، وقسمًا للنصارى وهو الغربى، لأن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية، فانتهى إلى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى، ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عنوة من الجانب الشرقى، وانتهى إلى النصف الثانى وهو الشرقى، فاحتازه المسلمون، وصيروه مسجدًا.

وبقى النصف المصالح عليه - وهو الغربى - كنيسة بأيدى النصارى، إلى أن عوضهم منه الوليد، فأبوا ذلك، فانتزعه منهم قهرًا، وطلع لهدمه بنفسه. وكانوا يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد وقال: أنا أول من يجن فى الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون وأكملوا هدمه.

واستعدوا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته، وأخرجوا العهد الذى بأيديهم من الصحابة رضى الله عنهم فى إبقائه عليهم، فهم بصرفه إليهم، فأشفق المسلمون من ذلك، ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به، فقبلوه. ويقال إن أول من وضع جداره القبلى، هود النبى عليه السلام، وكذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه، والله أعلم بذلك لا إله سواه.

وقرأنا فى فضائل دمشق، عن سفيان الثورى رضى الله عنه، أنه قال: إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة. وفى الحديث، عن النبى ﷺ، أنه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

## ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته

ذرعه فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، هما ثلاثمائة ذراع. وذرعه فى السعة، من القبلة إلى الجوف، مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهى مائتا ذراع. فيكون تكسيره من المراجع الغريبة أربعة وعشرين مرجعا، وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ، غير أن الطول فى مسجد رسول الله ﷺ من القبلة إلى الشمال.

وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب: سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف. وقد قامت على ثمانية وستين عمودًا، منها أربع وخمسون سارية، وثمانى أرجل جصية تتخللها، واثنتان مرخمة ملصقة معها فى الجدار الذى يلى الصحن، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم، وصورت محاريب وأشكالاً غريبة، قائمة فى البلاط الأوسط تقل قبة

الرصاص مع القبة التى تلى المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبرًا، وطولها عشرون شبرا، وبين كل رجل ورجل فى الطول سبع عشرة خطوة، وفى العرض ثلاث عشرة خطوة، فيكون كل دور رجل منها اثنين وسبعين شبرًا.

ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته، الشرقية والغربية والشمالية، سعته عشر خطا، وعدد قوائمه سبع وأربعون: منها أربع عشرة رجلاً من الجص، وسائرها سوار، فيكون سعة الصحن - حاشى المسقف القبلى والشمالى - مائة ذراع، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص.

وأعظم ما فى هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه: سامية فى الهواء، عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم، هو غارب لها يتصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاث قباب: قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما.

والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظرًا رائعًا ومرأى هائلاً، يشبهه الناس بنسر طائر: كأن القبة رأسه، والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاط عن يمين، ونصف الثانى عن شمال جناحاه، وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه. ومن أى جهة استقبلت البلد ترى القبة قى الهواء منيفة على كل علو، كأنها معلقة من الجو.

والجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون: منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر، وفى القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية، وفى طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفى القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفى ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية.

وفى الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة رضى الله عنهم، وهى أول مقصورة وضعت فى الإسلام، وضعها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما. وبازاء محرابها - عن يمين مستقبل القبلة - باب حديد كان يدخل معاوية رضى الله عنه إلى المقصورة منه إلى المحراب، وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبى الدرداء رضى الله عنه.

وخلفها كانت دار معاوية رضى عنه، وهى اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلى، ولا سماط أحسن منظرًا منه، ولا أكبر طولاً وعرضًا. وخلف هذا

السماط، على مقربة منه، دار الخيل برسمه، وهى اليوم مسكونة، وفيها مواضع للكمادين. وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبرا، وعرضها نصف الطول.

ويليها لجهة الغرب، فى وسط الجامع، المقصورة التى أحدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة إلى الجامع حسبما تقدم ذكره، وفيها منبر الخطبة، ومحراب الصلاة. وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الحظ الإسلامى من الكنيسة، وكان الجدار حيث أعيد المحراب فى المقصورة المحدثة، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدًا صارت مقصورة الصحابة طرفًا فى الجانب الشرقى، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطًا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال، وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية.

وبالجانب الغربى بازاء الجدار مقصورة أخرى، هى برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس، وبها يصلون، وبازائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة، وبالجانب الشرقى زاوية أخرى على هذه الصفة هى كالمقصورة، كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية، وهى لاصقة بالجدار الشرقى.

وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب، يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهى من جملة مرافق الطلبة. (وفى) الجدار المتصل بالصحن، المحيط بالبلاطات القبلية، عشرون بابا متصلة بطول الجدار، قد علتها قسى جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه.

والبلاط المتصل بالصحن، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات، على أعمدة، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة، تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله. ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد، وهو متفرجهم ومنتزههم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب البريد.

فمنهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال، من ذهاب ورجوع، إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة، ثم ينصرفون، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك. وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشى، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم، وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين.

وللجامع ثلاث صوامع: واحدة فى الجانب الغربى، وهى كالبرج المشيد، تحتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة، راجعة كلها إلى إغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبى حامد الغزالى رحمه الله، ويسكنه اليوم

الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد، من أهل قلعة يحصب المنسوب لهم، وهو قريب لبنى سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها، وثانية بالجانب الغربى على هذه الصفة، وثالثة بالجانب الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفيين.

وفى الصحن ثلاث قباب: إحداها فى الجانب الغربى منه وهى أكبر، وهى قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص والاصبغة ملونة كأنها الروضة حسنا، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة، يقال إنها كانت مخزنًا لمال الجامع، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف - على ما ذكر لنا - على الثمانية آلاف دينار صورية فى السنة. وهى خمسة عشر ألف دينار مؤمنية أو نحوها.

وقبة أخرى صغيرة فى وسط الصحن، مجوفة مثمنة، من رخام قد ألصق أبدع الصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام، وتحتها شباك حديد مستدير، وفى وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو، فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين، يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا، ويسمونه قفص الماء. والقبة الثالثة فى الجانب الشرقى، قائمة على ثمانية أعمدة، على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها.

وفى الجانب الشمالى من الصحن باب كبير يفضى إلى مسجد كبير، فى وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير، يجرى الماء فيه دائما من صفحة رخام أبيض مثمنة، قد قامت وسط الصهريج، على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه إليها، ويعرف هذا الموضع بالكلاسة، ويصلى فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكلى القرطبى، ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماسا لبركته، واستماعا لحسن صوته.

وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى إلى مسجد، من أحسن المساجد وأبدعها وضعًا وأجملها بناء، يذكر الشيعة أنه مشهد لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وهذا من أغرب مختلفاتهم. ومن العجيب أنه يقابله فى الجهة الغربية، فى زاوية البلاط الشمالى من الصحن، موضع، هو ملتقى آخر البلاط الغربى مجلل بستر فى أعلاه، وأمامه ستر أيضا منسدل، يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضى الله عنها، وإنها كانت تسمع الحديث فيه.

وعائشة رضى الله عنها فى دخول دمشق كعلى رضى الله عنه، لكن لهم فى على رضى الله عنه مندوحة من القول، وذلك أنهم يزعمون أنه رؤى فى المنام مصليـًا فى ذاك الموضع، فبنت الشيعة فيه مسجدا. وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها، فلا مندوحة فيه، وإنما ذكرناه لشهرته فى الجامع.

وكان هذا الجامع المبارك – ظاهرًا وباطنًا – منزّلاً كله بالفصوص المذهبة، مزخرفًا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين، فتهدم وجدد، وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنًا وغرابة صنعة، يتقد ذهبًا كله، وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره، تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة، لم ير شيء أجمل منها، وبعضها حمر كأنها مرجان.

فشأن قبلة هذا الجامع المبارك، مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث، وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه، واتصال شعاع الشمس بها، وانعكاسه إلى كل لون منها، حتى ترتمى الأبصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلى كله؛ عظيم لا يلحق وصفه، ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته بمنه.

وفى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة، فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه، وهو المصحف الذى وجه به إلى الشام، وتفتح الخزانة كل يوم أثر الصلاة، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، ويكثر الازدحام عليه. وله أربعة أبواب:

باب قبلى: ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام، وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم، وله مرأى رائع، ومنه يفضى إلى دار الخيل، وعن يسار الخارج منه سماط الصفّارين، وهى كانت دار معاوية رضى الله عنه، وتعرف بالخضراء.

وباب شرقى، وهو أعظم الأبواب، ويعرف بباب جيرون.

وباب غربى، ويعرف بباب البريد.

وباب شمالى، ويعرف بباب الناطفيين. وللشرقى والغربى والشمالى أيضا من هذه الأبواب دهاليز متسعة، يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم، كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت على حالها.

وأعظمها منظرًا الدهليز المتصل بباب جيرون، يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض، قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة، لها ستة أعمدة طوال. وفى وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل، كان فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما، ثم نقل إلى القاهرة، وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، وبذلك المشهد ماء جار.

وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم، يتصل إلى باب عظيم الإرتفاع ينحسر الطرف دونه سموا، قد حفته أعمدة كالجزوع طولاً وكالأطواد ضخامة. وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم، وعليها شوارع أخر مستطيلة، فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز، وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت.

وفى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام، ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص، واسعة مكشوفة للهواء، لم ينعطف عليها تعتيب. وفى وسط الحوض الرخامى أنبوب صفر يزعج الماء بقوة، فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة لم..، وحوله أنابيب صغار ترمى الماء إلى علو، فيخرج عنها كقضبان اللجين، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية، ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف.

وعن يمين الخارج من باب جيرون - فى جدار البلاط الذى أمامه - غرفة، ولها هيئة طاق كبير مستدير، فيه طيقان صفر، قد فتحت أبوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيرا هندسيا. فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر، من فمى بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر، تحت كل واحد منهما: أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثانى تحت آخرها.

والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا. وعند وقوع البندقتين فى الطاستين، يسمع لها دوى، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول.

ولها بالليل تدبير آخر. وذلك أن فى القوس، المنعطف على تلك الطيقان المذكورة، اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة، وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمَّرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل، وتحمر الدوائر كلها. وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها، درب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها، وهى التى يسميها الناس المنجانة.

ودهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين والعطارين، وفيه سماط لبيع الفواكه، وفى أعلاه باب عظيم يصعد إليه على أدراج، وله أعمدة سامية فى الهواء، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان: سقاية يمينًا، وسقاية يسارًا، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل. ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب، محدقة بالأعواد المشرجية، هى محاضر لمعلمى الصبيان.

وعن يمين الخارج فى الدهليز خانقة مبنية للصوفية، فى وسطها صهريج، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا، والصهريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه، ولها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها. وعن يمين الخارج أيضا من باب البريد مدرسة للشافعية، فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه، ولها مطاهر على الصفة المذكورة.

وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرًا، لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان، قد خرما أحسن تخريم، يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان. واحتفال أهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم.

وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم أثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائما، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة. ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش، منه أزيد من خمسمائة إنسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء.

وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها اجراء واسع. وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم اجراء معلوم. ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة. وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه، هى بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليه للمذكرة والتدريس، أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادى.

وعند فراغ المجتمع السَّبعى من القراءة صباحًا، يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن، وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم يأخذونها. وهذا من المفاخر الإسلامية. وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم

ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم. وهذا أيضا من أغرب ما يحدَّث به من مفاخر هذه البلاد.

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو. وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة، فينفصل من التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة؛ ولذلك ما يتأتى لهم حين الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه.

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات، في كل جانب سقاية، كل واحدةمنها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية، والماء يجرى في كل بيت منها، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل، تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله.

واحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون، وهي أكبرها، وفيها من البيوت نيف على الثلاثين، وفيها زائدا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران، يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية، والواحد بعيد من الآخر، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرا، والماء نابع فيهما. والثانية في دهليز باب الناطفيين بإزاء المعلمين والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد، والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة.

وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم. والبلد كله سقايات، قل ما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه، من سقاية. والمرافق به أكثر من أن توصف، والله يبقيه دار اسلام، بقدرته.

## ذكر مشاهده المكرمة وآثاره المعظمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليهما (السلام). وهو مدفون بالجامع المكرم، في البلاط القبلي، قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية رضى الله عنهم، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير، لا يدرى أمن زجاج عراقي، أم صورى هو، أم من غير ذلك.

ومولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم، وهو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة، وهي من أجمل القرى. وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم، لأنه

مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم، وهو فى الجهة الشمالية من البلد، وعلى مقدار فرسخ.

وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق، وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع، مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة، وعليه صومعة عالية. ومن ذلك الغار رأى ﷺ الكوكب ثم القمر، ثم الشمس، حسبما ذكره الله تعالى فى كتابه عز وجل، وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه.

وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام، أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقى، فى تاريخه فى أخبار دمشق، وهو نيف على مائة مجلد. وذكر أيضا أن بين باب الفراديس - وهو أحد أبواب البلد - وفى الجهة الشمالية من الجامع المبارك، على مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبى، وقيل سبعون ألف شهيد، وأن الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبى، والله أعلم.

وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة، وهى مدفن الأنبياء والصالحين، وبركتها شهيرة، وفى طرفها مما يلى البساتين وهدة من الأرض متصلة بالجبانة، ذكر أنها مدفن سبعين نبيا، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد، والقبور محيطة بها، وهى لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة له، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها.

وبجبل قاسيون أيضا - لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك - مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها فى الجبل دم هابيل، قتيل أخيه قابيل، ابنى آدم ﷺ، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة. وقد أبقى الله منه فى الجبل آثارا حمرًا فى الحجارة تحك فتستحيل، وهى كالطريق فى الجبل، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد فى النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها، فكان يقال أنها لون حجارة الجبل، وإنما هى من الموضع الذى جر منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة. وهى من آيات الله تعالى، وآياته لا تحصى.

وقرأنا فى تاريخ ابن المعلى الأسدى أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب، عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام. وعليها مسجد قد أتقن بناؤه، ويصعد إليه على أدراج، وهو كالغرفة المستديرة. وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها، وبه بيوت ومرافق للسكنى، وهو يفتح كل يوم خميس، والسرج من الشمع والفتائل تقد فى المغارة، وهى متسعة..

وفى أعلى الجبل كهف منسوب لآدم ﷺ، عليه بناء وهو موضع مبارك، وتحته فى حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا فيها جوعا، وكان عندهم رغيف، فلم يزل كل أحد منهم يؤثر به صاحبه، ويدور عليهم من يد إلى يد، حتى لحقتهم المنية صلوات الله عليهم، وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبنى، وأبصرنا فيه السرج تقد نهارا.

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة، من بساتين أرض بيضاء ورباع، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها. وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة أو خانقة، يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها بساكنيها الملتزمين لها، وهذه أيضا من المفاخر المخلدة، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم فى هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل.

وبآخر هذا الجبل المذكور، وفى رأس البسيط البستانى الغربى من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله تعالى، مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما، وهى من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا وأشراقا، وإتقان بناء واحتفال تشييد، وشرف وضع: هى كالقصر المشيد، ويصعد إليها على أدراج، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة فى وسطها، وهى كالبيت الصغير، وبازائها بيت يقال أنه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم. فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيما المأوى المبارك، وله باب حديد صغير ينغلق دونه.

والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سبق إليها الماء من علو، وماؤها ينصب على شاذروان فى الجدار- متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره، وخلف ذلك مظاهر تجرى الماء فى كل بيت منها، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان.

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائة، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار: يأخذ كل نهر طريقه. وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له فى الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة فى النهر، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربة تحت الربوة ويخرج أسفلها، وهى مخاطرة كبيرة.ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا اشراف كأشرافها حسنا وجمالا واتساع مسرح

للأبصار، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح فى طرق شتى، فتحار الأبصار فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها. وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها، أعظم من أن يحيط به وصف واصف فى غلو مدحه، وشأنها فى موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير..

ويتصل بها - أسفل منها بمقربة من المسافة - قرية كبيرة تعرف بالنيرب، قد غطتها البساتين، فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه، وبها جامع لم ير أحسن منه، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون، فخيل لناظره أنه ديباج مبسوط، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن، ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى الماء فيها ويطيف بها. وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة، هى من أحين القرى، تعرف بالمِزة، وبها جامع كبير، وسقاية معينة، وبقرية النيرب حمام، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات.

وفى الجهة الشرقية من البلد، عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام، قرية تعرف ببيت لاهية - يريدون الآلهة - وكانت فيها كنيسة، هى الآن مسجد مبارك. وكان آزر أبو إبراهيم ينحت فيها الآلهة ويصورها، فيجيء الخليل إبراهيم، صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم، فيكسرها. وهى اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة، منتظم كله خواتيم وأشكالاً بديعة، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة، وهو من المشاهد الكريمة.

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، وهى معينة التقسيم لوظائفها: فمنها ما هو معين باسم النفقة فى الدم للبائتين فيها من الزوار، ومنها ما هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل، ومنها ما هو معين للطعام، إلى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الإمامة، والمؤذن الملتزم خدمتها، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم فى كل شهر، وهى خطة من أعظم الخطط.

والأمين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم، يعرف بأبى الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة، وله فى الشهر خمسة دنانير - حاشى فائدة الربوة - وهو متسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من أسباب البر فى ايواء أهل الغرب من الغرباء، المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعايش: من أمامة فى مسجد، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه، أو حضور فى قراءة سَبع، أو سدانة

مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية، على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه.

فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه. وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال، ممن عده الخدمة والمهنة، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة: أما بستان يكون ناطورا فيه، أو حمام يكون عينًا على خدمته وحافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينًا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة.

وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى الأمانة، وطار لهم فيها ذكر، وأهلها لا يأتمنون البلديين، وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء، وله الحمد والشكر على ما يولى عباده. وإن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان، يقبله ويكرمه ويرتبه، ويجرى عليه بحسب قدره ومنصبه، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا. وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه، والحديث ذو شجون، والله كفيل بحسن العون، لا رب سواه.

وبغربى البلد جبانة كبيرة، تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين رضى الله عنهم. فالمشهور بها من قبور الصحابة، رضى الله عنهم، قبر أبى الدرداء، وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهما. وموضع مبارك، فيه تاريخ قديم مكتوب عليه «فى هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم: منهم فضالة بن عبيد، وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه»، وقبره مسنم فى الموضع المذكور. وقرأت فى فضائل دمشق أن أم المؤمنين أم حبيبة، أخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة بدمشق، وقبر وائلة بن الأسقع من أهل الصفة.

وفى الجهة التى (تلى) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب «هذا قبر أوس بن أوس الثقفى». وحول هذا الموضع المذكور، على مقربة منه، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ. وفى رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضى الله عنه. والدعاء فى هذا الموضع المبارك مستجاب. قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم. إلى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين، ممن قد ذهب اسمه وغير ذكره، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضى الله عنهم رجالاً ونساء، وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم، ولها الأوقاف الواسعة.

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، قد بنى عليه مسجد حفيل رائق البناء، وبازائه بستان كله نارنج، والماء يطرد فيه من سقاية معينة، وللمسجد كله ستور معلقة فى جوانبه صغار وكبار، وفى المحراب حجر عظيم قد شق بنصفين، والتحم بينهما، ولم يبن النصف عن النصف بالكلية. يزعم الشيعة أنه انشق لعلى رضى الله عنه، أما بضربة بسيفه أو بأمر من الأمور الالهية على يديه. ولم يذكر عن على رضى الله عنه أنه دخل قط هذا البلد، اللهم إلا أن زعموا أنه كان فى النوم، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لا تصح لهم جهة اليقظة. وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد.

وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عموا البلاد بمذاهبهم. وهم فرق شتى: منهم الرافضة وهم السبابون، ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة، ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة، فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه - تعالى الله عن قولهم - ومنهم الغرابية وهم يقولون أن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى ﷺ من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولا، تعالى الله عنه علوًا كبيرًا، إلى فرق كثيرة يضيف عنهم الاحصاء: قد أضلهم الله، وأضل بهم كثيرا من خلقه. نسأل الله العصمة فى الدين، ونعوذ به من زيغ الملحدين.

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية، سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، كل من ألحقوه بهم - لخصلة يرونها فيه منها - يحرمونه السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به، لهم فى ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم، وشأنهم عجيب فى الأنفة والائتلاف.

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله ﷺ، وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقى البلد، وعلى مقدار أربعة أميال منه، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، والقبر فى وسطه، وعند رأسه مكتوب «هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله ﷺ».

ومن مشاهد أهل البيت، رضى الله عنهم، مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب رضى الله عنهما، ويقال لها زينب الصغرى، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبى ﷺ، لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها، والله أعلم بذلك ومشهدها الكريم بقرية قبلى

البلد تعرف براوية، على مقدار فرسخ، وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن، وله أوقاف، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم. مشينا إليه، وبتنا به، وتبركنا برؤيته، نفعنا الله بذلك.

وبالجبانة التى بغربى البلد، من قبور أهل البيت، كثير رضى الله عنهم: منها قبران عليهما مسجد، يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما. ومسجد آخر فيه قبر يقال أنه لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت.

ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب، فى بيت بالجهة الشرقية منه، يقال أنه لأم مريم رضى الله عنها. وبقرية دارية قبر أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه، وعليه قبة هى علامة القبر، وبها أيضا قبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه. وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال، وهى لجهة الغرب منه.

ومن المشاهد الكريمة التى لم نعاينها، ووصفت لنا، قبرا شيث ونوح عليهما السلام، وهما بالبقاع، وهى على يومين من البلد. وحدثنا من ذرع قبر شيث، فألفى فيه أربعين باعًا، وفى قبر نوح ثلاثين، وبازاء قبر نوح قبر ابنة له، وعلى هذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيم يلتزمها.

ومن المشاهد المباركة أيضا بالجبانة الغربية. وبمقربة من باب الجابية، قبر أويس القرنى رضى الله عنه، وقبور خلفاء بنى أمية رحمهم الله، يقال أنها بإزاء باب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يسكن فيه. والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد، وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم.

ومن المشاهد الشهيرة أيضا مسجد الأقدام، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبلة، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر. وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه «كان بعض الصالحين يرى النبى ﷺ فى النوم فيقول له: ههنا قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم». والكثيب الحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع، وهو بين غالية وغويلِيَة كما ورد فى الأثر، وهما موضعان.

وشأن هذا المسجد فى البركة عظيم. ويقال أن النور ما خلا قط من هذا الموضع الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب، وله أوقاف كثيرة. فأما الأقدام ففى حجارة فى الطريق إليه معلم عليها، تجد أثر القدم فى كل حجر، وعدد الأقدام تسع، ويقال أنها أثر قدم موسى عليه السلام. والله أعلم بحقيقة ذلك لا إله سواه.

## شهر جمادى الأولى، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمى.

## ذكر جمل من أحوال البلد عمره الله بالإسلام

لهذه البلْدة ثمانية أبواب: باب شرقى، وهو شرقى، وفيه منارة بيضاء يقال أن عيسى عليه السلام ينزل فيها، كما جاء فى الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق. ويلى هذا الباب باب توما، وهو أيضا فى حيز الشرق. ثم باب السلامة. ثم باب الفراديس، وهو شمالى، ثم باب الفرج. ثم باب النصر، وهو غربى. ثم باب الجابية كذلك. ثم باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة.

والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، والأرباض به مطيفة إلا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرًا، والأرباض كبار.

والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك ما يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقًا، وحسنه كله خارج لا داخل.

وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهى حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرًا عجيبًا تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهى بأيدى الروم، ولا اعتراض عليهم فيها.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان: قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى، وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه فى كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر، وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم.

وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج، وهم فى سلاسل موثقون - نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر - وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع به.

ومن أعجب ما حدثت به من ذلك أن رجلاً كان يعلم القرآن، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال، واسمه نصر الله، وكان المعلم يهيم به. فزاد كلفه حتى اختبل، وأدى إلى المارستان، واشتهرت علته وفضيحته بالصبى. وربما كان يدخله أبوه إليه فقيل له: اخرج، وعد لما كنت عليه من القرآن، فقال متماجنا تماجن المجانين: وأى قراءة بقيت لى؟ ما بقى فى حفظى من القرآن شىء سوى إذا جاء نصر الله، فضحك منه ومن قوله، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم، فلم يزل كذلك حتى توفى، سمح الله له.

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك. ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه، وبها قبره نوره الله. وهى قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله.

وأما الرباطات - التى يسمونها الخوانق - فكثيرة، وهى برسم الصوفية، وهى قصور مزخرفة، يطرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يبصر.

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفوضلها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة فى أسباب المعايش. وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم - بفضل الله تعالى - نعيم الدنيا والآخرة.

وهم على طريقة شريفة، وسنة فى المعاشرة عجيبة، وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم، من الاجتماع السماع المشوق جميلة. وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات، المنفعل المثابر، رقة وتشوقا. وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشًا طيبًا هنيئًا.

ومن أعظم ما شاهدناه لهم وضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء، فى أعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها، وهو من البلد بنصف الميل، له بستان عظيم يتصل به، وكان منتزها لأحد ملوك بستان عظيم يتصل به، وكان منتزها لأحد ملوك الأتراك. فيقال أنه كان فيه احدى الليالى على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم من النبيذ الذى كانوا يشربونه فى ذلك القصر، فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه، ووقفه برسم الصوفية مؤبدًا لهم. فطال العجب من السماحة بمثله، وبقى أثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله.

ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة، وكان من الملوك الزهاد، وتوفى فى شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين، وهو على طريقة من الفضل شهيرة، وشأنه فى الملوك كبير، وله الأثر الباقى شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز. وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة، إلى أن محا الله رسمها على يدى هذا الملك العادل، أصلحه الله.

ومن مناقب نور الدين، رحمه الله تعالى، أنه كان عيَّن للمغاربة الغرباء، والملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة: منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وارض بيضاء، وحمام، ودكانان بالعطارين. وأخبرنى أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه - وهو أبو الحسن على بن سردال الجيانى، المعروف بالأسود - أن هذا الوقف المغربى يعنى، إذا كان النظر فيه جيدا، خمسمائة دينار فى العام. وكان له، رحمه الله، بجانبهم فضل كبير - نفعه الله بما أسلف من الخير - وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها.

## مرافق الغرباء

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدًا. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر، والاتساع أجود.

فمن شاء الفلاح من نشأة، مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب فى طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة: فأولها فراغ البال من أمر المعيشة - وهو أكبر الأعوان وأهمها - فإذا كانت الهمة، فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى.

فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد، ويقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد لا إله سواه. قد نصحت أن الفيت سامعًا، وناديت أن أسمعت مجيبًا. ومن يهد الله فهو المهتدى، جلت قدرته وتعالى جده.

ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء، وايثاء الفقراء - ولا سيما أهل باديتها، فانك تجد من بدار إلى بر الضيف عجبًا - كفى بذلك شرفًا لها.

وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير، فيتوقف عن قبولها، فيبكى الرجل ويقول: لو علم الله فى خيرًا لأكل الفقير طعامى. لهم فى ذلك سر شريف.

## من عجيب أمر المشارق

ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله؛ فم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركا بهم. ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقى، مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق فى هذا العام الذى هو عام ثمانين، خرج الناس لتلقيهم، الجم الغفير نساء ورجالاً، يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة.

فأخبرنى من أبصر كثيرًا من النساء يتلقين الحاج، ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفته من أيديهم، وتبادرن لأكله تبركًا بأكل الحاج له، ودفعن له عوضًا منه دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، ضد ما اعتدنا فى المغرب فى ذلك، وصنع بناء فى بغداد - عند تلقى الحاج بها - مثل ذلك أو قريب منه.

ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد، وانما وقع الالماع بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يتلزم أن أحب ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الامامة أو التعليم أو ما شاء، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى، أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى، فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل، فيقيم معهم ما شاء، وينصرف إلى حيث شاء.

## نصارى جبل لبنان

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين، جلبوا لهم القوت، وأحسنوا إليهم ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقل ما يخلو من التبتل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض!.

## الحرب وإتفاق النصارى والمسلمين

ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين، ونصارى، وربما يلتقى الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.

شاهدنا فى هذا الوقت - الذى هو شهر جمادى الأولى - من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض فى طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلاً، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية. فنازله هذا السلطان، وضيق عليه، وطال حصاره؛ واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض.

وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، وهى من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس فى عافية، والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم، وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلمًا أو حربًا. وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه، والله يعلى كلمة الإسلام بمنه.

## دمشق وآثارها

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة فى الجهة الغربية من البلد، وهى بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، وبها جامع السلطان يجمع فيه، وعلى مقربة منها - خارج البلد فى جهة الغرب - ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما، وعليهما حلق، والنهر بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهما من أبدع المناظر: يخرج السلطان إليهما، ويلعب فيهما بالصوالجة، ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما، وفى كل ليلة يخرج أبناء السلطان لإليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة.

وبهذه البلدة أيضا قرب مائة حمام فيها وفى أرباضها، وفيها نحو أربعين دارًا للوضوء يجرى الماء فيها كلها. وليس فى هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب، لأن المرافق بها كثيرة، وفى الذى ذكرناه من ذلك كفاية، والله يبقيها دار إسلام بمنه.

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظامًا وأبدعها وضعًا. ولا سيما قيسارياتها، وهى مرتفعات كأنها الفناديق، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بصيغتها، وأغلاقها الجديدة. ولها أيضا سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقى، وفيه بيت صغير جدًا قد اتخذ مصلى، وفى قبلته حجر يقال أن إبراهيم ﷺ كان يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع.

وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز التى هى اليوم خانقة للصوفية، وهى فى الدهليز الذى فى الباب الشمالى، المعروف بباب الناطفيين - وقد تقدم التنبيه عليه قبل هذا - حديث عجيب. وذلك أن الذى اشتراها وبناها، وجعل لها الأوقاف الواسعة. وأمر بأن يدفن فيها، وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة، وعين من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك جمعة رطلاً من خبز الحوّارى، وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب، رجل من العجم يعرف بالسميساطى - وسميساط بلدة من بلاد العجم - وكان موصوفًا بالورع والزهد.

وأصل يساره وتموله - فيما ذكر لنا - أنه ألفى يومًا من الأيام بالدهليز المذكور، إزاء الدار المذكورة، رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه. غير ملتفت إليه ولا معتنى به، فتأخر فيه، والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتنامًا للثواب من الله عز وجل.

فحانت وفاة الرجل، فاستدعى ممرضه السميساطى المذكور، فقال له: أنت قد أحسنت إلى وخدمتنى، ولطفت فى تمريضى، وأشفقت لحالى وغربتى، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بى، زائدًا إلى مكافأة الله عز وجل عنى فى الآجل، أن شاء الله.

وذلك أنى كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسى، ومعروفًا بزمام الدار، وكانت لى حظوة ومكانة، فعتب على فى بعض الأمر، فخرجت طريدًا، فانتهيت إلى هذه البلدة، فأصابنى فيها من أمر الله ما أصابنى، فسبيك الله لى رحمة.

فأنا أقلدك أمانة، وأعهد إليك فيها عهدًا: إذا أنا مت وغسلتنى، فانهض على بركة الله تعالى إلى بغداد، وتلطف فى السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة، فإذا ارشدت إليها، فصرف الحيلة فى اكترائها، وأرجو أن الله يعينك على ذلك. وإذا

سكنتها، فاعمد إلى موضع - سماه له فيها، وذكر له أمارة عليه - فاحفر فيه مقدار كذا، وانزع اللوح الذى تجده معترضا تحت الأرض، وخذ الذى تجده مدفونا تحت الأرض، وصرفه فى منافعك وما يوفقك الله إليه من وجوه البر والخير، مباركا لك فى ذلك إن شاء الله.

ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله، وتوجه الموصى إليه بعهده إلى بغداد؛ فيسر الله له فى اكتراء الدار، وانتهى إلى الموضع المذكور، فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها، عظيمة الشأن كبيرة القدر، فدسها فى أحمال متاع ابتاعها، وخرج إلى دمشق من بغداد، فابتاع الدار المذكورة - المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه - وبناها خانقة للصوفية، واحتفل فيها، وابتاع لها الأوقاف ضياعًا ورباعًا، وجعلها برسم الصوفية، وأوصى بأن يدفن فيها، وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة، وعين لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه.

فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقًا كثيرًا، فتغص الخانقة بالقراءة كل جمعة، فإذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة المذكورة. وبقى للمتوفى جميل الأثر والخير، رحمة الله ورضوانه عليه.

والكوثرية التى ذكرناها أيضا بالجامع المكرم - المقروءة كل يوم بعد العصر، المعينة لمن لا يحفظ القرآن - كان أصلها أيضا أن أحد ذوى اليسار توفى وأوصى بأن يدس قبره فى الجامع المكرم، وأوقف وقفًا يغل مائة وخمسين دينارًا فى السنة برسم من لا يحفظ القرآن، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة، فينقسم له أربعون دينارًا فى كل ثلاثة أشهر من السنة.

ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفى أيضا، وأوصى بأن يجعل قبره فى قبلة الجامع المكرم بحيث لا يظهر، وعين أوقافًا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربعمائة دينار فى السنة، وزائدًا لقراء سبع القرآن كل يوم. وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك، كل يوم أثر صلاة الصبح، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم.

ويقال أن فى ذلك الموضع هو القبر المذكور، وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلاً مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقى، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين.

وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام، نفع الله بها راسميها، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل.

وللفقراء الملتزمين الجلوس فى الجانب الشرقى من الجامع المكرم، الذين ليس لهم مأوى يأوون إليه، وقف وضعه بعض المتأخرين الموفقين برسمهم، إلى ما يطول ذكره من المآثر الأخراوية الصدقية، التى كفل الله بها غرباء هذه الجهات.

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة، المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول، أنهم فى كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم أثر صلاة العصر: يقف بهم أيمتهم كاشفى رؤوسهم داعين إلى ربهم، التماسًا لبركة الساعة التى يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات؛ فلا يزالون واقفين، داعين متضرعين إلى الله عز وجل، وبحجاج بيته الحرام متوسلين، إلى أن يسقط قرص الشمس، ويقدروا نفر الحاج، فينفصلوا باكين على ما حرمو من ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين إلى الله عز وجل فى أن يوصلهم إليها، ولا يحليهم من بركة القبول فى فعلهم ذلك.

## من أعظم المناظر فى الدنيا

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن، وهياكلها الهائلة البنيان، المعجزة الصنعة والإتقان، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان، الصعود إلى أعلى قبة الرصاص المذكورة فى هذا التقييد، القائمة وسط الجامع المكرم، والدخول فى جوفها، واجالة لحظ الاعتبار فى بديع وضعها مع القبة التى فى وسطها، كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها.

صعدنا إليه فى جملة من الأصحاب المغاربة، ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة، من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم وتمشينا على سطح الجامع المكرم - وكله ألواح رصاص منتظمة كما قد نقدم الذكر لذلك، وطول كل لوح أربعة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة - حتى انتهينا إلى القبة المذكورة، فصعدنا إليها على سلم منصوب، ورنج الميد تكاد تطير بنا، فحبونا فى المشى المطيف بها - وهو من رصاص وسعته ستة أشبار - فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه.

فأسرعنا الولوج فى جوف القبة، على أحد شراحيبها المفتحة فى الرصاص، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول، تقف دون إدراك هيبة وصفه الأفهام، وجلسا فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة، الداخلة فى جوف الرصاصية على الصفة التى

ذكرناها، ولها طبقات يبصر منها الجامع ومن فيه، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر.

وهذه القبة مستديرة كالكرة، وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام، موثقة بنطق من الحديد، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة، وتجتمع الأضلاع كلها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها. وداخل هذه القبة - وهو ما يلى الجامع المكرم - خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض، قد اتصل إتصالاً عجيبًا، وهى كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب، مزخرفة التلوين بديعة القرنصة، يرتمى الأبصار شعاع ذهبها، وتتحير الألباب فى كيفية عقدها ووضعها لأفراط سموها.

أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتماً مطروحًا جوف القبة، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار فى عرض أربعة، وهى تلوح فى انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها.

والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة، وقد شدت أيضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام، موثقة الأوساط بنطق الحديد، وعددها ثمان وأربعون ضلعًا، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار، قد انعطفت انعطافا عجيبًا، واجتمعت أطرافها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها. ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة، وهى مائتا شبر وستون شبرًا، والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها، وإنما هذا الذى ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها.

وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر، الذى تحت هاتين القبتين، مدخل عظيم هو سقف للمقصورة، بينه وبينها سماء جص مزينة، وقد انتظم فيه من الخشب مالا يحصى عدده، وانعقد بعضها ببعض، وتقوس بعضها على بعض، وتركبت تركيبًا هائلاً منظره، وقد أدخلت فى الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين.

وفى ذلك الجدار حجارة، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها. فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك! فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة، ومعينهم على التأنى لما ليس موجودًا فى طبائعهم البشرية، ومظهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه، لا إله سواه.

والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة. قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار، وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية، واستدارت الشمسيات باستدارتها. والقبتان فى رأى العين واحدة، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة فى جوف الأخرى، والظاهر منها قبة الرصاص.ومن جملة عجائب ما عايناه فى هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتًا ناسجًا، على بعد العهد من التفقد لهما من أحد، والتعاقد لتنظيف مساحتهما، والعنكبوت فى أمثالها موجود كثير. وقد كان حقق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت. ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف، وقد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقييد.

فانصرفنا منحدرين، وقد قضينا عجبًا عجابًا من هذا المنظر العظيم شأنه، المعجز وضعه، المترفع عن الإدراك وصفة. ويقال أنه ما على ظهر المعمور أعجب منظرًا، ولا أبعد سموا، ولا أغرب بنيانًا، من هذه القبة. إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس، فإنها يذكر أنها أبعد فى الارتفاع والسمو من هذه.

وجملة الأمر أن منظرها، والوقوف على هيئة وضعها، وعظيم الاستقداد فيها عند معاينها، بالصعود إليها، والولوج داخلها - من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا. والقدرة لله الواحد القهار، لا إله سواه.

## رتبهم فى جنائزهم

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد فى جنائزهم رتبة عجيبة. وذلك أنهم يمشون امام الجنازة بقراء يقرءون القرآن بأصوات شجية. وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا: يرفعون أصواتهم بها فتتلقى الآذان بأدمع الأجفان، وجنائزهم يصلى عليها فى الجامع قبالة المقصورة، فلابد لكل جنازة من الجامع. فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها. إلا أن يكون الميت من أيمة الجامع أو من سدنته، فإن الحالة المميزة له فى ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه.

وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربى من الصحن، بازاء باب البريد، فيصلون أفرادًا أفرادًا، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرءونها، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء وأعيانهم، ويحلونهم بخططهم الهائلة التى قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينة أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محبيه أو زكيه أو نجيبه، إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة وتتبعها، ولا سيما فى الفقهاء بما شئت أيضا، من سيد

العلماء، وجمال الأئمة، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة، وشرف الملة، ومفتى الفريقين، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية.

فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحبًا أذياله من الكبر، ثانيًا عطفه وقذاله. فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة، وانتهى المجلس بهم منتهاه، قام وعاظهم واحدًا واحدًا - بحسب رتبهم فى المعرفة - فوعظ وذكر، ونبه على خدع الدنيا وحذر، وأنشد فى المعنى ما حضر من الأشعار، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى، ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا. فربما كان مجلسا نافعا لمن تحضره من الذكرى.

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد، وبامتثال الخدمة، وتعظيم الحضرة. وإذا لقى أحد منهم آخر مسلما يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا، والحد عندهم عنقاء مغرب، وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة فى ذلك: فواحد ينحط، ولآخر يقوم، وعمائمهم تهوى بينهم هويا.

وهذه الحالة من الانعطاف الركوعى فى السلام، كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الاماء. فيا عجبا لهؤلاء الرجال! كيف تحلوا بسمات ربات الحجال؟ قد ابتذلوا نفسهم فيما تأنف النفوس الآبية منه، واستعملوا تكفير الذمى المنهى فى الشرع عنه، لهم فى هذا الشأن طرائق عجيبة فى الباطل. فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية فى الألفاظ بينهم! فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم؟ لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس. فسبحان خالق الخلق أطوارا، لا شريك له ولا معبود سواه.

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير، بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف، قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفًا وأوثقوا تكثيفًا. وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزًا لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفا، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا فى الأعضاء وراحة من الاعياء. والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبرا، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننًا، وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنًا.

أستغفر الله منهم، فإن لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الإيمان، وتستوهب لهم من الله الغفران، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ في المصافحة، فهم يستعملونها أثر الصلوات — ولا سيما اثر صلاة الصبح وصلاة العصر — وإذا سلم الإمام وفرغ من الدعاء، أقبلوا عليه بالمصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة، بفضل الله عز وجل.

وقد تقدم الذكر، فيما سلف من هذا التقييد، أنهم يستعلمونها عند رؤية الأهلة، ويدعو بعضهم لبعض، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه، واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله. وتلك أيضا طريقة حسنة ينفعهم الله بها، لما فيها من تعاطى الدعوات، وتجديد المودات، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا، رحمة من الله تعالى ونعمة.

## حسن سيرة السلطان

وقد تقدم الذكر أيضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات، صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين، ومثابرته على جهاد أعداء الله: لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج؛ فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه. أنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين، وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك — وقد تقدم الذكر أيضا له — وهو عليه محاصر له حتى الآن. والله تعالى يعينه على فتحه.

وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين، بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه، يذكر عنه — في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه — ثلاث مناقب، في ثلاث كلمات حكاها عنه، رأينا اثباتها هنا:

إحداها أن الحلم من سجاياه، فقال — وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه — : «أما أنا فلأن أخطىء في العفو أحب إلى من أن أصيب في العقوبة»، وهذا في الحلم منزع أحنفي.

وقال أيضا — وقد تنوشدت بحضرته الأشعار، وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجودهم — : «والله لو وهب الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما أراقه من حر ماء وجهه في استمناحه اياى»، وهذا في الكرم مذهب رشيدى أو جعفرى.

وحضره أحد مماليكه، المتميزين لديه بالحظوة والأثرة، مستعديًا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا، أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه، فقال السلطان له: «ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وأنما أن عبد الشرع وشحنته — والشحنة عندهم صاحب الشرطة — فالحق يقضى لك أو عليك»، وهذا فى العقد مقصد عمرى.

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا، والله يمتع ببقائه الإسلام والمسلمين، بمنه.

## شهر جمادى الآخرة، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد، التاسع من شهر شتنبر العجمى، ونحن بدمشق - حرسها الله - على قدم الرحلة إلى عكة - فتحها الله - والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى، وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف، المعروف عندهم بالصليبية، عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته. وتكفلنا بكلاءته وعصمته، بعزته وقدرته. أنه سبحانه الحنان المنان، ولى الطول والاحسان، لا رب غيره.

وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور - وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور - فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة.

## من أعجب الأحاديث

ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين.

شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمرًا عجيبًا. وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك - المتقدم الذكر فى هذا التاريخ - قصد إليه الإفرنج فى جميعهم، وقد تألبوا من كل أوب، ورامو أن يسبقوه إلى موضع الماء، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين، فصمد اليهم، وأقلع عن الحصن بجملته، وسبقهم إلى موضع الماء، فحادوا عن طريقه، وسلكوا طريقًا وعرًا ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة إلى بلادهم، ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه.

فاهتبل صلاح الدين فى بلادهم الغرة، وانتهز الفرصة، وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابلوس، وهجمها بعسكره، فاستولى عليها، وسبى كل من فيها، وأخذ إليها حصونًا وضياعًا، وامتلأت أيدى المسلمين سبيًا لا يحصى عدده من الإفرنج

ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة، منسوبة إلى السامرى، وانبسط فيهم القتل الذريع، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها، إلى ما اكتفت من الأمتعة والذخائر والأسباب والأثاث، إلى النعم والكراع إلى غير ذلك.

وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدى المسلمين على جميع ما احتازته، وسلم لهم ذلك، فاحتازت كل يد (ما) حوت، وامتلأت غنى ويسارا، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التى مر عليها من بلاد الفرنج، وآبو غنامين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب، وتخلصوا من أسرى المسلمين عددًا كثيرًا، وكانت غزوة لم يسمع بمثلها فى البلاد.

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم، كل بما احتواه وحصلت يده عليه، وكان مبلغ السبى آلافًا لم نتحقق احصاءها. ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا، الأقرب ليوم انفصالنا، وأعلمنا أنه يجم عسكره قليلاً ويعود إلى الحصن المذكور. فالله يعينه، ويفتح عليه، بعزته وقدرته.

وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين. وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة! فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدراية، وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف. ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف بيت جَنْ هى بين جبال.

ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس، واعترضنا فى نصف الطريق شجرة بلوط، عظيمة الجرم متسعة التدويج، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان. فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هى حد بين الأمن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الإفرنج - وهم الحواسة والقطاع - من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله، لهم فى ذلك عهد يوفون به وهو من أطراف الارتباطات الإفرنجية وأغربها.

## ذكر مدينة بانياس، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين، وهى صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر، ويفضى إلى أحد أبواب المدينة، وله مصب تحت أرحاء. وكانت بيد الإفرنج، فاسترجعها نور الدين رحمه الله.

ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين، لهم

فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجرى بينهم فيها.

فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الإفرنج المذكور، فكان مبيتنا بها. ثم رحلنا منها يوم الأحد سحرا، واجتزنا فى طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر - وأكثر شجرة الرند - بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى، تلتقى حافتاه، ويتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالأسطيل، لو ولجته العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان.

فعجبنا من أمر ذلك المكان، فأجزناه ومشينا عنه يسيرًا، وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين. وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، هى أم الملك الخنزير صاحب عكة، دمرها الله.

فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطًا.

وأكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها: أن طائفة من أنجادهم عزت، مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون، فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم.

وقال الإفرنج: أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نررأهم شيئًا. فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو يسهله عليهم، ويخفف عنته؟ عنهم.

ورحلنا من تبنين - دمرها الله - سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعماثر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه - نعوذ بالله من الفتنة - وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم فى غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم.

وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل: رساتيقها كلها للمسلمين، وهى القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يبصرون عليه أخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله. فإلى الله المشتكى من هذه الحال، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾[1]

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين. فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة، وأحضرهم صغيرًا وكبيرًا فى غرفة متسعة بمنزله، وأنالهم ألوانًا من الطعام قدمها لهم، فعمهم بتكرمته، وكنا فيمن حضر هذه الدعوة، وبتنا تلك الليلة.

وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، وهو الثامن عشر لتشتنبر، مدينة عكة - دمرها الله - وحملنا إلى الديوان، وهو خان معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة: فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم - صاحب الديوان والضامن له - يعرف بالصاحب: لقب وقع عليه لمكانه من الخطة، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم.

فأنزل التجار رحالهم به، ونزلوا فى أعلاه، وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل. فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة.

## ذكر مدينة عكة، دمرها الله وأعادها

هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام. مرقأ كل سفينة، والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينة، مجتمع السفن والرفاق، ومتلقى تجار المسلمين

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٥.

والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام، تستعر كفرًا وطغيانًا، وتفور خنازير وصلبانًا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسًا وعذرة.

انتزعها الإفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقس. وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة، بقيت بأيدى المسلمين مسجدًا صغيرًا، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة وعند محرابه قبر صالح النبى ﷺ وعلى جميع الأنبياء، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس.

وفى شرقى البلدة العين المعروفة بعين البقر، وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم صلى الله عليه وسلم. والمهبط لهذه العين على أدراج وطية، وعليها مسجد بقى محرابه على حاله، ووضع الإفرنج فى شرقيه محرابا لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه: يستقبل هذه مصلاه، وهذا مصلاه، وهو بأيدى النصارى معظم محفوظ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين.

فكان مقامنا بها يومين. ثم توجهنا إلى صور يوم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكورة، والموفى عشرين لشتبر المذكور، على البر. واجتزنا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهى مظلة على قرى وعمائر متصلة، وعلى قرية مسورة تعرف باسكندرونة، وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه إلى بجاية، طمعا فى الركوب فيه، فحللناها عشى يوم الخميس المذكور، لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا، فنزلنا بها فى خان معد لنزول المسلمين.

## ذكر مدينة صور، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدها الإفرنج مفزعًا لحادثة زمانهم، وجعلوها مسابة لأمانهم. هى أنظف من عكة سككًا وشوارها، وأهلها ألين فى الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أسجح، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى وأكفر.

وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به، وذلك أنها راجعة إلى بابين: أحدهما فى البر والآخر فى البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة. فالذى فى البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب.

وأما الذى فى البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس فى البلاد البحرية أعجب وضعًا منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص، فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل، ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم.

فشأن هذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع. ولعكة مثلها فى الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسى خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما، دخلناها يوم الخميس، وخرجنا منها يوم الثانى والعشرين لجمادى المذكورة، وهو آخر يوم من شتنبر، وذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه.

## عرس إفرنجى فى صور

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها: زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها. وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين بمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها.

وهى فى أبهى زى وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبًا على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهى رافلة فى حليها وحللها: تمشى فترًا فى فتر، مشى الحمامة، أو سير الغمامة - نعوذ بالله من فتنة المناظر - وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم، وراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات: يتهادين فى أنفس الملابس، ويرفلن فى أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم.

والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين، يتطلعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك. فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة. فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى، المستعاذ بالله من الفتنة فيه.

# مسلمو عكة

ثم عدنا إلى عكة فى البحر، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة، وأول يوم من شهر أكتوبر، وأكترينا فى مركب كسير نروم الإقلاع إلى مسِّينة من بلاد جزيرة صقلية. والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل، بعزته وقدرته.

وكانت راحتنا، مدة مقامنا بصور، بمسجد بقى بأيدى المسلمين - ولهم فيها مساجد آخر - فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وأخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طويلة.

وبعد استيلاء المسغبة عليهم، ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وأنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها.

وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم فى المسجد الجامع، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة، ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد، ويقضى الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم، وأجمعوا على دفع البلد، والخروج منه بسلام، فكان ذلك، وتفرقوا فى بلاد المسلمين.

ومنهم من استهواه حب الوطن، فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم، بعد أمان كتب لهم فى ذلك بشروط اشتراطوها. والله غالب على أمره، سبحانه جلت قدرته، ونفذت فى البرية مشيئته.

وليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازًا، وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين، لمشقات وأهوال يعانيها فى بلادهم: منها الذلة والمسكنة الذمية، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره وأعلى خطره، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة، والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده.

فالحذر، الحذر من دخول بلادهم. والله تعالى المسئول حسن الإقالة والمغفرة، من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم، ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم، فهو سبحانه ولى ذلك لا رب غيره.

## أسرى المسلمين

ومن الفجائع التى يعينها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون فى القيود، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسرات المسلمات كذلك فى أسوقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئًا.

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين، بهذه الجهات الشامية وسواها، إنما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين، والخواتين من النساء، وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم فى هذه السبيل.

وقد كان نور الدين رحمه الله نذر، فى مرضة أصابته، تفريق اثنى عشر ألف دينار فى فداء أسرى من المغاربة. فلما استبل من مرضه أرسل فى فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة - وكانوا من حماة من جملة عمالته - فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يفتكم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم. فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربى.

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار، وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثانى بأبى الدر ياقوت مولى العطافى وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجى، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعها، وشأنها فى الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير. وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوى الوصايا، لأنهما المقصودان بها، لما قد اشتهر من أمانتها وثقتهما وبذلهما أموالهما فى هذه السبيل، فلا يكاد مغربى يخلص من الأسر إلا على أيديهما، فهما طوا الدهر بهذه السبيل: ينفقان أموالهما، ويبذلان اجتهادهما فى تخليص عباد الله المسلمين من أيدى أعداء الله الكافرين. والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

## سوء الاتفاق

ومن سوء الاتفاقات، المستعاذ بالله من شرها، أنه صحبنا فى طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربى، من بونة عمل بجاية، كان أسيرا، فتخلص على يدى أبى الدر المذكور، وبقى فى جملة صبيانه، فوصل فى قافلته إلى عكة. وكان قد صحب النصارى، وتخلق

بكثير من أخلاقهم، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه، إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور.

فانصرفنا إلى عكة، وأعلمنا بخبره، وهو بها قد بطس ورجس، وقد عقد الزنار، واستعجل النار، وحقت عليه كلمة العذاب، وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب. نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفة، وأن يتوفانا مسلمين بفضله ورحمته.

وهذا الخنزير صاحب عكة - المسمى عندهم بالملك - محجوب لا يظهر: قد ابتلاه الله بالجذام، فعجل له سوء الانتقام. قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه، فهو فيها يشقى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وحاجبه وصاحب الحال عوضه: خاله القومس، وهو صاحب المجبى، وإليه ترتفع الأموال.

والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن، في الإفرنجية اللعينة، والقومس اللعين صاحب طرابلس، وطبرية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الإفرنج، وهو موصوف بالدهاء والمكر. وكان أسيرًا عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد، ثم تخلص بمال عظيم بذله في نفسه، مدة صلاح الدين وعند أول ولايته، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق.

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها، ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها. وبحيرة طبرية مشهورة، وهي ماء عذب، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة، وطولها نحو ستة فراسخ، والأقوال فيها تختلف، وهذا القول أقربها إلى الصحة لأنا لم نعاينها، وعرضها أيضًا مختلف سعة وضيقًا.

وفيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء صلوات الله عليهم: كشعيب، وسليمان، ويهودا، وروبيل، وابنة شعيب زوج الكليم موسى، وغيرهم صلوات الله وسلامه (عليهم) أجمعين، وجبل الطور منها قريب.

وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام، وهو بين المغرب والقبلة من عكة إلى جهة الإسكندرية. والله يعيده إلى أيدى المسلمين، ويطهره من أيدى المشركين، بعزته وقدرته.

## عكة وصور

وهاتان المدينتان: عكة وصور، لا بساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما، ولهما

عمالة متسعة. والجبال التى تقرب منهما معمورة بالضياع، ومنها تجبى الثمرات إليهما، وهما من غر البلاد.

ولعلكة فى الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء، ولها من شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرًا، ولا ميدان للخيل يشبهه، وإليه ،كوب صاحب البلد كل بكرة وعشية، وبه يجتمع العسكر دمره الله.

ولصور عند بابها البرى عين معينة ينحدر إليها على أدراج، والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها، والله تعالى يعيد إليها وإلى أخواتها كلمة الإسلام، بمنه وكرمه.

## فى المركب الشرعى

وفى يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة، والسادس لأكتوبر صعدنا إلى المركب - وهو سفينة من السفن الكبار - بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج. وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى ينتهى إلى أزيد من ألفى إنسان. أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة، ومأمول التسهيل والصنع الجميل، بمنه وكرمه، لا معبود سواه. ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق بمشيئة الله عز وجل.

## شهر رجب الفرد، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة، منتظرون كمال وسقه، والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته. وتمادى مقامنا فيه مدة اثنى عشر يوما لعدم استقامة الريح.

وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا فى فصلى الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة والبضائع إلا فى هذين الفصلين. والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل، وفيه تتحرك الريح الشرقية، وتطول مدتها إلى آخر مايه وأكثر وأقل بحسب ما يقضى الله تعالى به.

والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر، وفيه تتحرك الريح الشرقية، ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وإنما هى عندهم خلسة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يومًا وأكثر وأقل، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، والريح الغربية أكثرها دوامًا. فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم، ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق. فسبحان المبدع فى حكمته، المعجز فى قدرته، لا اله سواه.

وكنا طول هذه المدة التى أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت فى القبر، ونتفقد المركب فى الأحيان. فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور، والثامن عشر لأكتوبر، أقلع المركب. وكنا على عادتنا فى البر بائتين، ولم يحسن النهار للزوم بأهبة السفر، فضيعنا الحزم، ونسينا المثل المضروب فى إعداد الماء والزاد، وألا يفارق الإنسان رحله، فأصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر.

فاكترينا للحين زورقًا كبيرًا له أربعة مجاذيف، وأقلعنا نتبعه، وكانت مخاطرة عصم الله منها، فأدركنا المركب مع العشى، فحمدنا الله عز وجل على ما من به. وكان أول ذلك اليوم شدتنا فى هذا السفر الطويل، وآخره والحمد لله يوم فرجنا ولله الحمد والشكر على كل حال.

واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام، ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب، فأخذ رئيسه ومديره الرومى الجنوى - وكان بصيرا بصنعته، حاذقا فى شغل الرياسة البحرية - يراوغها تارة يمينًا وتارة شمالاً، طمعًا ألا يرجع على عقبه، والبحر فى أثناء ذلك وهو ساكن.

فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور، والسابع والعشرين لأكتوبر، تردت علينا الريح الغربية، فقصفت قريَّة الصارى. المعروف بالأردمون، وألقت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع، وعصم الله من وقوعها فى المركب، لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة.

فتبادر البحريون إليها، وحط شراع الصارى الكبير، وعطل المركب من جريه، وصيح بالبحرين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب، فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها، وحصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وشرعوا فى رفع الشراع الكبير، وأقاموا فى الأردمون شراعًا يعرف بالدلون.

وبتنا بليلة شهباء إلى أن وضح الصباح، وقد من الله عز وجل بالسلامة، وشرع البحريون فى إصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم، والريح الغربية على أول لجاجها، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وحفى لطفه ومعهود فضله، سبحانه هو أهل ذلك جل قدرته وتناهت عظمته، لا اله سواه.

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه، تحركت الريح الشرقية نسيمًا فاترًا عليلاً، فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها وقوتها، فكانت نفسًا خافتًا، ثم بعد ذلك غشى

البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم، فبقينا لاعبين على صحفة ماء تخاله العين سبيكة لجين، كأنا نجول بين سماءين، وهذا الهواء الذى يسميه البحريون الغلينى.

وفى ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور - وهو أول يوم من نوننبر العجمى - كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له فى اسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم - صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى - من شمعة فى يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة فى المركب بهم، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجا متقدة.

وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة، ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن، واتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع والعشرين منه، فتحركت ريح شمالية، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس والحمد لله.

## شهر شعبان المكرم؛ عرفنا الله خيره وبركته

غم هلاله علينا، فأكملنا عدة أيام رجب، فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نوننبر، وقد تم لنا على ظهر البحر من يوم اقلاعنا من عكة اثنان وعشرون يوما، حتى عدمنا الانس، واستشعرنا القنط واليأس، وصنع الله عز وجل مأمول، ولطفه الحفى بنا كفيل، بمنه وكرمه.

وقل الزاد بأيدى الناس، لكن هم من هذا المركب - بمنة الله - فى مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد، من خبز وماء، ومن جميع الفواكه والأدم: كالزمان، والسفرجل، والبطيخ السندى، والكمثرى، والشاه بلوط، والجوز، والحمص، والبلاقلا نيًا ومطبوخًا، والبصل والثوم، والتين، والجبن، والحوت، وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع. وفى خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر، والله يأتى بالفرج القريب.

ومات فيه رجلان من المسلمين، رحمهما الله، فقذفا فى البحر، ومن البلغريين اثنان أيضًا، ومات منهم بعد ذلك خلق، وسقط منهم واحد فى البحر حيا فاحتملته الموج أسرع من خطفة البارق. وورث هؤلاء الأموات، من المسلمين والنصارى البلغريين، رئيس المركب لأنها سنة عندهم فى كل من يموت فى البحر، ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه، فطال عجبنا من ذلك.

وفى سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ، والثالث عشر من نوفمبر، ظهرت لنا جبال فى البحر. وقد اشتدت الريح الغربية وتوالى إعصارها، وكانت تتقلب بالقبول والدبور، فألجأتنا إلى أحد تلك الجبال، فأرسينا عنده، وسألنا عن الموضع، فأعلمنا أنه من جزائر الرومانية. وهذه الجزائر نيف على الثلاثمائة وخمسين جزيرة، وهى إلى عمل صاحب القسطنطينية، والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين لأنهم لا صلح بينهم.

فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدر يوم الأربعاء بعده، ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار فى الخز واللحم، بعد أمان أخذوه. ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور، وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يومًا.

وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة أقريطش - وهذه الجزيرة أيضًا لعمل صاحب القسطنطينية، وطولها نيف على الثلثمائة ميل، وقد تقدم ذكرها فى سفرنا البحرى إلى الإسكندرية - فبقينا نجرى بطولها، وهى منا على اليمين، والبحر فى أثناء ذلك كله هائل، والريح لا توافق، ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل، ونرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه.

وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنوفمبر، انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة، ونحن نجرى بريح شمالية موافقة، فزئرت وعصفت، فطار لها المركب بجناحى شراعه، والبحر بها قد جن واستشرى لجاجه، وقذفت بالزبد أمواجه، فتخال غواربه المتموجة جبالاً مثلجة، ومع تلك استشعرت النفوس الأنس، وغلب رجاؤها اليأس.

وقد كنا مدة الستة وعشرين يومًا المذكورة، التى لم يظهر لنا فيها بر، نرجم الظنون ونغازل المنون، حذرا من نفاد الزاد والماء، والحصول بين المهلكين الجوع والظماء: فمن قائل يقول أنا قد ملنا فى جرينا إلى بر الغرب وهو بر أفريقية، وآخر يزعم أنا قد ملنا إلى بر الأرض الكبيرة بر القسطنطينية وما يليها، ومنهم من يقول إلى اللاذقية جهة الشام، ومنهم من يقول إلى دمياط بر الإسكندرية.

وكنا نحذر أن تلجئنا الريح إلى أحد جزائر الرومانية الخالية فنشتو فيها، أو تضطرنا الحال إلى المعمور منها، وليس فى هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار، حتى أتى الله بالفرج، وأذهب البأس واليأس، ومكن فى النفوس الإيناس بعد مكابدة الأمرين ومقاساة البرحين. فلله در القائل:

البحر مُرُّ المَذاق صعب ... لا جُعلتَ حاجتَى إليه

أليس ماء ونحن طينُ ... فما عَسى صَبرنا عليه؟

ونحن الآن – بفضل الله تعالى – نتطلع البشرى بظهور بر صقلية إن شاء الله.

## الرياح العاصفة الغربية

وفى النصف من ليلة الأحد، الحادى عشر منه، انقلبت الريح غربية وكشف النوء من المغرب، وجاءت الريح عاصفة، فأخذت بنا جهة الشمال. وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحر قد هاج هائجه وماج مائجه، فرمى بموج كالجبال، يصطدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب، وكان كالسور علوا، فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب.

فلما جن الليل اشتد تلاطمه، وصكت الآذان غماغمه، واستشرى عصوف الريح، فحطت الشرع، واقتصر على الدلالين الصغار دون أنصاف الصوارى، ووقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان، وظننا أنا قد أحيط بنا. فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب، مذكورة فى ليالى الشوائب، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب.

ونحن منها فى مثل ليل صول طولا، فأصبحنا ولم نكد، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر أقريطش عن يسارنا، وجباله قد قامت أمامنا، وكنا قد خلفناه عن يميننا، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه، فسقط فى أيدينا، وخالفنا المجرى المعهود الميمون: وهو أن يكون البر المذكور منا يمينا فى استقبال صقلية، فاستسلمنا للقدر، وتجرعنا غصص هذا الكدر، وقلنا:

سيَكونُ الذى قُضى  سخَط العَبدُ أو رَضى

وفى أثناء ذلك انبسطت الشمس، ولأن البحر قليلاً، وصممنا نروم أخذ مرسى فى البر المذكور إلى أن يقضى الله قضاءه، وينفذ حكمه. ولكل سفر أوان، وسفر البحر إنما هو فى أبانه، والمعهود من زمانه، لا أن يعتسف فى فصول أشهر الشتاء اعتسافنا له، والأمر لله من قبل ومن بعد. فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر، وإن كان المحذور لا يغنى عن المقدور شيئا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم إن الريح ساعدت عند استقبالنا البر بعض مساعدة، فانصرفنا عنه وتركناه يمينا، وعدنا إلى قريب من المجرى المقصود. وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه – وقد تم لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يومًا – والشرع مصلبة، وهو عندهم أعدل جرى، لأنه لا يكون إلا بالريح التى تتلقى مؤخر المركب فى مجراه.

فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال، وساعدت الريح، ففرحنا وسررنا، وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا، فاستبشرنا بها، وعلمنا أنا على مجرى مقصود، ولله الحمد والشكر على كل حال من الأحوال.

ثم انقلبت الريح غربية، وهبت عاصفا، فألجأتنا اضطرارًا - بعد أن جرت بنا بعض ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء - إلى مرسى من مراسي جزائر الرومانية، وهو رأس الجزيرة، ومنه إلى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا عشر ميلاً. فأصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثاني والعشرين لنوفمبر، فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة. وتوافت بعدنا إلى ذلك المرسى خمسة مراكب: منها اثنان كانا قد أقلعا من بر الإسكندرية عن عهد نحو خمسين يومًا، فأسقطتهما الريح.

فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام، وجدد الناس به الماء والزاد، لأن العمارة كانت منا قريبا. فنزل أهل الجزيرة، وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم والزيت، وما كان عندهم من الأدم. ولم يكن خبزهم برا خالصًا، إنما كان خليطًا بالشعير، وكان يضرب للسواد، فتهافت الناس عليه على غلائه، ولم يكن بالرخيص فى سومه، وشكروا لله على ما من به عليهم.

وفى هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يومًا، والحمد لله على كل حال، ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية، وعادت أشد ما يكون هبوبًا. فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين، والحمد لله على جميل صنعه.

وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور، والسادس والعشرين لنوفمبر، بريح طيبة موافقة. فاستبشرنا بها، واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضائه، لا رب سواه. وتمادى سيرنا إلى يوم الخميس الثانى والعشرين لشعبان، والتاسع والعشرين لنوفمبر.

ثم انقلبت الريح غربية، وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف، وزجتها ريح عاصف، وتقدمها برق خاطف، فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا فى المركب ثآبيب متداركة، فارتاعت له النفوس، ثم أسرع انقشاعها، وانجلى عن الأنفس ارتياعها. وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة، وطالعنا اليأس من مكمنه؛ فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحا أمامنا، فيالها بشرى ومسرة لو لم يعد حسرة فى كرة!

فأمسينا ليلة السبت، وهو أول يوم من دجمبر، ونحن على ادراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها – ولكل أجل كتاب وميقات، وكم أمل تعترض دونه الآفات – فما كان إلا كلا ولا، حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب، وحالت بين الابصار والارتقاب، ومازالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف، فحطت الشرع عن صواريها، واستسلمت النفوس لباريها، وتركنا بين السفينة ومجريها.

وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها، ومن الليل والبحر، فى ثلاث ظلم، وعباب الموج تتوالى صدماته، وتطفر الألباب رجفاته. فنبذت نفوسنا كل أمنية، وتأهبت للقاء المنية. وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال، ومكابدة أوجال، ومقاساة أحوال، يالها من أحوال!

ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب، والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت، وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء.

ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء: ففترت الريح، ولأن متن البحر، وأسفر وجه الجو. وأصبحنا يوم الأحد ثانى دجمبر، والخامس والعشرين لشعبان، وقد بدل لنا من الخوف الأمان، وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان، وساعدت الريح بعض مساعدة، فعدنا نطلب من البر أثرا بعد عين، ونرجم الظنون بين متى وأين. والله عز وجل لطيف بعباده، وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده، لا رب سواه.

## شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة والقبول فيه بمنه وكرمه لا رب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة، السابع لشهر دجمبر، ونحن بازاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددين. وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب، سرنا بها سيرًا رويدًا حتى وصلنا هذا الموضع من ازاء الأرض الكبيرة المذكورة، وأبصرنا فيها ضياعًا وعمارة كثيرة أعلمنا أنها من قلورية، وهى من بلاد صاحب صقلية، لأن بلاده فى الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين.

وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده. وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس: نتقسمه بين أربعة منا، ونبله بيسير من الماء، فنتبلغ به. وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده، فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه، وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص.

فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر، فى مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام أو خمسة عشر يومًا الغايــة، فالحـازم مـن أدخـل زاد ثلاثـين يومًـا، وسـائر النـاس لعشرين يوما، ولخمسة عشر يومًا.

ومن العجب فى الاتفاقات فى الأسفار البحرية، أنا اسـتطلعنا علـى ظـهر البحـر أهلـة ثلاثة أشهر: هلال رجب، وهلال شعبان، وهـلال رمضـان هـذا. وفـى يـوم مسـتهله مـع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار - وهو جبل البركان المشهور بصقلية - فاستبشرنا بذلـك. والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه، ويختم لنا بأجمل الصنـع وأسـناه، ويوزعنـا فـى كل حال شكر ما أولاه، بمنه وكرمه.

ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة. فلمـا كـان عشـى يـوم السـبت، ثـانى الشـهر المذكور، اشتد هبوبها فزجت المركب تزجية سريعة، فلم يكن إلا كـلا ولا حتـى أدتنـا إلى أول المضيق والليل قد جن. وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أميـال، وأضيـق موضع فيه ثلاثة أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقليـة، والبحـر بـهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم، ويغلـى غليـان المرجـل لشـدة انحصـاره وانضغاطـه، وشقه صعب على المركب. فاستمر مركبنا فى سيره، والريح الجنوبية تسـوقه سوقا عنيفـا، وبر الأرض الكبيرة عن يميننا، وبر صقلية عن يسارنا.

## الاشراف على الغرق

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك، وقـد شـارفنا مدينـة مسـينة مـن الجزيرة المذكورة، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالتـه الريـح بقوتـها إلى أحـد البرين، وهو ضارب فيه. فأمر رئيسهم بحـط الشـرع للحـين، فلـم ينحـط شـراع الصـارى المعروف بالأردمون، وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح بـه، فلمـا أعيـاهم مزقـه الرائس بالسكين قطعا قطعا طمعا فى توقيفه.

وفى أثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله على البر، والتقاه بسكانيه - وهما رجـلاه اللتان يصرف بهما - وقـامت الصيحـة الهائلـة فـى المركـب، فجـاءت الطامـة الكـبرى، والصدعة التى لم نطق لها جبرا، والقارعة الصماء التى لم تدع لنا صبرًا، والتدم النصارى التداما، واستسلم المسلمون لقضاء وبهم استسلامًا، ولم يجدوا سوى حبل الرجاء استمساكًا واعتصاما. وتعاوزت الريح والأمواج صفع المركـب حتـى تكسـرت رجلـه الواحـدة، فـألقى الرائس مرسى من مراسيه طمعًا فى تمسكه به فلم يغـن شيئـًا، فقطـع حبلـه وتركـه فـى البحر.

فلما تحققنا أنها هى قمنا فشددنا للموت حيازيمنا، وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا، وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح. وقد علا الصياح، وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهم، وألقى الجميع عن يد الاذعان، وقد حيل بين العير والنزوان.

ونحن قيام نبصر البر قريبًا، وتتردد بين أن نلقى بأنفسنا إليه سبحًا، أو ننتظر لعل الفرج من الله يطلع صبحًا، فأحضرنا نية الثبات. والبحريون قد ضموا العشارى لاخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم، فساروا به إلى البر دفعة واحدة، ثم لم يطيقوا رده، وقذفته الموج مكسرًا على ظهر البر، فتمكن حينئذ اليأس من النفوس.

وفى أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر الصبح، فجاء نصر الله والفتح، وحققنا النظر، فإذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من نصف الميل، وقد حيل بيننا وبينها، فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره، وقلنا رب مجلوب إليه حتفه فى عتبة داره.

## الزوارق المغيثة

ثم تمكن الشروق، فجاءتنا الزواريق مغيثة. ووقعت الصحة فى المدينة، فخرج ملك صقلية غليام بنفسه فى جملة من رجاله، متطلعًا لتلك الحال، وبادرنا إلى النزول فى الزواريق، والأمواج لشدتها لا يمكنها الوصول إلى المركب. فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم، ونجونا إلى البر منجى أبى نصر عن قدر، وتلف للناس بعض أسبابهم، فتسلوا عن الغنيمة بايابهم.

ومن العجب – على ما أخبرنا به – أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء، من المسلمين يتطلعون من المركب، وليس لهم شىء يؤدونه فى نزولهم، لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم. فسأل عنهم فأعلم بقصتهم، فأمر لهم بمائة رباعى من سكته ينزلون بها. وخلص جميع المسلمين عن سلام، وقيل الحمد لله رب العالمين. وفرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه، فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذًا، ورمت به إلى البر أفلاذًا، فعاد عبرة للناظرين، وآية للمتوسمين.

ووقع العجب من سلامتنا منه، وجددنا شكر الله عز وجل على ما من به من لطيف صنعه وجميل قضائه، وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا فى الأرض الكبيرة أو إحدى جزائر الروم المعمورة، فكنا لو سلمنا نستعبد للأبد. والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة، وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة. إنه على ذلك قدير، وبعوائد الفضل والخير جدير، لا إله سواه.

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا، ولطفه بنا فى هذه الحادثة، كون هذا الملك الرومى حاضرا فيها. ولولا ذلك لا تنهب جميع ما فى المركب انتهابًا، وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين، لأن العادة جرت لهم بذلك. وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد، بسبب أسطوله الذى ينشئه، رحمة لنا. والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا، لا إله سواه.

## ذكر مدينة مسنية من جزيرة صقلية
## أعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جوارى البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، مملوءة نتنا ورجسًا، موحشة لا توجد الغريب انسا.

أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة. لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخناديقها، والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها. ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه، وتنصب منها إلى البر خشبة يتصرف عليها، فالحمال يصعد بحمله إليها، ولا يحتاج لزواريق فى وسقها، ولا فى تفريغها، إلا ما كان مرسيًا على البعد منها يسيرًا، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها. وذلك لإفراط عمق البحر فيها. وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال، ويقابلها منه بلدة تعرف برية وهى عمالة كبيرة.

وهذه المدينة مسينة رأس جزيرة صقلية، وهى كثيرة المدن والعمائر والضياع، وتسميتها تطول. وطول هذه الجزيرة صقلية سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام. وبها جبل البركان المذكور، وهو يأتزر بالسحب لإفراط سموه، ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما.

وخصب هذه الجزيرة اكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة : مشحونة بالأرزاق على اختلافها،مملوءة بأنواعه الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعيدة الصلبان : يمشون فى مناكبها ـ ويرتعون فى أكنافها. والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة

فى الأرض كانوا يجدونها. والله عز وجل يصلح أحوالهم، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه. وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والاجاص، وغيرها من الفواكه.

## المسلمون فى صقلية

وليس فى مسينة هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب.

وأحسن مدنها قاعدة ملكها، والمسلمون يعرفونها بالمدينة، والنصارى يعرفونها ببلارمة، وفيها سكنى الحضريين من المسلمين، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها. لكن المدينة الكبيرة، التى هى مسكن ملكلها غليام، أكبرها وأحفلها وبعدها مسينة. وبالمجينة - إن شاء الله - يكون مقامنا، ومنها نؤمل سفرنا إلى حيث يقضى الله عز وجل من بلاد المغرب إن شاء الله.

## الملك غليام وحسن سيرته

وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة ـ واستعمال المسلمين، واتخاذ الفتيان المجاذيب - وكلهم أو أكثرهم كان إيمانه ـ متمسك بشريعة الإسلام - وهو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله، حتى أن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزراءه وحجابه الفتيان، وله منه جملة كبيرة هم أهل دولته، والمرتسمون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والاتباع.

## القصر الأبيض

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولاسيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة - وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر. وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى، وليس فى ملوك النصارى أترف فى الملك، ولا أنعم ولا أرفه، منه. وهو يشتبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه، وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته، بملوك المسلمين.

وملكه عظيم جدًا، وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم. حتى أنه منى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه، وآدر له أراق

معيشته حتى يسليه عن وطنه، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه، وسنه نحو الثلاثين سنة، كفى الله المسلمين عاديته وبسطته.

ومن عجيب شأن المتحدث به أن يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - (الحمد لله حق حمده)، وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكرا لأنعمه).

وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن.

## المسلمون فى دولة غليام

ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور - وهو يحيى بن فتيان الطراز، وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك - أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة.

وأعلمنا أنه كان فى هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك، فكان يتطلع فى قصره، فلا يسمع إلا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكينا لهم.

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا، ويتصدق تقربا إلى الله وتزلفا، ويفتك الأسرى، ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم.

لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح، من وجوههم وكبرائهم - بعد تقدمة رغبة منه إلينا فى ذلك فاحتفل فى كرامتنا وبرنا، واخرج إلينا عن سره المكنون، بعد مراقبة منه فى مجلسه، أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه. فسألنا عن مكة - قدسها الله - عن مشاهدها المعظمة، وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام، فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة - قدسهما الله - ورغب فى أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك.

وقال لنا : أنتم مدلون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله فى متجركم. ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرًا، معتقلون فى ملكه كافر بالله، قد وضع فى أعناقنا ربقة الرق، فغايننا

الترك بلقاء أمصالكم من الحجاج، واستهداء أدعيتهم، والاغتباط بما نتلقاه منهم من يحف تلك المشاهد المقدسة ـ لنتخذها عدة للإيمان وذخيرة للأكفان.

فتفطرت قلوبنا له اشفاقًا، ودعونا له بحسن الخاتمة، وأتحفاه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه، وأبلغ فى مجازاتنا ومكافأتنا، واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة، وفى افتكاك الأسرى صنائع عند الله مسورة، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم.

ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم، فيحين وقت الصلاة، فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم. وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم، فيسترهم الله عز وجل، فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم. والله ينفعهم، ويجمل خلاصهم بمنه.

ولهذا الملك مدينة مسينة المذكورة دار صنعة (البحر)، تحتوى من الأساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه، وله بالمدينة مثل ذلك.

## مغادرة صقلية

فكان نزولنا فى أحد الفناديق، وأقمنا بها تسعة أيام. فلما كان ليلة الثلاثاء الثانى عشر للشهر المبارك المذكور، والثامن عشر لدجنبر، ركبنا فى زورق، متوجهين إلى المدينة المتقدم ذكرها، وصرنا قريبًا من الساحل بحيث نبصره رأى العين. وأرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق هنأ تزجية، وسرنا نسرح اللحظ فى عمائر وقرى متصلة، وحصون ومعاقل فى قمم الجبال مشرفة.

وأبصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر قد قامت جبالاً مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها تخرج منهما النار دائمًا، وأبصرنا الدخان صاعدًا منهما، ويظهر بالليل نارا حمراء ذات ألسن تصعد فى الجو – وهو البركان المشهور خبره – وأعلمنا أن خروجها من منافس فى الجبلين المذكورين، يصعد منها نفس نارى بقوة شديدة تكون عنه النار، وربما قذف فيها الحجر الكبير، فتلقى به فى الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس، وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر، وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة.

وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة، المعروف بجبل النار، فشأنه أيضًا عجيب. وذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العرم، فلا تمر بشىء إلا أحرقته، حتى تنتهى إلى البحر، فتركب ثبجه على صفحة حتى تغوص فيه. فسبحان المبدع فى

عجائب مخلوقاته، لا إله سواه. إلى أن حللنا عشى يوم الأربعاء، بعد يوم الثلاثاء المؤرخ، مرسى مدينة شفلودى وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى.

## ذكر مدينة شفلودى من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى

هى مدينة ساحلية، كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة أشجار الأعناب وغيرها، مرتبة الأسواق : تسكنها طائفة من المسلمين، وعليها قنة جبل واسعة مستديرة، فيها قلعة لم ير أمنع منها، اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر، من جهة المسلمين نصرهم الله.

وكان إقلاعنا منها نصف الليل، فجئنا مدينة ثرمة ضحوة يوم الخميس يسير رويد، وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلاً، فانتقلنا فيها من ذلك الزورق إلى زورق ثان اكتريناه، لكون البحرين (الذين) صحبونا فيه من أهلها.

## ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة، فتحها الله

هى أحسن وضعًا من التى تقدم ذكرها، وهى حصينة تركب البحر وتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد، ولها قلعة سامية منيعة، وفى أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام. وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية، والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب وسعة الأرزاق.

فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور، ونحن قد أرسينا فى واد بأسفلها، ويطلع فيها المد من البحر ثم ينحسر عنه، وبتنا بها ليلة الجمعة. ثم انقلب الهواء غربيا، فلم نجد للاقلاع سبيلاً، وبيننا وبين المدينة المقصودة - المعروفة عند النصارى ببلارمة - خمسة وعشرون ميلا. فخشينا طول المقام، وحمدنا الله تعالى على ما انعم به من التسهيل فى قطع المسافة فى يومين، وقد تلبث الزواريق فى قطعها - على ما أعلمنا به - العشرين يومًا والثلاثين يومًا ونيفًا على ذلك.

فأصبحنا يوم الجمعة، منتصف الشهر المبارك، على نية من المسير فى البر على أقدامنا، فنفذنا لطيتنا، وتحملنا بعض أسبابنا، وخلفنا بعض الأصحاب على الأسباب الباقية فى الزورق، وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر وارد، وطوائف النصارى يتلقوننا ـ فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا. فرأينا من سياستهم، ولين

مقصدهم مع المسلمين، ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل. عصم الله جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفتنة بهم، بعزته ومنه.

فانتهينا إلى قصر سعد - وهو على فرسخ من المدينة - وقد أخذ منا الاعياء، فملنا إليه وبتنا فيه. وهذا القصر على ساحل البحر، مشيد البناء عتيقه، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل - ولا يزال بفضل الله - مسكنا للعبَّاد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع. وهو موصوف بالفضل والبركة، مقصود من وكل مكان، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة، وله باب وثيق من الحديد، وداخله مساكن وعلالى مشرفة وبيوت منتظمة، وهو كامل مرافق السكنى.

وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، مستطيل ذو حنايا مستطيلة، مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة، وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصفر والزجاج، وأمامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر، وفى أسفل القصر بئر عذبة. فبتنا فى هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه، وسمعنا الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه، وأكرمنا القوم الساكنون فيه، وله إمام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى هذا الشهر المبارك.

وبمقربة من هذا القصر، بنحو الميل إلى جهة المدينة، قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر وداخله سقاية تفور بماء عذب.

وأبصرنا للنصارى فى هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى، ولهم فى مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك. فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر.

فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة، فجئنا لندخل فمنعنا، وحملنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الإفرنجى - أراح الله المسلمين من ملكته - وأدينا إلى المستخلف من قبله ليسألنا على مقصدنا، وكذلك فعلهم بكل غريب. فسلك بنا رحاب وأبواب وساحات ملوكية، وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لأهل الخدمة، ما راع أبصارنا، وأذهل أفكارنا، وتذكرنا قول الله عز وجل :

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[1]

(١) سورة الزخرف الآية ٣٣.

وأبصرنا فيما أبصرناه مجلسا فى ساحة فسيحة، قد أحدق بها بستان، وانتظمت جوانبها بلاطات، فعجبنا من طوله وإشراف مناظره، فأعلمنا أنه موضع غداء الملك مع اصحابه، وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه، وأهل الخدمة والعمالة أمامه.

فخرج إلينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله ـ فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة، فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربى لين. فأعلمناه، فأظهر الاشفاق علينا، وأمر بانصرافنا بعد أن أحفى فى السلام والدعاء، فعجبنا من شأنه. وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه، فلم يكن عندنا ما نعلمه به، وقد نقيد خبرها بعد هذا.

وكان من أغرب ما شاهدناه من الأمور الفتانة ـ أن أحدًا من كان قاعدًا عند باب القصر من النصارى، قال لنا – عند انصرافنا عن القصر المذكور – : تحفظوا بما عندكم ياحجاج من العمال المسكين لئلا يقعوا عليكم ؛ وظن أن عندنا تجارة تقتضى التمكيس. فاستجاب له أحد النصارى فقال : ما أعجب أمرك، يدخلون حرم الملك، ويخافون من شىء ! ما كنت أود لهم إلا آلافا من الرباعيات ـ انهضوا بسلام لا خوف عليكم.

فقضينا عجبا مما شاهدناه وسمعناه، وخرجنا إلى أحد الفنادق فنزلنا فيه، وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك، والثانى والعشرين لدجمبر. وفى خروجنا من القصر المذكور، سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء، فأعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة.

## ذكر المدينة التى هى حضرة صقلية
## أعادها الله

هى بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أنيقة، مشرقة مؤنقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبة البنيان، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان.

يشقها نهر معين، ويطرد فى جنباتها أربع عيون، قد زخرفت فيها لملكها دنياه، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجى، أباده الله. تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب. فكم له فيها – لا عمرت

به - من مقاصير ومصانع، ومناظر ومطالع، وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها، ورفه بالاقطاعات الواسعة رهباتها، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها. وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان، فيعيدها دار إيمان، وينقلها من الخوف للأمان، بعزته. انه على ما يشاء قدير.

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان : يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى.

ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون فى وقيده فى هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم، تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه.

ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة - والشىء قد تشبه بالشىء من إحدى جهاته - أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم، هى فى وسط المدينة الحديثة، وعلى هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله. وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة، لها مناظر فى الجو مظلمة تحار الأبصار فى حسنها.

## كنيسة الإنطاكى

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران: كنيسة تعرف بكنيسة الإنطاكى. أبصرناها يوم الميلاد - وهو يوم عيد لهم عظيم - وقد احتفلوا لها رجالاً ونساء. فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة: جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله. قد رصعت كلها بفصوص الذهب، وكللت بأشجار الفصوص الخضر، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها، وتحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها.

وأعلمنا أن بانيها، الذى تنسب إليه، أنفق فيها قناطير من الذهب، وكان وزيراً لجد هذا الملك المشرك. ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة، وعلت قبة على أخرى سوار كلها، فتعرف بصومعة السوارى، وهى من أعجب ما يبصر من البنيان. شرفها الله عن قريب بالأذان بلطفه وكريم صنعه.

وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات متنقبات. خرجن فى هذا العيد المذكور، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر:

أن من يدخل الكنيسة يومًا  يلق فيها جآزرا وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، ويؤدى إلى أباطيل اللهو، ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى تفنيد. أنه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام، ونزلنا بها فى أحد فناديقها التى يسكنها المسلمون. وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين لهذا الشهر المبارك، والثامن والعشرين لشهر دجنبر، إلى مدينة أطرابنش بسبب مركبين به: أحدهما يتوجه إلى الأندلس، والثانى إلى سبتة - وكنا أقلعنا إلى الاسكندرية فيه - وفيهما حجاج وتجار من المسلمين.

فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة، وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا، فشبهناها بقنبانية قرطبة، أو هذه أطيب وأمتن. وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلقمة. وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد، وسكانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق كلها مسلمون.

وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك، والتاسع والعشرين لدجنبر، فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة. وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة، وقد فجرها الله ينابيع من الأرض. وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها. فأجزنا منها واحدة على الطريق. فنزلنا إليها عن الدواب، وأرحنا الأبدان بالاستحمام فيها، ووصلنا إلى أطرابنش عصر ذلك اليوم، فنزلنا فيها فى دار اكتريناها.

## ذكر مدينة أطرابنش
## من جزيرة صقلية، أعادها الله

هى مدينة صغيرة الساحة، غير كبيرة المساحة، مسورة ببيضاء كالحمامة. مرساها من أحسن المراسى، وأوفقها للمراكب، ولذلك ما يقصد الروم كثيرا إليها، ولاسيما المقلعون إلى بر العدوة، فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة. فالسفر منها إليها

لا يتعطل شتاء ولا صيفا الا ريثما لا تهب الريح الموافقة، فمجراها فى ذلك مجرى المجاز الغريب.

وبهذه المدينة السوق والحمام، وجميع ما يحتاج إليه من مرافق المدن، لكنها فى لهوات البحر لا حاطته بها من ثلاث جهات، واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة، والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات. فأهلها يرون أنه لابد له من الاستيلاء عليها، وأن تراخى مدى أيامها، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى. وهى مرفقة موافقة لرخاء السعر بها، لأنها على محرث عظيم. وسكانها المسلمون والنصارى، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس.

وبركنها من جهة الشرق، مائلاً إلى الشمال على مقربة منها، جبل عظيم مفرط السمو متسع، فى أعلاه قنة تنقطع عنه، وفيها معقل للروم، وبينه وبين الجبل قنطرة، ويتصل به فى الجبل للروم بلد كبير، ويقال أن حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة، جعلها الله سبيا للمسلمين.

وبهذا الجبل الكروم والمزارع، وأعلمنا أن به نحو أربعمائة عين متفجرة، وهو يعرف بجبل حامد، والصعود إليه هين من إحدى جهاته. وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة أن شاء الله، ولا سبيل أن يتركوا مسلمًا يصعد إليه، ولذلك ما أعدوا فيه ذلك المعقل الحصين، فلو أحسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه، وقطعوا القنطرة، واعترض بينهم وبين الذى فى أعلاه متصل به خندق كبير.

وشأن هذا البلد عجيب، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره، وأطرابنش فى هذا البسيط، ولا ماء لها إلا من بئر على البعد منها، وفى ديارها آبار قصيرة الأرشية ماؤها كلها شريب لا يساغ وألفينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع إلى المغرب بها، ونحن أن شاء الله نؤمل ركوب أحدهما، وهو القاصد إلى بر الأندلس. والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه.

وفى غربى هذه البلدة - أطرابنش المذكورة - ثلاث جزائر فى البحر على نحو فرسخين منها، وهى صغار متجاورة: أحداها تعرف بمليطمة، والأخرى بيابسة، والثالثة تعرف بالراهب، نسبت إلى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن، وهى مكمن للعدو. والجزيرتان لا عمارة فيهما، ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور.

## شهر شوال، عرفنا الله يمنه وبركته

اتسهل هلاله ليلة السبت الخامس من يناير، بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكورة، بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس، ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها، فعيد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور.

وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة، مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم، فصلينا صلاة الغرباء. جبر الله كل غريب إلى وطنه.

وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم، وانصرفوا بالطبول والبوقات. فعجبنا من ذلك، ومن اغضاء النصارى لهم عليه. ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه - إن شاء الله - إلى بر الأندلس، ونظرنا فى الزاد، والله المتكفل بالتيسير والتسهيل.

ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته، بسبب الأسطول الذى يعمره ويعده، فليس لمركب سبيل للسفر إلى أن يسافر الأسطول المذكور - خيب الله سعيه، ولا تم قصده - فبادر الروم الجنويون، أصحاب المركبين المذكورين، إلى الصعود فيهما تحصنا من الوالى. ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه، فأقاموا بمركبيهم ينتظرون هواء يقلعون به.

وفى هذا التاريخ المذكور، وصلتنا أخبار موحشة من الغرب: منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية. والله لا يحقق ذلك، ويجعل العاقبة والهدنة للمسلمين، بمنه وكرمه.

والناس بهذه المدينة يرجمون الظنون فى مقصد هذا الأسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره - وعدد أجفانه، فيما يقال، ثلاثمائة بين طرائد ومراكب، ويقال أكثر من ذلك، ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام، والله يقطع به، ويجعل الدائرة عليه - فمنهم من يزعم أن مقصده الاسكندرية حرسها الله وعصمها، ومنهم من ينزّل أن مقصده ميورقة حرسها الله، ومنهم من يزعم أن مقصده أفريقية حماها الله، ناكثًا لعهده فى السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب. وهذا أبعد الظنون من الامكان، لأنه مظهر للوفاء بالعهد، والله يعين عليه ولا يعينه.

ومنهم من يرى أن احتفاله إنما هو لقصد القسطنطينية العظمى، بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشان، المهدى للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان، وتشهد

للحديث المأثور عن المصطفى ﷺ بصدق البرهان. وذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفى، وترك الملك بعده لزوجه ولها ابن صغير، فقام ابن عم له فى الملك، وقتل الزوج المذكورة، وثقف الابن المذكور.

ثم أن ألنا للثائر المذكور عطفته الرحمة على الابن المعتقل، فأطلق سبيله - كان أبوه قد أمر بقتله - فرمت به الأقدار إلى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه، فودها على حالة ابتذال، ومهنة استعمال خادما لأحد الرهبان، مسدلاً على سارته الملوكية سرًا من الامتهان. ففشى الأمر وذاع السر، لم يغن عنه ذلك الستر، فاستحضر عن أمر الملك الصقلى غليام المذكور قبل واستطق واستفهم، فزعم أنه عبد لذلك الراهب وخديمه.

ثم أن طائفة من الروم الجنوبين، المسافرين إلى القسطنطينية، أثبتوا صفته، وحققوا أنه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لاحت منه. منها - فيما ذكر لنا - أن الملك غليم خرج فى يوم زينة له، وقد اصطف الماس للسلام عليه، وأحضروا الفتى المذكور فى جملة الخاصة. فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطلوعه عليهم، الا ذلك الفتى، فإنه لم يزد على الإيماء فى السلام، فعلم أن الهمة الركية منعته من المدخل مدخل السوقة فاعنى به الملك غليام، وأكرم مثواه، وأزكى عيون الاحتراس عليه، خوفًا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه.

وكانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور، فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح فى الأقارب. فحمله الحب المصمى، والهوى المصم المعمى، والسعادة التى تفضى بصاحبها إلى العاقبة الحسنى، وترمى على أخذها، والتوجه بها إلى الأمير مسعود، صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية - وقد تقدم ذكر غنائه فى الإسلام فيما مضى من هذا التقييد. وحسبك أن صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدى الجزية إليه، ويصالحه على ما يجاوره من البلاد - فأسلم مع ابنة عمه على يده.

وسيق له صليب ذهب قد أحمى عليه فى النار، فوضعه تحت قدمه - وهى عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية، والوفاء بذمة دين الإسلام - وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه، وأخذ جيوش المسلمين معه إلى القسطنطينية فدخلها بهم، وقتل من أهلها نحو الخمسين ألفا من الروم، وأعانه الاغريقيون على فعله- وهم فرقة من فرق أهل الكتاب، وكلامهم بالعربية، وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة، وهم لا يرون أكل لحم الخنزير - فشفوا نفوسهم من أعاديهم، وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض.

واستولى المسلمون على القسطنطينية، ونقلت أموالها كلها - وهو مالا يأخذه الإحصاء - إلى الأمير مسعود، وجعل من المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس، واتصلت بلادهم بها. وهذا الفتح - إذا صح - من أكبر شروط الساعة، والله أعلم بغيبه.

ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضًا على ألسنة المسلمين والنصارى، محققين له لا شك عندهم فيه أنبأت به مراكب الروم التى وصلت القسطنطينية. وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدين لنا، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة، عما عندنا من خبر القسطنطينية، فلم يكن عندنا علم، ولا تعرفنا معنى السؤال عنها الا بعد ذلك.

وتحققوه أيضا من جهة ملكها هذا الصبى، وما كان من اتباع الشائر عليه اياه عيونا تروم اغتياله فهو اليوم - بسبب ذلك - عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه، لا يكاد يصل لحظ العيون إليه. وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا، محتدم حمرة الشباب، صقيل رونق الملك عليه، ناظر فى علم اللسان العربى وغيره، بارع فى الأدب الملوكى، ذو دهاء على فتوة سنة وغمرية شبيبته.

فالملك الصقلبى - على ما يذكر - يروم توجيه الأسطول المذكور إلى القسطنطينية، أنفة لهذا الصبى المذكور وما جرى عليه. وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد، فالله عز وجل ينكثه خاسرًا على عقبه، ويعرفه شؤم مذهبه، ويجعل قواصف الرياح خاسفة به، أنه على ما يشاء قدير.

وهذا الخبر القسطنطينى - حققه الله - من أعظم، عجائب الدنيا، وكوائنها المرتقبة. ولله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره.

## شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير، ونحن بمدينة أطرابنش المتقدم ذكرها، منتظرين انسلاخ فصل الشتاء واقلاع المركب الجنوى الذى أملنا ركوبه إلى الأندلس، أن شاء الله عز وجل، والله سبحانه ييمن مقصدنا، وييسر مرامنا، بمنه وكرمه.

وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها - دمرهم الله - وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك، إلى طوارئ دواعى الشقاء من أبنائهم ونسائهم.

وربما تسبب إلى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه إلى فراق دينه: فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم، التى هى حضرة ملكهم الطاغية.

ويعرف بابن زرعة: ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام، والانغماس في دين النصرانية، ومهر في حفظ الإنجيل، ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية. وربما طرأ حكم إسلامي فيستفتى أيضا فيه، لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين.

وكان له مسجد بازاء داره أعاده كنيسة - نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة - ومع ذلك فأعامنا أنه يكتم إيمانه، فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[1].

ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم: القائد أبو القاسم بن حمود، المعرف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرًا عن كابر. وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح، مريد للخير، محب في أهله، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى، وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج، إلى مآثر جمة ومناقب كريمة. فارتجت هذه المدينة لوصوله.

وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية، ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه، افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين - أيدهم الله - فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال.

فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه، وأمره بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله. وصدرت عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم، ما يبكي العيون دما، ويذيب القلوب ألما. فمن ذلك أنه قال: كنت أود لو أبساع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه، ويؤدى بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين. فتأمل حالاً يؤدى بهذا الرجل - مع جلالة قدره وعظم منصبه - إلى أن يتمنى مثل هذا التمنى، مع كونه مثقلاً عيالاً وبنين وبنات! فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه، ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة. وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدى الله عز وجل.

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٦.

وفارقنا باكيًا مبكيًا، واستمال نفوسنا بشرف منزعه، وخصوصية شمائلة، ورزانة حصاته، وشمول مبرته وتكرمته، وحسن خلقه وخليقته. وكنا قد أبصرنا له ولاخوته ولأهل بيته بالمدينة ديارًا كأنها القصور المشيدة الأنيقة، وشأنهم بالجملة كبير، لا سيما هذا الرجل منهم، وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم، أصلحت أحوالهم، ويسرت لهم الكراء والزاد. والله ينفعه بها، ويجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنه.

ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة، أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه، أو تغضب المرأة على ابنتها، فيلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح فى الكنيسة، فيتنصر ويتعمد، فلا يجد الأب للإبن سبيلاً، ولا الأم للبنت سبيلاً. فتخيل حال من منى بمثل هذا فى أهله وولده، ويقطع عمره متوقعًا لوقوع هذه الفتنة فيهم! فهم الدهر كله فى مدارات الأهل والولد خوف هذه الحال.

وأهل النظر فى العواقب منهم، يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أقريطش من المسلمين فى المدة السالفة، فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى، والاستدراج الشيء بعد الشيء حال بعد حال، حتى اضطروا إلى التنصر عن أخرهم، وفر منهم من قضى الله بنجاته، وحقت كلمة العذاب على الكافرين. والله غالب على أمره، لا إله سواه.

ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى - أبادهم الله - أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله، اتباعًا له واقتداء به، تكفل الله بعصمته جميعهم، ونجاهم مما هم فيه، بفضله وكرمه.

ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التى تقطع النفوس إشفاقًا، وتذيب القلوب رأفة وحنانا، أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج، راغبًا فى أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الآدراك، فإن رضيها تزوجها، وأن لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وأخوتها، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين. فطاب الأب والأخوة نفسا لذلك، لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم إذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم. فتأخر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة.

وطال عجبنا من حال تؤدى بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب، وإسلامها إلى يد من يغربها، واحتمال الصبر عنها، ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها.

كما أنا استغربنا حال الصبية - صانها الله - ورضاها بفراق من لها، رغبة فى الإسلام، واستمساكا بعروته الوثقى. والله عز وجل يعصمها ويكفلها، ويؤنسها بنظم شملها، ويجمل الصنع لها بمنه. واستشارها الأب فيما همَّ به من ذلك، فقالت له: أن أمسكتنى فأنت مسئول عنى! وكانت هذه الصبية دون أم، ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها.

## شهر ذى الحجة، عرفنا الله يمنه وبركته

غُمَّ هلاله علينا لتوالى الأنواء، فأكملنا أيام شهر ذى القعدة، بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس، ونحن بهذه المدينة المذكورة، طامعين فى قرب السفر، مستبشرين بطيب الهواء، والله ييسر مرامنا، ويتكفل بسلامتنا بعزته. واتفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيرا، فعلم أنه من ليلة الثلاثاء، فانتقل حساب الشهر إليها.

وفى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور، والثالث عشر من مارس، وهو يوم عرفة - عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات - كان صعودنا إلى المركب، بمنه الله ورزقنا السلامة فيه، مبيتين للسفر - قرب الله علينا مسافته - فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة يوم عيد الأضحى، نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه، ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين، عصم الله الجميع، ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه، أنه سبحانه كفيل بذلك.

ورمنا الإقلاع فلم توافق الريح، فلم نزل نتردد من المركب إلى البر، ونبيت للسفر كل ليلة اثنى عشر يوما، إلى أن أذن الله بالإقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى الحجة المذكور، والخامس والعشرين لمارس. فأقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم، قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى، وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر. فوصلنا إلى جزيرة الراهب - وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد - وبينها وبين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا. فتغيرت الريح علينا، فملنا إلى مرساها.

فكان من الاتفاق العجب أن ألفينا فيها مركب مركون الجوى، المقلع من الإسكندرية بنحو مائتى رجل ونيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين كنا فاوفناهم بمكة - قدسها الله - فى ذى الحجة من سنة تسع، ولم نسمع لهم خبرا منذ فارقناهم، ولاسمعوا لنا.

وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة. منهم الفقيه أبو جعفر بن سعيد، صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها، فلحين ما علموا بنا، تطلعوا إلينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه، رافعين أصواتهم ببشرى السلامة واللقاء، مسرورين

بالاجتماع، باكين من الفرح دهشين داهلين لوقوع المسرة من نفوسهم، ونحن لهم على مثل تلك الحال.

فكان يومًا مشهورًا، اتخذناه عقب العيد عيدًا جديدًا، ونزل الأصحاب بعضهم إلى بعض، وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها، وجعلنا هذا الاجتماع عنوانًا كريمًا لما نؤمله من انتظام الشمل بالأوطان، إن شاء الله عز وجل.

وأهب الله علينا ريحًا طيبة في سحر تلك الليلة، وهي ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور، فأقلعنا بها ونحن في أربعة مراكب، كلها تؤمل جزيرة الأندلس بحول الله تعالى. وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجي المراكب تزجية حثيثة، ونحن من الشوق إلى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح في حث الرياح وانزعاجها، والله يمن بالتسهيل والتعجيل، ثم انقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين، فضربت في وجوهنا فأنكصتنا على الأعقاب، فرجعنا عودا على بدء إلى مرسى جزيرة الراهب، فوصلنا إليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور.

ثم أقلعنا منه عشي يوم الجمعة بعده، منفردين دون المراكب المذكورة، فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب في الجرى. فأصبحنا يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر، ونحن على طرف جزيرة سردانية، وقد قطعناها جريا - وطولها أزيد من مائتي ميل - فاستشرنا وسررنا، وقدر للمركب في يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل، فكان أمرا مستغربًا.

ثم أن الريح الموافقة ركدت عنا، وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه - وهو أول إبريل - إلى جهة بر أفريقية، فأرسينا يوم الإثنين المذكور بجريرة تعرف بخالطة، وهي جريرة غير معمورة، ويقال أنها كانت معمورة في القديم، وهي مقصد العدو، وبينها وبين السر المذكور نحو ثلاثين ميلا، وهو منا رأى العين. فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها في دخول مرساها، عصم الله منها، وتوالت الأنواء علينا فيها ونحن ننتظر فرجا من الله تعالى، وكان مقامنا فيها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم.

## شهر محرم سنة إحدى وثمانين
## عرفنا الله بركتها ويمنه

غُمَّ هلاله علينا فحسبناه على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر أبريل، عرفنا الله بركة هذه السنة ويمنها، ورزقنا خيرها، ووقانا شرها، ومن علينا بنظم الشمل فيها أنه سميع مجيب.

وفى ليلة الجمعة الثانى منه، أهب الله علينا ريحًا شرقية أقلعنا بها وهو لين رخاء، إلى أن استشرى فعاد ريحا شديدة، جرى بها المركب أقوى جرى وأعدله. وما زلنا منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقى، شوقا إلى ريحه، فلايهب منه نسيم، حتى خلناه لعدمه عنقاء مغربًا إلى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه، فأجراه لنا الآن هى شهر نيسان، عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه.

وصحتنا هذه الريح الشرقية نحو يومين سرنا فيهما سيرًا حثيثًا، وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا، ثم تلاغبت بنا الرياح المختلفة، فأقمنا بها نضرب البحر طولاً وعرضًا، ولا يتراءى لنا بر، حتى ساءت ظنوننا، وتوهمنا اسقاط الرياح لنا إلى جهة بر برشلونه - دمرها الله - إلى أن أذن الله بالفرج، فأبصرنا بر جزيرة يابسة ليلة السبت، العاشر من الشهر المذكور، ونحن لا نكاد نتبينه - لبعد - خيالاً خفيًا.

فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا، فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل، بعد مكابدة اختلاف الرياح فى دخوله، فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال. وكان ارساؤنا بازاء جزيرة فرمنتيرة، وهى منقطعة عن جزيرة يابسة، وبينهما مقدار أربعة أميال أو خمسة، وفيها قرى كثيرة معمورة، فأقمنا بمرساها، ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ والعجوز.

وفى تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الأندلس، وأقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون، فحدقت الأبصار لهذا البر سرورا بمرآه، واستبشرت الأنفس بالدنو منه. وأصبحنا يوم الأحد الحادى عشر من الشهر بالمرسى المذكور، والريح غريبة، ونحن ننتظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بارسال الريح الموافقة نشرا بين يدى رحمته، إن شاء الله.

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه، أقلعنا - على اليمن والبركة - بريح شرقية لينة المهب لها نفس خافت، داعين الله عز وجل فى احياء ذمائها، وتقوية اجرائها، وجبال دانية أمامنا رأى العين، والله يتمم فضله علينا، ويكمل صنعه بعزته لنا. وتمادت وانتشرت، بفضل الله تعالى، فنزلنا بقرطاجنة عشى يوم الخميس الخامس عشر منه، شاكرين لله على ما من به من السلامة والعافية، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين.

ثم أقلعنا منها اثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا فى فحص قرطاجنة، بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج، ثم منه يوم السبت إلى مرسية، ومنها فى اليوم بعينه إلى لبرالة، ثم منها يوم الأحد إلى لورقة، ثم منها يوم الاثنين إلى المنصورة، ثم منها يوم

الثلاثاء إلى قنالش بسطة، ثم منها يوم الأربعاء إلى وادى آش، ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحرم والخامس والعشرين لأبريل إلى المنزل بغرناطة.

فألقت عصاها واستقر بها النوى  كما قر عينا بالإياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه، والتيسير والتسهيل الذى والاه، وصلواته على سيد المرسلين والآخرين: محمد رسوله الكريم ومصطفاه، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهداه، وسلم وشرف وكرم.

فكانت مدة مقامنا، من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت ايابنا هذا، عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا، والحمد لله رب العالمين(*).

(*) هذا أخر المخطوطة .